ذخائر العرب
١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة
(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسماة بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق
من النسخة الوحيدة المحفوظة
بجامع القرويين بفاس

إ. ليفى بروفنسال

أستاذ الحضارة العربية بالسربون
ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس
والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

مقدمة

إنّ المصنَّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصِّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدّ الآن — سبق أن عُرف لدىٰ كلٍّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصّ العهد المسمَّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ ، والموافق إجمالًا للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولًا ثلاث قِطَع ، ومن ثمّ قطعتين واسعة كلّما اكتُشف شىء منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديقى الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلِّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغًا طويلًا يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحب هذه الترجمة بمقدّمة مفصَّلة وبمجموعة من الملاحظات التأريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطّلع بتفصيل على المؤلَّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتأريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تأريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مُذكّراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد فى الغرب الإسلامى بعض من يترجم لنفسه من الشخصيّات الهامّة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب فى القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) ، فلا يعرف من هذا الصنف التأريخى إلّا مصنَّفٌ واحدٌ يذكر ، وهو كتاب البَيْذَق صاحب المهدى ابن تومرت مؤسّس المُوَحِّديّة ، وقد وقّتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال فى إسبانيا ظلّ مجهولًا إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأوّل ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءًا بعد جزء ، على مصنَّف لترجمة شخصيّة لا يقلّ أهمّيّة عن الأوّل ، وهو مصنَّف الأمير عبد الله ، الذى كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهملة منذ ستّة قرون على الأقلّ فى جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة فى كتاب « الحُلَل المَوْشية » المجهول المؤلِّف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخًا عن الدولة التى أسّستها أسرتُه فى إسبانيا والتى كان هو آخر ممثّليها . وعندما أصدرتُ فى ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلّق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهى الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقفتُ على ديوان بخطّ عبد الله بن بُلُقِّين ألّفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه ممّا يستظرف من مثله ، أتحفنى به خطيبُ المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت فى نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عبّاد فى سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذى استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كُتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المتردِّدة : « صحّ ، أصْلٌ » .

وأخيراً ، اكتشفت لى صدفة من صدف المطالعـة العنوان التامّ لمذكِّرات عبد الله : ففى فقرة من كتاب « المرقبة العليا » (ص ٩٧) ، وهو مصنَّف فى مراتب القضاء بالأندلس لمؤلِّفه المشهور ابن الحسن النُّباهى (وقد نشرته فى القاهرة سـنة ١٩٤٨) ، يتبيَّن أنّ كتاب عبد الله كان موسوماً بـ « التِّبيان عن الحادثة الـكائنـة بدولة بنى زِيرِى فى غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عمّا يُقصد منه : فالمؤلِّف الذى عُزل ونُفى قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله .

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيَّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟ فلأكْتَفِ هنا بتلخيص ما نشرتُه عنه أخيراً فى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبـــد الله بن بُلُقِّين بن باديس بن حَبُّوس بن زِيرِى الملك الثالث والأخير لمملـكة غرناطة التى أسَّسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بنى زيرى البربريّة الصِّنهاجيّة ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأمويّة بقرطبة . وُلِد فى سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيِّن عند وفاة أبيه بُلُقِّين سيف الدولة فى عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كولىِّ عهد لجدِّه الأمير باديس بن حَبُّوس ؛ ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة فى سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تميم المُعِزّ أميرًا مستقلاً فى مالَقة . ولم تكن دولة الأمير عبـد الله إلّا سلسلة طويلة من الاضطرابات فى داخل مملـكته ، والمشادّات المسلّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطئات مع ملك قشتالّة ألفُونْش السادس . وساهم عبد الله فى وقعة الزلّاقة ومحاصرة حصن لُيّيط عند تدخُّل المرابطين فى إسبانيا . لـكن اتّفاقاته مع الملك النصرانى أدّت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطى يوسف بن تاشُفِين لمحاصرته فى غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطرّ إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعُزل عن ملـكه وأُرسل إلى المنفى بمدينـة آغمات ، فى جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حيـاته .

أما كتابة عبد الله لمذكّراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإجبارية فى آغمات . وإنّ هذه الترجمة الشخصيّة تكوّن أعظم مجموعة وثائق نملـكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلّها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التى يحاول فيها المؤلّف أن يبرّر موقفه السياسىّ أمام الأخطار التى كانت تهدّم مملـكته ، فإنّ كتاب « التبيان » يقدّم لنا سَرْدًا مفصّلًا جـدًّا لجميع الحوادث التى أدّت إلى استيلاء ألفونشُ السادس على مدينة طُلَيْطُلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين فى شبه جزيرة إبريا فى السنة التالية .

كما أنّ مذكّرات عبد الله هى وثيقة سيكولوجيّة من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التأريخ التى أُلّفت من بعد ، على الحـكم على حالة الانحلال الاجتماعىّ والسياسىّ فى الأندلس قبل معركة الزلّاقة وبعدها ، وعلى التقدُّم الذى حقّقه فى هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانيـة . ومن جهة أخرى ، إنّ قصّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌّ جدًّا . ويجب إذاً أن نعتبر مذكّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداء من العصر الذى تنتهى فيه مؤلّفات ابن حيّان . وإنّ هـذه الفترة التى سأصِفُها بحول الله فى الجزء الرابع من كتابى « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنّ مخطوط مذكّرات عبـد الله يحتوى فى مجموعه على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتمتر) . وهو مسجّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطّه من الخطّ المبسوط الأندلسى . والنسخة على العموم فى حالة جيّدة عدا ورقتين ممزقتين جدًّا .

وقد أرفقنا مع النصّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِذارِى المراكشىّ ، ومن كتاب « الإحاطة فى تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه و بشخصيّتين هامّتين فى دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعده على الوقوف على أهمّ المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النصّ .

أودّ فى الختام أن أنبّه قرّائى الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثّرت إلى حدٍّ ما باللغة العامّية الأندلسـيّة ، وأنّه يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لدوزى لفهم بعض الألفاظ التى تبدو خاطئة .

وليس من الضرورى أن أنبّه القرّاء من جهة أخرى إلى أن العناوين التى أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن من فى النصّ الأصلى .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيه ١٩٥٥

« مذكرات » الأمير عبد الله : صفحة من الأصل المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

نظرات عامّة للمؤلّف

١ — القواعد التي يتعيّن للمؤلّف اتّباعها

. . . . .[1] واستنباط الغريب الذى لا يعقله كثيرٌ من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١) يولد خشونةَ اللفظ ، الذى تمجُّه الأسماع .

والكلامُ ، إذا خرج من القَلْب ، وقع فى القَلْب . ولا خَيْر فى رامٍ رَعِش ، ولا متكلِّم هائب ؛ فإنَّ الهَيْبة فرعٌ [من] المخافة ، والمخافة فرعٌ [من] الحذر ؛ ومَنْ حذر ، فقد عَقَلَه ، ومَنْ خاف ، تكدَّر عيشُه ، ولا تصحُّ مع هذا قريحةٌ ينطلق عنها اللسان ، ويذكى بها الجَنان ؛ فالنفسُ ، إذا منعت ما تشتهى ، تُرَى مختلطة ، وتصير كأنَّها بطوارقِ الخبل مختبطة .

ولا يجب على الناطِق والكاتب أن يتَّبع هواهُ فى أمْرِه كلِّه : فكلٌّ مفتون ملقَّنٌ حُجَّتَه ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غيرِ أصْل وعاملًا لغَيْر نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يُصلح غيْرَه ويُفسد حالَ نفسه ، وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقَيْن : يسعَى فى بلوغ أمَله وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مُراده دون أن يكون ذلك مُخِلاً بذكره ولا غرضاً لعدوِّه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهذَرٌ .

وليس يُحْمَدُ لواضعِ كتابٍ أو ناظمِ خَبَرٍ أكثرُ من جودة التأليف فقط ، لأنَّه إنَّما وضع ما قد سبقه إليه غيرُه ؛ وكلُّ أحد ينفق ممَّا عنده . وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةَ بَعْضهم على بَعْض ، ما سُمِع أحَدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكرٍ ، ولا يتبرَّع فى [شىء] . ولكنَّ الأولَى أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه فى قوله[1] : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

وليست الفائدة فيما قصدْنا إليـه ذِكْرَ خَبَرٍ يوصف ويأْتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنًى يؤدِّى إلى تأدُّب وانتفاع . فلعلَّك — أيُّها المتأمِّل كتابَنا — أن يكون عندك أو طرأ إليك خَبَرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تَجِده منصوصاً هُنا ، فتُعْجِز واضِعَه : فليس إلاَّ كما قدَّمناه . اللَّهمَّ إلاَّ أن يكون حديثاً يؤدِّى إلى القيام بحُجَّة صاحبه* والاعتذار عنه ١
من أمْرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنَطَق هَذَرًا ، وساعَدَ عليه أقواماً لم يخسروا فى عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا على غائبٍ أو ميِّتٍ لم يُجِر الجـــواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعَرْضـه .

أو أبان المؤلِّف عن نفسه حِذْقاً ومعرفةً تُذْكَر عنه وتُنشر بعده : فإنَّ ذلك من آكَد ما يجب له السعْىُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه فى تلخيصه ، إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجميل الثناء ، وأَنفةٌ لسوء المقال ، ونشاطٌ على

---

(١) سورة الزمر : ١٨ .

ترفيع الذكر ، مع فتو الهمة وصبوة القريحة . و إلاّ ، فالأمرُ ناقصٌ منه ، واللسانُ عيٌّ عنه .

ولا سبيل إلى اجتماع أمرَيْن مختلفَيْن فى الإنسان معاً ، ولا فى غيره من جميع المخلوقات . فإنّه ، متى ارتفع أمرٌ ، نزل ضِدُّهُ : كالحياة ، إذا ارتفعت ، وجب الموت ؛ و إذا ارتفعت الصحّة ، وجب السقم ؛ و إذا ارتفع الكرب ، وجب الفرَج .

هكذا نسق كلّ أمرٍ : كالعامل للآخرة محضاً ، لا بُدّ له من نقصان دنياه .

أَلَا ترَى أنّ مؤلِّفَ الكتاب ، إن كان غرَضُه نَظْم الكلام وسَجْع اللفظ ، كان ذلك ضارًّا بالمعنى ؛ و إن أتَى به ، فإنّما يسوقه بعد تحليق عليه ، ورُبّما وضعه من غير شكله . و إذا تمّ المعنَى ، نقص بَعْضُ اللفظ ؛ كما قيل : « إذا تمّ العقلُ ، نقص الكلام » .

وأرَى أنّ مساقَ الحديث فى التأليف بَعْضه لبَعْض أحسنُ خرطاً وأفضلُ نظماً من تقطيعه . ولهـذا نُرِيدُ إيرادَه كالحديث « [فالحديث] ذو شُجون » ، ونضرب المثَل لبَعْضه ببَعْض : فيتّفق إيرادُه دفعةً واحدةً ، ونصُّه على أكْمَل ما يمكن .

٢ — حقيقة الإسلام والردُّ على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التى نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسّه ، فهو لآخِرتِه أجْهَل ، [آخرته] التى لا تُعرف إلّا بالتفكُّر والاعتبار ، بعد

ما حضَّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى[١] : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصْلُ (٢
العلمِ كلِّه معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمَعَاده ، وأنَّه لم يخلق عبثاً . فإذا صحَّت معرفتُه بذلك ، كان أحْرى أن ينتفع به لدنياه التى يشاهِدُها معاينةً .

والرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ عَلِمَ فعَمِل : فذاك الذى يُدْعَى فى الملكوت ؛ ورجلٌ عَلِمَ ولم يعْمَل : فذاك الذى يُضاعَف له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْلم ولا عَمِل : فذاك ، إن مات ، يموت مِيتةً جاهليَّةً ، ولا تصحُّ له معرفة دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعطِّلٍ . فإذا حَسُن تمييزُه عن الصنف المُلْحِد ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فاتَّبع على يقينٍ وجودة نَظَرٍ ، لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكُّ .

وأمَّا من كان من الأصناف المُلحِدة ، غير أهل الكتابَيْن[٢] من المُشركين ومن سِواهم ، فالضلالُ منهم بيِّنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما ما يزعم أهل الكتاب من أنَّهم على الحقّ ، ولهم الدين القويم[٣] ، وأنَّ قولهم أحلُّ [بغيره] ، فالردُّ عليهم فى ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون أنه ليس بعد نبيِّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلاَّ بأن تكفروا بمن كان قبل نبيِّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ وكُتُبٌ مُنزلةٌ وأنبياء عدَّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ، لم يجبْ لكم أنتم شيء ! »

وإنَّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلين ، وهو قوله تعالى[٤] :

---

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا فى الأصل . (٣) أصل : « القديم » .
(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

﴿ وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيِّنة فى الفترات من عبادة الأوثان وتعبُّدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن فى حكمة الله ومشيئته أن يترك المرء ودينه ، ولا يهمل من يعبد سواه حتى بعث محمَّدًا — صلَّى الله عليه وسلَّم — بالحقِّ بشيرًا ونذيرًا ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد فى الرحمن ، وسنَّ السُّنَن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المُنْكَر . وكان فى ذلك الزمان قد ضلَّ أهلُ الكتاب ، واختلفوا ، وردَّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحَّ لفرقة منهم شريعةٌ مع الأخرى ؛ وكانوا كـ* . . . . . . [1] ٢ (ب) الله تعالى ؛ فختم الله الرسالة بنبيِّنا — عليه السلام — ليبيِّن له ما فرضه عليهم ، ويُظهره على الدين كلِّه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » وقال الله تعالى[2] : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالحُجَّة عليهم ظاهرة على ما بيَّنَّاه فيما يعطى العقل والقياس . وأمَّا تِبْيان نبوَّته — عليه السلام — فى الآيات التى جرت على يده ، فأكثر من أن توصف .

وإذا قتلتَ أحَدَهم ببعض هذه الحُجَج ؛ فمن ينتحل منهم فِقْهًا فى علمه وسدادًا ، يرجع إلى أن يقول : « إنَّما كان رسولًا إلى العرب ! » فتأمَّلْ تناقُضَه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق فى كلِّ مقالة وما أتى به . ثُمَّ الله يقول[3] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « بُعِثْتُ إلى الأسْوَدِ والأبيَضِ والحُرِّ والعَبْد » ؛ فَهُمْ لا يصحُّ لهم الإنكار جملةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر فى الأصل .
(٢) سورة المائدة : ٤٨ .
(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ — قصور القياس دون عون من الوحى

وقد كانت معرفة البارئ تعالى بالعقل اضطرارًا لقوله[1] : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو تُرِكَ الناس فى ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم فى هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عُهِدَ إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكَرِ ، ولغلب جُهَّالَهم وعامَّتَهم التظلُّمُ ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرُّسُل ، ليكون ما أتوا به دواءً لِمَا فى الصدور وهُدًى ورحمةً ؛ فمن عرف الله قبل بالعقل ، أتمّ عليه نعمته ؛ فقد عرّفه نفسه باليقين ، وبشّره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرتفع الشكّ ويوقن بالمعاد ولينقاد إليه عامّة الناس طوعًا أو كرهًا .

ألا ترى أن لا شىء من أُمور الدنيا يصحّ بالظنّ دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التى لا يوقن . . . . [2] * الذين أبانوا عنها ؛ والظنّ أكذب الحديث والشرع ، ومن تقلّده بطل [رأيه] . وليس حكمُ البارئ تعالى مما يجرى على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو واهب العقل الذى به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أنّ النفس لم يقف أحدٌ منها على حقيقة ؟ ما هى إلاّ اختلافٌ بين العلماء الشرعيِّين وأهل الطبيعة والدَّهْرِيّة . والحقّ إنما يكون فى طرف واحد ؛ فهم يخبطون خَبْطَ عَشْواء وإذا قِستَ على الحقّ ، فإنما تجده عند أهل السُّنّة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر فى الأصل .

وحديث الرسول — عليه السلام — ، فهم يتكلّمون على أصل ، وغيرُهم على قياس : ﴿ إن يَتّبِعُون إلاّ الظّنّ وَإنْ هُمْ إلاّ يَخرُصُونَ ﴾[١] .

وترى من المُلحِدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إنّما أعلم[٢] ما تُدْرِكه حواسّي من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركتُه بعقلِي ممّا كان ؛ ولا أعلمُ ما يكون ، وإنّما أنا آنُ الآن » . فالردُّ عليه أن يقال له : « أتدرِي بِمَ عرفتَ هذا كلّه ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذى هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إذا عرفتَ بالعقل ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شىء متقدِّم تعرف به العقل ، ولا استطعتَ لنفسك ، ولا علمتَها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتدبيراً . وواهِبُ العقل الذى خلقك ودبّرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يعيدك ولا يجعلك هملاً ، ولم يخلقك عَبَثاً ! ولو أنّك تعلم — أيُّها الشقىُّ — أنّ العقل ، إذا جحدتَ به آيات ربّك ، كَلٌّ عليك وحَمْلٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى[٣] : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ . وقال[٤] : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

وقد أتت الرسُل بالآيات التى هى خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك فى العالم أشدّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البَشَر . وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله فى قدرته على ما يشاء * جاحِدٌ كافرٌ. ٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إنّها هى تُدَبِّرُ كلّ شىء ، وإنّها أعلم [من] كلّ

---

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٢) أصل : « نعلم » .
(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .
(٤) سورة يس : ٧٨ .

عليم وأحكم [من] كلّ حكيم ؛ فتجمع من فعلها في الأبدان ما لا تُدركه الأطِبّاء باجتهادها . وقال غيرُهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرَى ما هو . » فالحُجّة عليهم : أهِيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعُ كثيرةٌ ؟ بل ، سيقولون : « لكلّ شيء طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحّ لأحدها إلاهيّةٌ ، وغَيْرُها مُناقِضٌ لها . وهى كانت حُجّة إبراهيم على قومه وردّه على من قال إنّ الشمس هى حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى الظّلّ يفعل ضدّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فأثبت الوحدانيّة بالحُجّة القاطعة الواضحة .

وقد ذُكِر عن سُقْراط ، وكان في زمن جاهليّة ، أنّه قال ، بما أوتى من الحكمة ، مخاطِباً البارِئ عزّ وجلّ : « يا أزَل الأزَل ! ويا أوّلَ الأوائل ! ويا قديمًا ! لم يَزَلْ مِنّى نارُكَ لِعِلْمِى أنّ هذه المخلوقات من آثارك ؟ » ولم تكن معه فِئَةٌ يتّبعونه على قوله ، ولا يعقلون ما قال ، حتى أمروا بقتله .

ولهذا يرجع ما قدّمنا ذِكْرَه أنّ شرعاً لا يتمّ بقياس العلماء وخواصّ الناس دون الرسالة ، على أنّه لا يشكّ ذو عقل أنّ المخلوقات قد جعلها الله عِلَلاً بَعضها لبَعْض ، ولم يخلقها عَبَثاً ؛ ولكلّ عِلّةٍ عِلّةٌ إلى أن ينتهى ذلك إلى البارِئ عزّ وجلّ ؛ فهو الذى لا فوقه شيء . وهو قول إفلاطُون لموسى — عليه السلام — إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولُ مَنْ أنتَ ؟ » أراد استخبارَه ؛ فقال له موسى : « أنا رسول العِلّة » . فقال له إفلاطون : « ما العِلّة ؟ » قال : « لا أدرى ! ولو كنتُ أدرى ، لكنتُ أنا العِلّة ! إنّما أنا متّبع ! » فقال له إفلاطون : « اذهبْ وبَلِّغْ ما شئْتَ ! فالآن صحّ عندى أنّك رسولٌ حقًّا ! »

وكذلك الجُزْء لا يُحيط بالـكلّ ، والـكلُّ مُحيطٌ بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى[١] : ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ .

وكذلك * أهل الهندسة والمعرفة بالنجوم قد علموا أنَّها مخلوقةٌ مصرّفةٌ ٤ (١) لما . . . العباد ؛ والعاقل منهم يقرُّ بذلك ، غير أنّه نُهى عن النظر فيها والاجتهاد فيما نُهى عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدى إلى الحقيقة ؛ والفسادُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَعْ ما يُريبك إلى ما لا يُريبُك » .

وَهُمْ يقولون إنّ فيها سعوداً ونحوساً ، إنّما فى الفلك سعدَان ونحسَان ، يعنون بهـا المُشترى والزُّهَرة وزُحَـل والمَرّيخ ، ونَيِّرَان ، وهُمـا الشمس والقمر ؛ ولا يصحُّ لعالِمٍ أن يتكلّم عليها إلّا بمزج بَعْضها بِبَعْضٍ ، فكيف يكون لها الحكمُ ؛ وهى أضدادٌ ، والحَاكِمُ لا يضادُّ ، وخالقُ الخير والشرّ إليه يرجع الأمر كلُّه ؟ وهو مصرِّفُ الدهور بمـا يشاء ! لا إله إلّا هو ، العزيز الحكيم !

وليس فى العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هـذا بُنيت الدنيـا ، وكذلك الدُّوَل والمِلَل : كلٌّ يأتى فى أوانه ، ولا يتعدّى وقته ؛ والدينُ صلاحُ العـالَم ، ولا عدْلَ إلاّ به ، والمُلْكُ يعضده ويحميه ، وهو قوام العـالَم على ما رتّب البارئُ عزّ وجلّ .

(١) سورة البقرة : ٢٢٥ .

٤ — ضرورة التعليم والتجربة

وأعلَمْ أنّ العقل محتـاجٌ إلى التَعلُّم ، ولا يستحـكم تَعلُّمٌ إلّا بتَجْرِبة ، ولا تتحكَّمُ تجْرِبَةٌ إلاّ ما كان فيها بعض النـكد والإشغاف ؛ فالإنسانُ على ما ضرِىَ عليه وعلى أنّ السعيد مَن اتَّعظَ بغيره ؛ لـكن من شأْن الإنسان التسويف و « لَعلّ » و « عَسَى » ؛ فإذا أُحْتِيجَ فى ذاته ، أعقبـه ذلك يقظةً وحنكةً . وكذلك من أَحْوَجَ إلى نفسه كأنّما لا يتّـكل على غيره . فينبغى للعاقل أن يعمل نفسه فى رياضة ذلك ، والتمرُّن فيـه ، إن لم يحوجه الدهر ؛ وإلّا : فليتعب ذهنه ، ويشغل باله بالفكرة فيه ، خوفاً أن يُضطَرّ إليه ، وإنّ الدعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وَجَدَها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فَضْلَ ما هو فيه ، وكانت لذّتُه به أشدَّ تمكُّناً : فإنّه* لا يعرف قدْرَ الخير مَنْ لا يعرف الشرّ . وإعمال الفكرة فى هذه المَعانِى كالتجرُّب بها : فإنّ الاهتمام بما لم يكن بلاء فى النفس كائنٌ ، وذلك البلاء مؤدِّبٌ ، واعِظٌ ، نافِعٌ ، مضمحلٌ ، خيرٌ من بلاء موجع حال . ٤

وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنَّما هو نورٌ يضَعه الله فى القلوب .

ولا عذر للإنسان فى أن يجهل علماً يليق به ، لقول الله تعالى[١] : ﴿ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن حُسْنِ إسلام المَرْء تركه ما لا يعنيه . وليس كلُّ ما حضّ عليه ونهى عنه على العموم ، بل لذلك كلّه حُكْمٌ يحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جَهْدَه .

---

(١) سورة النحل : ٤٣ .

٥ — التكوين السياسى للمؤلِّف

وقد كُنّا — مَعْشَرَ أهلِ بيتٍ للملكة — نَرَى من آكَدِ ما نتأدَّب به إعمالَ السياسة فى طلب الرياسَة ، والتَّشَّىَ لها بكلِّ الوجوه ، وإحضارَ الأذهان ، ما لَو أنَّ المُفرِطَ فى بعض ذلك مِنّا يكون أفْقَهَ الناس فى سائرها من العلوم ، لكان عندنا ناقِصاً ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التناقُسُ على ذلك .

وقَتلْناها نَحْنُ عِلْماً لرياضة أنفسنا لها ، وما أَجْرانا[1] عليه آباؤنا ، وبصَّرونا فيه من أوَّل نشأتنا .

وتلك صناعةٌ وجب تَعَلُّمُها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التى منها معايش الناس ، ولا بدَّ لهم من إتيانها . ولَعَمْرِى إنَّ الوالى أكثر عِلْماً وأحسن عَقْلاً : فإنَّ جميع عقول الناس تعرض لدَيْه ، ويجرِّب فى موضعه مالا يجرِّب غيرُه فى تقلُّبه فى البلاد ، وإليه تهدى الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وترفع الحاجات ، وتقع العِنَايات ؛ فيرَى ويسمع كلَّ يوم جديداً لم يَرَهُ أمْس . وقال عمر بن العزيز — رضى الله عنه — : « لَسْتُ كخَبٍّ ، ولا الخَبُّ يخدعنى ! » وقيل : « فلانٌ لا يعرف الشرَّ » . قال : « ذلك أَجْدَرُ أن يَقَعَ فيه ! »

*ولمّا كان المُظَفَّر جَدُّنا — رضى الله عنه — قد أُوتِىَ من الدهاء والتمييز ٥(١)
لأحوال الزمان مالا خفاء به ، وأنَّه من آكَد ما يجب له النظر فيه ترشيحُ

---

(١) أصل : « أجرونا » .

أحَد بَنِيه للولاية بَعْدَه ، وأنَّ ذلك لا يتمُّ إلّا بتمرينه وإعماله فى جميع خِدْمته ، كَىْ يتدرَّب ولا يخفى عليه من أُمور الدولة ما يحتاج إليه فيه نفسه ، كُنتُ ممَّن وفَّقه الله لبِرِّه والانصياعِ لوصيَّته . فأمر بإخراجى من المَكْتَب إلى التصرُّف بين يديه ، وقال لى — نضرَّ الله وجهه — : « مَعَكَ من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك ! وهذا أولَى ما تتعلَّم ! فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مِنِّى وما ينقضى فى دولتى أيَّامَ هذه الفِتَن ؛ فإنَّ الزمان أشَرُّ ، والأيَّامُ أقْصَرُ من أن تُدْرِكَ تَعَلَّمَ كلَّ شىء يعنى به الملوكُ لأبنائهم ! »

فامتثلتُ حدَّه . وأخذتُ نفسى أوَّلاً بالتواضُع له واختصارِ كلَّ شىء يَقَع منه فى نفسه أنِّى أشْرَهُ به إلى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياسة ؛ بل كنتُ أتأبَّى له عن ذلك ، ولا أحْكُم بين اثنَيْن إلّا عن مشورته ومشاركة أهل السنِّ والعَمَل من وزرائه ، وأنْزِل نفسى لهم بمنزلة الابْن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم مَوْقِعاً ارتضونى به للخلافة من بَعْده . واتَّفق فى ذلك رأيُهم مع رأى الجدّ — رحمه الله .

ولم يكن منها نهارٌ إلّا وأستفيدُ فيه فائدةً من تَجْرِبة وحُنْكة .

وما كنتُ أجهلُه من الأشياء ، أَجِدُ له أعواناً من الوزراء ، يعلمونى بالصواب فيه لقلَّة خِلافى عليهم وبِرِّى بهم .

كلُّ ذلك [من] الأسباب التى أذن الله من أجْلها ولايتى من بعده .

وقد كان من أهل بيت المملكة مَنْ يصلح لها قَبْلى ، ومعى من أخٍ كبير وعَمٍّ وقرابةٍ أتوَقَّعُ استهدافَهم إلىَّ وتَغَلُّبَهم علىَّ ، ما لو أنفقْتُ مِلْء الأرض على كفايةَ شرِّه ، ما استطعتُ له . فكفانى الله تعالى ما كنتُ* ٥ (ب

أتوقّع ، وأرانى الخيرة فى عاقبة كلّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهُه . فنحنُ جُدَراء بتعداد نِعَم الله والإنصاف فى شُكْره ، كما حضّ الله عليه فى قوله[1] لنبيِّه — عليه السلام — : ﴿ وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وقد كان أبونا سَيْفُ الدولة — رحمه الله — مُرَشَّحاً للملكة ، كثيرًا حبُّ أبيه له ، وجَمْعُه الأموال من أجْله ، وتدريبُه عليه بكلّ وَجْهٍ . وكان — رضى الله عنه — من العقل والكرم وحُسْن الخُلُق والحِلْم ماشُهِرَ به فى البلاد ، واجتمع عليه محبَّة العباد . ولم يكن للمُظَفَّر جدّنا غيرُه ؛ فتوفّى — رحمه الله — ابنَ خمسةٍ وعشرين عاماً . وسنذكر من أحواله مع سائر أمور الدولة مايَرِدُ بعد هذا إن شاء الله .

٦ — صعوبة الإنصاف التأريخى

وأوّلُ ماينبغى تقديمُه ذِكْرُ دُخولنا الأَنْدَلُس ، وكيفيّة ولايتنا إيّاها ، إلى هَلُمَّ جَرًّا .

فإنّه ، متى أتَـيْنا على خبر يطيب ذِكْرُه فى هذا التأليف ، للمُعْتَرِض أن يقول : « هذا أحْسَنُ لو كان على أصْلٍ يُحْمَد ، وعن ولايةٍ تُرْتَضَى ! » فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف ، على أنّ الثناء الحسن لا يقع على الدولة إلّا فى مُدَّتها وأيّام سعادتها ، ولو كانت ظالمةً ؛ فلا يقع فيها الذمُّ إلّا بعد تَوَلِّيها ، ولو كانت عادلةً . والناسُ مع من سبق إلّا مَنْ نظر بعين العدل ، لا بعين الهوى ؛ وقليلٌ ما هُمْ !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولترَى أن لا شىء فى العـالم يسعد وينحس إلّا وكان أحد الأمرَيْن لا يشوبه غيرُه . ولا يتعلّق بالسعادة إلّا كلٌّ مستحسن من غير تـكدير ، كما أنّه لا تشوب المنحسة مافيه أدنى مرور . وليس مع الإقبال إدبارٌ إلّا تمام المُـــدّة .

ولا يتّفق الناسُ أجمع على مدح أحدٍ ولا على ذمّه : فإنّ رِضَى العامّة أمرٌ لا يُدْرَك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حُـكْمه لأحد الخصمَيْن على الآخر ضرورةً ؛ فالمَقْضِىُّ عليه انقلب ساخطاً ، والمَقْضِىُّ له انقلب راضياً ، وكلاهُمَا يتـكلّم على شهوة نفسه . فكيف يتّفق إجماع العامّة على خير واحدٍ * ٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادرًا على أن يُسوِّى بين [أُمور خَلْقه ، وجديرًا ، وإن] كُيِّفَتْ ، أن يرفع بَعْضَهم فوق بَعْض دَرَجاتٍ .

٧ — المُصادَفة وأثَرُها فى التأريخ

مَثَلُ المنصور

وإذا اعتبرتَ أحوال هذا العـالم على شىء من أمر الدنيا ، فإنما تجِدُه كائناً بأرقّ سَبَب : فمن بين جاهلٍ مسعودٍ أو حاذقٍ مُتَخَرّقٍ . وإذا بَعْثَرْتَ على ما هو فيه أعَنِ استحقاقٍ تصيرُ إليه ، لم تختبرْ من حاله ومقاله شيئاً يشذ عن العـالم ، ولا يثِقُ على رأى من تَزْدَريه عَيْنُك ، ولأنّ الجهل فى العامّة أغْلب ، والباطلَ إلى عقولها أسْرع : استعظَمتْ ما هو عند اللبيب حقير ، وتـكلّمتْ على ما ظهر إليهـا ، ولم تَقِسْ عليه بعقولها ؛ ولله

ما بطَن ، وللناس ما ظهَرَ . ولهذا ترَى صاحب الناموس أرْفعَ ذِكْرًا وأطْيبَ ثناء ، وإن كان يُرائى .

وقد كان المنصورُ بن أبى عامر ، على دقّة شأنه قبْلُ ، ولأنّه لم يكن من أهل بيت المملكة ، فيستحقّها عن الآباء ، ولا كانت به قدرةٌ على الدنيا ، قد حصّل على عظائم بدهائه ومخْرَقته على العامّة ، مع ما هيّأت السعادةُ له (وكان أقوى الأسباب فى سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنّه مَنْ كان طالِعُه من البروج الحوت والقوْس كان أعظم الأسباب فى سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامُه بدعوة الخليفة ، وإظهارُه الانخضاعَ له [فى جميع] ما يأتى ويَذَر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخماله لأهل الدولة الحَكَميّة[1] ، وتقصّيهم بالقتل ، متأوّلاً فى ذلك أنّ دولتَه تصفو[2] به ويقوى سلطانُه ، وأنّ فى بقائهم كثرة الخلاف وإيثار الفتَن وهلاك المسلمين ، حتى اتّسق له ما أمّل ، وبلغ من ذلك كلّه الغـاية القصوى — ولو أنّ أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلّق بسَبَب أو إظهار طاعة ، [لكان قُتِلَ] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنـه من [بعده ، فسار المنصور]* بأحْسَن سيرة وأحْمَد طريقة ؛ وكانت له فى بلاد العدوّ فتـكات ، نال الإسلامُ فى أيّامه عِزّاً ما كان بالأندَلُس [مِثْلُه] ، وأذلّ ما كان النصارَى عليه . ٦ (ب)

(١) فى الأصل : « الحاكية » .
(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

الفصل الثاني

الأحداث المُمَهَّدة لقيام دولة بني زيري
وأوّليّات هذه الدولة . أيّام زاوي بن زيري
وحَبُوس بن مَاكْسَن

٨ — الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور .
قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دُوَل الطوائف

وتوقّع [المنصور] من أجناده الاتّفاق على بعض ما يخلّ بدولته ، إذ كانوا صِنفًا واحدًا ، وتألُّبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبُّوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسوّل له رأيُه أن تكون أجنادُه قبائلَ مُخْتَلِفةً وأشْتاتًا مُتَفرِّقةً : إن همّ أحدُ الطوائف بخروجٍ عن الطاعة ، غلبها بسائر الفِئات ، مع احتياجه إلى تقْوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلُّل بلاد العدوّ وتدويخها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البَرْبَر وحُماتها وأنجادها مَنْ بلغه فروسيَّتُه وشدّتُه . وتسامَعَ الناسُ بالجهاد ؛ فبادر إليه من شَرْق العِدْوة مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابنُ أبي عامر على العدوّ ؛ وهُمْ كانوا

العِدّة فى الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء . وكان من أدهاهم رأيًا وأبعدهم همّةً زَاوِى بن زِيرِى عمّنا ، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإلَيهما كان الرأى والمشورة فى الأمر ، والحُكْمُ على من دونهم من الأجناد .

فرتّب ابنُ أبى عامر الرُّتَب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشِّرْك ، وحضّ المسلمين عامّةً على الغزو ؛ فعجز عن ذلك رعيّةُ الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلاقاة وشُغْلَهم بالغَزَوات عن عِمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهْلَ حَرْبٍ . فقاطَعَهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كلّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتّفاق ورضًى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصّل فى الدواوين جميعَ أموال الناس ، وكسرها * عليهم[1] [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمّت الأندلس] عدّة الثوّار و[اتّبعو] هم على تلك الآثار . [ودأبُه] فى ذلك إنّما كان على ما وَصَفْناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم فى الناضّ والطعام والمواشِى ، يقسمون ذلك على المساكين بكلّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرّعيّة ، وعزّ دُوَلهم ، وذَبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كلُّه عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأنْدَلُس قديمًا وحديثًا [عامرةً] بالعُلماء والفُقَهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأُمور مصروفة ، إلّا ما يلزم المَلِكَ من خاصّته وعَبِيده وأجناده من الأخْذ من واحدٍ

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو فى الأصل . وأكملناه بما يتفق والمعنى .

ودَفْعِهِ لآخر ، لينخَّل بذلك عسكره ويتخيَّر أفْضَلَه . . . . . فيه للمسلمين كفاية وعُدّة ، إذ كانت الأموال التى يعطونها من غير أُصولهم ، ولا اكتسابهم ؛ إنَّما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأمّا ما كان بَيْنهم من مظلمة أو قضيَّة وكلّ حُكْمٍ يرجع للسُّنَّة ، فإنَّما كان لقاضى البلدة .

فلما تمَّت الدولة العامِرِيَّة ، وبقى الناس لا إمام لهم ، ثار كلُّ قائد بمدينته ، وتحصَّنَ فى حِصْنه بعد تَقْدِمة النظر لنفسه ، واتِّخاذه العساكر ، وادِّخاره الأموال ؛ فتنافَسوا على الدُّنيا ، وطمع كلُّ واحد فى الآخر . وكذلك لا يصحُّ أمرٌ بين نَفْسَين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة ؟ . . . . إلّا الله . . . . من كان ظالماً منهم يتعدَّى . . . للقدر * الذى شاء ربُّنا لا شريك له . ٧

٩ — استقرار بنى زيري فى إلْبيرة بناءً على طلب أهلها

فلما رأى سلاطينُ صِنْهاجة وبنو زِيرِى اقتطاعَ كلِّ أمير فى بَلَدٍ لنفسه ، وذهابَ ما كانوا عليه من عزٍّ وأثَرٍ ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوة ، ليرجعوا إلى مُسْتَقَرِّهم . فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذِكْرُها ، وظهور فسادٍ كثيرٍ أضرَبْنا عن إيراده كلِّه ، إذ كان مَقْصَدُنا وَصْفَ دولتنا خاصَّةً . ولا بُدَّ من ذِكْرِ لُمَعٍ من غَيْرِها عند الاحتياج إليه .

وكان أهل إلْبيرة فى بَسِيط من الأرض ، وكان بهم من الغشِّ بَعضهم لبَعض ما إنَّ الرجل منهم ليتَّخذ بإزاء داره مسجداً وحَمّاماً فراراً من جاره ، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْمِ والٍ . وكانوا مع هذا من أجْبَن الناس

وأخْوَفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذُّباب ، إلّا بمن يحميهم ويذبُّ عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ، وأنّها أضرمت نارًا ، وتوقّعوا أن يتخطّفهم الناس ، وجّهوا إلى زاوِى المذكور ، شاكين ممّا هم فيه ، ويقولون : « إن كُنتُمْ جاهَدْتُم قبل اليوم ، فهذا الجهاد آكَدُ عليكم : أنفُسٌ تحيونها ، وديارٌ تحمونها ، وعزّةٌ تأوون إليها ! ونحن شاركوكُمْ بأموالنا وأنفسنا : لكم منّا الأموال والسُّكنَى ، ولنَا منكم الحماية والذبُّ عنّا ! » .

فقبل القومُ قَوْلَهمَ . واغتبطوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتَشَتُّتهم ورجوع أمرهم كلّه إليهم دون فِئَةٍ [تحميهم] ، ولا جماعةٍ يتوقّع عُصْبَتُها . فأتوهم مُحْتَشِدين متألّفين ، قد انقطع إليهم كلُّ من انتمى من البَرْبَر وتعلّق بهم . ونزلوا ساحتهم ، وحَيَّوهم بالتُّحَف والأموال ، وشاركوهم أحسن مُشاركة ، راضين بهم لا ساخِطين . واستجابت لهم عند ذلك مَعَاقِلُ كثيرة ، منها جَيَّان وأنظارها ، وحِصْن آشَر * من الغَرْب . ٨(١)

فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيُهم على أن يتقارَعوا عليها ؛ وكانت عادةً فى البَرْبَر ، كَىْ لا يأنفَ أحَدُهم ممّا يصير إلى أخيه . فرجعت إِلْبِيرة فى قرعة زَاوِى ، وحِصْنُ آشَر مع جَيَّان فى قرعة حَبُوس ابن أخيه جَدِّنا — رحمة الله عليهم — . وتعاقدَ جميعُهم على أنّه ، إنْ طرق العَدوُّ جِهَةَ صاحبه ، يكون الآخَرُ يحميها بنفسه ورجاله .

١٠ — ردّ الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعلهم ثوّار الأَنْدَلُس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكَتُهم ، فيطرقوهم ويحصّلوا على بلادهم ، لِمَا اختبروا من شدّتهم ورأيهم . فاجتمعوا على مُنازلتهم وقَصْدِهِم إليهم بأحشادهم ، كراهيَّةَ تَوْطيدِهِم بذلك المكان وبُغْضِهم لجنْسِهم . وقدّموا على أنفسهم إنسانًا سمّوه بالمُرْتَضَى ، زعموا أنّه قُرَشىٌّ ، كَىْ يستهِلّوا بخلافته عامّةَ الناس ، وليرجع أمرُهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادُهم وتألُّبُهم ، جمعوا أهلَ إِلْبِيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأتِ لفساد ديارِكم ، ولا قَهَرْناكم على استيطانها ؛ وإنّما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفِئات مُقْبِلَةٌ لطلَبنا : فإن استوثَقْنا منكم ، دافَعْنا عنكم ؛ وإن كانت الأُخرى ، فأعلمونا : نَمْضِ عنكم على أجمل وَجْهٍ . فَلَنْ نعدم الخَيْرَ بسيوفنا ! » فأجابهم القومُ : « اثبتوا فى قتال عدوِّكم والدفاع عنّا وعن أنفسكم ! فنَحْنُ رعيّتُكم الطائعة وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوى بن زِيرِى : « إذا كان هذا رأيُكم ، فأرَى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة ، ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها مَعْقِلاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا * . . . . والحَرْبُ ٨ (ب) سِجَال . . . .[1] يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظَنّ عجزًا ! وقد أمر

---

(١) خرم فى الأصل .

النبيُّ — عليه السلام — عند احتشاد المُشرِكين على المدينــة أن يُخَنْدَق حَوالَيْها ، وسنَّ الحَزْمَ ، مع مدِّ الوَحْى له ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل إلْبيرة : « لَسْنا نكلِّفُــكم[1] من الأموال ما تسرَّعْتم به ، إلّا أن تنفقوها فيما يخصُّــكم من تقوية مدينتكم بحشود رجّالةٍ منكم ، تنفقون عليهم ليكونوا بها لكم أعواناً : تصرِّفونهم حَرَساً وجواسِيسَ وما أشبه ذلك ، وتحماون من تعرفون أنّه يستطيع على الجُنْديَّة ، أو تبنون لأنفسكم سورًا يتوقَّع بتَرْكه ثلمةٌ تدخل بها الداخلة عليكم . وأمّا سِوَى ذلك ممّا يخصُّنا نحن ، فاعلموا أنّه لم نأتِ الأندلُس إلّا وأجْلَبْنا مع أنفسنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحَدٍ ، بانين على الإقامة إن اضطَرَرْنا إليها ؛ ولم نأتِها عن فاقةٍ ولا سعاية ؛ إنّما جئْناها رغبةً فى الجهــاد ، وأن تكون كفايتُنا التى شهرْنا بها على العدوِّ دون سائرهم ، وأن نفنى باقى أعمارنا فى طاعة الله ، إلى أن دفعَتْنا الأقدار إلى ما تَرَوْن . ونَحْنُ لم نطلب أحَدًا ، ولا تعــدَّيْنا على بشر ! وهؤلاء باغُونَ متطاوِلُون . وَمَنْ ﴿ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ[2] ﴾ ؛ ومن قُتِل دون ماله وأهله ، فهو شهيدٌ ! »

فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتّفق رأىُ الجميع أن يخيِّروا لأنفُسهم جَبَلًا مُنيفاً ومَعْقِلًا شامخاً ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه بقلّتهم وكثرتهم ، ويحلونه القاعدة ، ويخربون له إلْبيرة المذكورة . . . . .

. . . . .[3]* فوقعت أعيُنُهم على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ ٩ (١)

وجميع ما يليه من البَلَد كلِّه ينسق من وادى[4] شَنِيلِ المنحدِر من جَبَل

---

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) خرم نحو سطرين فى الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شُلَيْر . و بصروا بالجبل الذى فيه الآن مدينةُ غَرْناطة موسِّطة للبَلَد كلِّه : القَحْصَ أمامَه ، وجِهَتَيْ الزاوِيَة والسَّطح بجنبتَيْه ، ونظَرَ الجبَلِ وراءه . فأفْتَنَهم المكان ، وعملوا عليه كلَّ حساب ، ورأوا أنّه فى وَسَط النِّعَم وجمهور الرعايا ، وأنّ العدوّ ، متى نازَلَهُ ، لم يطق له إحصاراً ، ولا منعه داخلاً ولا خارجاً البتّة ، فى كلِّ ما يحتاج إليه الناسُ من المرافق . فشرعوا فى بُنيانه . وتولَّى كلُّ امْرِئٍ منهم إقامةَ داره من أنْدَلُسٍ و بَرْبَرٍ . وخربَتْ عند ذلك إلْبِيرَة .

١١ — خروج المرتضى لحرب بنى زيري وهزيمته

فلم يكن إلاّ مُدّةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البُنيان ، فإذا بالطوائف الباغية قد أقبلت طامعةً متألّفةً ، يظنّون أنّهم ، عند وصولهم ، لا ترتفد لهم ساعةً . وقدّموا كتاباً إلى زَاوِى للذكور ، يأمرونهم — بزعمهم — بالخروج أمامَهم على الأمان ، وأن لا سبيل إلى البقاء ، ولا يتركونهم بذلك الموضع : يُبْلون بذلك العذْر عندهم ، إذا ظفروا بعد هذا ، أن لا يقيلوا لهم عثرةً .

فلما قُرِئ على زاوى كتابُ المُرْتَضَى المُقام لهذا الناموس ، جمع رجاله ، وخاطَبَ ابنَ أخيه حَبُوساً ، يأمره بالقدوم عليه ؛ فأتى فى جميع عسكره ، ودخل المدينة على أعْيُنهم ، غير مُجانب لهم ، ولا مُتكامن منهم . واجتمع بغَرْناطة من صِنْهاجة دون الألف من خيرة الخيرة ؛ وكانت الطوائف الباغية فى نحو من أربعة ألف فارس .

فأمر زاوى للذكور [بكتب الجواب من] إملائه ، وقال للكاتب :

٩ (ب) « لا تَزِدْ شيئاً على ما أُمْلِي عليك ! * اكتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ[1] ﴾ .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إنَّ هذا الرجل لم يأْبَ الطاعة لنا ، إلّا أنه واثِقٌ بنجدته وبمن معه ، أو مُوَطِّنٌ على الموت ، أو معجبٌ مَحِينٌ ! » فزحفوا إليه .

وهشَّ القومُ إلى مُلاقاتهم . فأمرهم زاوى بالثبوت وتَرْكِ الطَّيْش ، حتّى يبدو له ما هم فيه . فقالوا بأجمعهم : « لا خَيْرَ لنا فى غير مُلاقاتهم ، إذ قد أيقَنَّا بأنّهم لا ينفعنا معهم شىء إلّا الظفر بهم أو الموت على أيديهم . ولا مَهْرَبَ لنا فى الأرض دون قتالهم ! إن بقينا ، لم يبارحونا ، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يروا منّا دفاعاً عنهم ! فإمّا هُلكٌ وإمّا مُلك ! وإنَّ موتَنا فى مُلاقاتهم ، بعد إبلاء العذر ، أحبُّ إلينا من تغلُّبهم على مدينتنا ! »

فخرجوا إليهم بأنفسٍ جريئة وعلى الموت مُوطَّنة ، وقلوبٍ حَنِقة والموت طالبة . فلم يكن إلّا كصَفْقةٍ بالكفِّ على الكفِّ حتّى ولّوهم الأدبار ، وانهزموا أمامهم مذعورين ، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم ، لا يلوى منهم أحدٌ على صاحبه . واتّبعتْهم صِنْهاجةُ ، وانبسطت عليهم أيدى البَرْبَر ، يقتلون منهم نَهمةَ أنفسهم ، ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسلحتهم ، حتّى امتلأتْ من ذلك أيديهم .

وكانت تلك الوقعة أوّلَ ظفر ثبتوا به فى أوطانهم . وهابَهم الناسُ ، وانقادت لهم الرعايا . وتوطّد مُلْكهم بغَرْناطة ، وطاعت لهم أكثرُ بلاد أعدائهم المهزومين .

---

(١) سورة التكاثر : ١ — ٤ .

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنّ زاوى بن زيرى ، لما بصر بهــذه الحال ، ورأى تألُّبَ أهل الأندلُس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمــل بذلك فِكْرَته وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنّ هذا يكون* دأبَهم أبدًا ، وإن كُنّا قد مُنحنا الظفر فى أوّل ١٠ صفقة ، لم نأمَنْهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُمْ ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مَيْل جنسيِّيهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أحَد ونخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهِدَ فيه ، مع ماعَلِمَهُ من وفاة بَادِيس بن المنصور ، والِدِ المُعِزِّ ، مَلكِ القَيْرَوان ، وأنّ ابنه وَلِيَ طفلاً صغيرًا ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقَدَر الذى قدّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوى بَنُون ، يعدل كلٌّ واحد منهم ببَدَنه مائة فارس فى نجدته وقوّة بأسه ورأيه : منهم بُلُقِّين بن زاوى . فأعاب هذا الرأى على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لغَــيْرِك ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضرًا لغائب ! واثبتْ بمكانك الذى لم تحصِّل عليه إلاّ بعد مشقّةٍ وإشرافٍ من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوى : « نستخلف على المدينة من شيوخ تَلْكاتَة الموثوق بهم فى المُهِمّات مَنْ يثقِّفها ، وينوب منابى فيها ، حتّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفيَّة دَوْلَتها . فإمّا أن يتهيّأ غَرَضُنا ، وإلّا انصرَفْنا إلى مَرْكَزنا » .

فتهيّأ للسير على سبيل المشاركة للمُعِزّ ، وأن يكون له بالأنْدَلُسِ عُدّةٌ

وعَبْداً ، وماأشبه ذلك ممّا يُسْتَعْمَل فى المُشارَكات واتّصال الأيدى على المُهِمّات . واستَخْلَف من استخْلَفَه من الشيوخ ألاّ يدخلوا[1] عليه داخِلةً ولا يُسْلموا[2] من أحواله شيئاً لابن أخيه ولأحدٍ من خَلْق الله ، * يُريهم ١٠(ب) فى مسيره[3] النظر لهم والسعْىَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك .

ثمّ خرج عن البلدة كأنّه يُقاد قوداً ؛ فلم يخرج منها بمرحلة إلاّ وكُتُبُ مُسْتَخْلَفيه سائرةٌ إلى حَبُوس بن مَاكْسَن ، يسفِّهون رأى زاوى ويقولون له أن يُعَجِّل بالقدوم إلى البلد ، وأنّه أحَقُّ بولايته من غيره ، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه ، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَاهُ إليه بزوال زاوى عنه . فلم يتأخّر عنه إقبالُ حَبُوس . وتَلقّتْهُ[4] صِنْهاجة بالطاعة والانقياد لمُلْكه . وسمع بخبَره زاوى ، وهو فى طريقه على مقربة من غرناطة ؛ وندم على ما كان منه . ولامَهُ وَلَدُه على ذلك .

ويُذْكَر أنّه ، لما وصل إلى القَيْرُوان ، وأَحَسَّ بمَذْهَبه بعضُ وزراء المُعِزّ نكروه وخافوا دواخِلَه عليهم ، وأن يكدِّر ما صفا . ورأوا أنّ ولاية المُعِزّ على طفوليّته ، وعيشَهم معه ، وتحكُّمَهم عليه ، أَخَفُّ عليهم من تَوْليةِ داهيةٍ مثل زاوى ، لا يملكون معه من قِطْمِير . فَدَسَّ إليه مَنْ سَقَاهُ السُّمَّ . ومات بتلك البلاد .

١٣ — إمارة حَبُوس بن ماكْسَن

وصَفَا الأمرُ لحَبُوس بن مَاكْسَن ، وسار بأجْمَل سيرة وأعْدَل طريقة . وصرف أحكامه أجمع إلى قُضاة البلاد ، وتعفّف عن كلّ شىء ؛ وجُمِدَتْ

---

(١) أصل : « يدخلون ». (٢) أصل : « يسلمون » . (٣) أصل: « مسيرهم ».
(٤) أصل : « وتلقوه » .

يَدَه على الحرام والأموال . فأَحبَّه النـاسُ ، وأَمِنَتْ معه السُّبُلُ ، وقلَّ الفسادُ ، وارتفع الجورُ .

وكان الرجـلُ مُحِبًّا فى أقاربِه وبنى عمِّه ، لم يستأْثر عليهم بشىء . وقسم عليهم البـلاد . وأمر كلَّ قائد أن ينتخب من الرجال عددًا يليق به وما يكون على قـدر ما أعطاه من الجهَات ، وأنهى إليهم : « إلاَّ فائدة تفيدونى بها تُنَفِّق عندى من مال أو تحفة غير الاستكثار من الأجناد ؛ فَمَتَى دعوتُ* أَحَدَكم لمُهِمَّةٍ ، و بَصَرْتُ عسكرَه أكثر عددًا وأجود خبرةً ، ١١ (أ) فذاك الأثيرُ عندنا ، والحظىُّ لَدَيْنا ! » فسارَعَ الأجنادُ إلى اللاحقة ، وزاد الجيش فى أيّامه ؛ وقامت هِمَمُ الرجال على ساق ، وتنافسوا على خصـال الحروب ومقاطع الشجعان .

وكان بنو عمِّه كلُّ إنسـان منهم سُلْطانًا فى ناحِيَته ، قد حاز جِهَته وانفرد بعسكره . وكان حَبُوس — رحمه الله — لا ينفرد برأى دُونَهم ، ولا يقطع مقطعاً إلاَّ بمشورتهم ، حتّى إنّهم ليجتمعون معه للحُكْم فى موضعٍ خارِجَ قصره دون السير إليه ؛ وذلك استحساناً منه ، كَىْ لا يحصل عليهم ما يقع فى أنفسهم منه ذلّة ولا ما ينقمون عليـه . وكان رفيقاً بهم ، مُحْسِنًا إليهم ، مؤَلِّفًا لكَلِمتهم . وكان من قوله : « إنَّ صِنْهاجة عندى مثـل الأسنان فى الفم : إن عدمتُ منهم واحدًا ، لا نخلفه أبدًا ! » فكانت له بهم الصولة على الناس والاستطالة على العدوِّ . وما كان كلُّ أَحَدٍ يرى تَرْكَه غنيمةً والسلامة منه من أعظم الفائدة ، فضـلاً أن يطمع فى شىء من جِهاته ، أو تُحَدِّثَه نفسُه بغزو بعض بلاده .

١٤ — المؤامرات التى دُبِّرت لإسناد الإمارة إلى يَدِّيْر بن حُباسة .

موت حَبُوس

وكان لحَبُوس بن ماكْسَن — رحمه الله — ابنُ أخٍ يُعْرَف يَدِّيْر ابن حُبَاسة . وكان عنده آثَرَ من وَلَده ، للَّذى كان يرَى من نباهته ، وإقباله على قراءة الكُتُب ومُجالَسة الفُقَهاء ؛ وهو الذى كان يلقى به الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمّات . وكان بارًّا بحَبُوس وبجميع أهل المملكة . وكان من أحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حَبُوس المعروف بأبى العبّاس ، لِمَا يرَى من تواضُعه وحُسْنِ مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك نامُوسٌ كبيرٌ عند* صِنْهاجة حتّى آثَرُوه على غيره . ١١ (ب)

وكان بَادِيس بن حَبُوس جَدُّنا — رحمه الله — كبير النفس ، عالى الهِمّة ، حادٌّ المزاج ، لا يستطيع أحَدٌ [أن] يَخْرِق عليه فى أمْرٍ من الأُمور ، ولا يتكسر لأحَدٍ من بنى عمِّه ، ثِقَةً منه بسعادته ؛ وإنّ الانخضاع والتمريض فى القول لا يَعْنِيه ذلك ولا يزيد فى أيّامه . وكان ذلك كلُّه منه فى حزم ورَوِيّةٍ ، لا يفسد جانباً حتّى يصلح آخَرَ ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أنْفُسُ البعض منه ، وأُشْرِبوا هَيْبته ومخافته ، وتوقّعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أبيه . فأضمر أكثرُهم لهُ الغوائل ، وآثَرُوا عليه يَدِّيْر المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أيّام سعادتهم !

وسَمِعْتُ المُظَفَّرَ بادِيس — رحمه الله — يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدى حَبُوس أبى — رحمه الله — حتّى انتَدِبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له : « إنّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولِّى على أمرك مَنْ يخلفك ممّن تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمّك ! فإنّ الموت يغدو ويروح ! » فقال أبو العبّاس كاتِبُه : « ليس يصلح لهذا الأمر إلّا يَدَّيْر ، لطهارته ، وعفافه ، ومحبّته فى الناس ! » وكان فى الجُمْلة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُه فِرْقَان ، قد اصطَنَعْتُه واستملْتُهُ ؛ فسمعتُ ردَّه على أبى العبّاس ، وهو يقول له : « ما ينبغى لك أن تتكلّم بهذا ! كيف يُقدَّم للأمر غَيْرُ ابنه ، وهو مستطلعٌ بجميع الأُمور ؛ وقولُك أنْتَ وقولُ غَيْرِكَ باطِل ! كأنّى ، والله ، أرَى موتَ حَبُوس وولايةَ بادِيس من بعده ، وإنّ يَدَّيْرَ سيتحامَق على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرّنى * كلامُه ، وأعطيتُه عليها ألف دينار » .

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقان . ثمّ إنّه اطَّبَى من وجوه صِنْهاجة أقواماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهده على حلّ تلك الصفقة ، إلى أن كلّموا أباه فى تَوْليته . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . وزجر يَدَّيْر فى ملأٍ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُبَاسة ! » يُخاطِبه بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك فى نفس يَدَّيْر عدواة مجدَّدة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتهِ وإجماع الجماعات عليه ، وشتَّت أقواماً من صِنْهاجة ، حتى صاروا معه . ووَالَى بُلُقِّين شقيقَ باديس — رحمهما الله — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أنّه لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك . ولمّا رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلُقِّين وسعْيَه له فى ظاهر الأمر ، لامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنتَ لا تسعَى لنفسك ، ويكون من سَعْيِك لغَيْرِك ما نَرَى[1] ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابُه لقائل ذلك : « ليس سَعْيِى لبُلُقِّين إيثارًا منِّى له على نفسى ، غَيْرَ أنَّه صحيحُ النيَّة ، غَيْرُ حاذِقٍ بمكايد المملكة ؛ وهو شقيقُ الذى أطْلُبُ ، ولن أجِدَ لطلَبه أقْدَرَ على ضرِّه من أخيه ! فإنَّما أنا أصيدُ به ! فلو اتَّسقت لى الأمور ، وتهيَّأ قَتْلُ باديس على يدى أخيه ، كان أمْرُ بُلُقِّين من بَعْده هيِّنًا ، وخَلْعُه مُمْكِنًا ! »

فكان أبدًا يحضُّه على قتل أخيه ، ويُرِيه السعْيَ له . وكان الأخُ فى ذلك مُتَشَبِّثًا فى أمره مُشْفِقًا على أخيه ، إلى أن تُوُفِّى حَبُوس بن ماكْسَن — رحمه الله .

---

(١) أصل : « نروا » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوّليّتها إلى موت ابن نَغْرالّة

---

١٥ — أوّليّة إمارة باديس بن حَبُوس وتعاظُم الوزير اليهوديّ أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جـدُّنا باديس — نضّر الله وَجْهَه — فحاوَلَ أموراً كباراً ، وشَقِيَ* مع كلّ أمّةٍ : صِنْهاجة يطلبون مكانه مع يَدَّيْر ، ١٢ (ب
وسلاطينُ الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كلِّه حسنُ السياسة ، صبورٌ على الأذيَّة .

وكان أبو إبراهيم اليهوديُّ كاتباً بين يدى أبي العبّاس كاتب حَبُوس . ولمّا توفِّى أبو العبّاس المذكور ، وترك بَنِينَ ، أقام حَبُوس — رحمه الله — أكبرَهم عِوَضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوةٌ لا يرتبط معها إلى خدمة الرياسة ؛ فمكر به أبو إبراهيم اليهوديُّ ، ولزم خدمة الرئيس ، وصار ، متى غاب وَلَدُ أبي العبّاس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حَبُوس ؛ فيقول ، معتذراً فى الظاهر ومطالباً له فى لَحْنِ القول : « وَلَدُ أبي العبّاس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ عذره . وأنا عَبْدُه ، أنوبُ منابَه ؛ فمُرْنى بما شئْتَ : يتهيَّأْ ذلك ! » فلم يزل على هـذا أبدًا حتّى تمـكّن ، وظهرت خدمتُـه وسَعْيُه فى ضمِّ الأموال .

وكان مع هذا قد ميَّز عن باديس سعادتَه ودهاءه ؛ فافترض السَّعْىَ له والتخدُّمَ لإرادته ما دَامَ أمْكَنَهُ ذلك ، فى وقت المناوِينَ له والقائمين عليه ، للذى قدَّر من أيّامه معه .

فلمّا اتَّفق أعداؤه مع يَدَّيْر عليه ، شاركوا فى ذلك أبا إبراهيم ، واجتمعوا فى منزله ، يرومون قَتْلَ باديس وإقامة يَدَّيْر ، وَعَدَهم على الاجتماع عنده . وتقدَّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال له : « ليس الخبر كالعيان ! اسمَع بأُذْنِك وَعِ بقلبِك ! » وهو بموضع مرتفع على البيت الذى يرومون فيه عَمَلَهم ؛ وأبو إبراهيم فى ذلك كلّه يقول عند محاورتهم كالمخاطِب للبارئ : « يا مَنْ يَرَى ولا يُرَى ! » وهو يعنى بذلك باديس جدَّنا الذى يَرَاهم ولا يَرَوْنَه . فشكر ذلك باديس* لأبى إبراهيم ، ١٣ (١)
وأيقن بثِقَته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوَرَه فى أكثر رأيه مع بنى عمّه .

وكان فى اليهوديّ من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذى كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم . فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره ، ولِما كان يَرَى من طَلَبِ بنى عمّه له ، ولأنَّ هذا يهوديٌّ ذِمّيٌّ ، لا تشرهُ نفسُه إلى ولاية ، ولا هو أندلُسِيٌّ ، فيتّـقَى منه إدخالَ داخِلةٍ مع غير جنسه من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التى يطّبِى بها بنى عمّه ، ويحاول بها

أمْرَ المُلْك ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرِك معها الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ فى حقٍّ ولا باطِلٍ ، ولأنَّ الرعايا أكْثَرُهم بتلك البلدة ، والعُمَّال إنَّما كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبى منهم الأموال ويعطيه ؛ فيلقى ظالماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [يملأ به] بيت المال ؛ وإقامة أود المملكة أوْلَى به منهم .

١٦ — فشل المؤامرة التى دبَّرها يَدَّيْر بن حُبَاسة ضدّ باديس

فلما ولى باديس ، كَثُرَ عليه الخلافُ والهرَجُ ، واتّفق رأيُهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدَّيْر . وأعطى على ذلك أقواماً المثاقيلَ والصكوكَ بالإنزالات القويّة .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلة ، وبإزائها مُنْيَةٌ كان يحكم بها حَبُوس أبوه ؛ وكان لها بابانِ ، [فاتّفقوا] على أن يقيموا المَلْعَبَ ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنْيَة ، وهُمْ قد تسلّحوا بالدروع من تحت الثياب ، عازمين على الشرّ .

وكان ممَّن ارتُشِيَ على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعْرَف بِفِرْقَان ، أُعْطِى خمسمائة مثقال وصَكًّا بقَرْيَةٍ قُولْجَر من عَمَل السَّطْح . فقال فى نفسه : « لم أجِدْ فُرْصةً نحظى بها عند باديس أمْكَنَ* من هذه ! » ٣
فجعل أنّ الفَرَسَ زَادَ به فى جَرْيِهِ ، كأنّه جمح ، حتى دخل المُنْيَة ، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختلساً : « انجُ بنفسك وأخرُجْ من الباب الآخر ! فإنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ! » وأراهُ الدنانيرَ

التى أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يجدّ فى السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وهُمْ لا يشعرون ، ينتظرونه .

فبينما هُمْ على ذلك ، إذا بعَلِيّ بن القَرَوِيّ وأصحابه من وزراء باديس وثقاتِهِ قد أقبلوا إليهم ؛ فقالوا لهم : « إنّ السلطان وَرَدَ عليه من بعض أنْظاره خَبَرٌ مُقْلِقٌ وجب الانصراف له ؛ فأعـذروه فى تخلُّفه عنكم ! ومع هذا ، فإنّه لم يَخْفَ عليه شىء ! » فلما سمع القومُ بذلك ، فكلٌّ من كان فى نفسه خَبَرٌ هرب على المقام ، وهرب يَدّيرُ بنُ حُبَاسة ، لا يلتفتون على شىء ، يطلبون النجاة بمُهَجِهم .

ثمّ افتضحت القضايا كلُّها لباديس من بعد هروبه ؛ ومشى إليه بالنصائح كثيرٌ ممّن بغاهُ قبل ذلك . وطلع إليه أخُوهُ بُلُقّين ، وبكى بين يديه ، وسأله العَفْوَ عمّا أدْخَلَهُ فيه الفاسِقُ ابنُ عمّه ، وأنّه لم يَزَلْ به أبدًا يروم ذلك منه لولا تَثَبُّتُهُ وشفقتُه عليـه . وإنّ يَدّيْر خرج عن البلدة ، وصار فى حيّز الأعداء ؛ وكلُّ رئيسٍ قد انتدب إلى فِتْنة جدّنا — رحمه الله — ينحازُ هو إليه ، ويصير من أعوانه وعلى أجناده ، يَدُلُّ بهم البَلَد ، ويُريهم المَخادِع ، ويكشف لهم من عَوْرات الجِهة ما خَفِيَ عنهم ، لا يفترُ بالضرب عليه وتَهْتيكِ بلاده ؛ وجدّنا فى هـذا لا يأوى معه إلى راحةٍ ، ولا يقرُّ به قرارٌ .

وصِنْهاجة مع هذا يخاطِبُونه ، حتى إنه وقعت بيد السلطان باديس — رحمه الله — كُتُبٌ كثيرةٌ من عنـد صِنْهاجة إلى يَدّيْر ، تضمّنت أزْيَدَ من مائتَىْ رَجُلٍ * من الأكابر . فغضب لذلك ، وهَمّ بقتلهم . وشاوَرَ أبا إبراهيم ١٤ (١)
فى الأمر ؛ فقـال له : « أرى من الرأى ألاّ تُؤَنِّبَ أحَـدًا على هـذه

الكُتُب ، ولا تعلمهم أنّها صارت إليك ، وأن تأمُرَ الآن بنارٍ تحرقها بها وتطفئ أثَرَهَا ؛ ورأسُ العقل مُداراةُ الناس . فإن عاقَبْتَ ، كم عَسَى [أن] تُعاقِب ، وهُمْ أجْنادُكَ وأجْنِحَتُك ! فاحْتَلْ للأمر بغَيْر هذا الوجه ! » فقبل نصيحته ، واستعان ببَعْضهم على بَعْض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابْنَ بأبيه والأخَ بأخيه .

فكان دأبُ يُدَبِّر هكذا أبدًا ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سآمة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار فى ثِقافه . وذُكِرَ أنّه مات مقروعًا حَتْفَ أنفه . وتأتّت الأُمور لباديس من بعده ، وصفا له الجوُّ .

١٧ — انتصار باديس على زُهَيْر صاحب المَرِيَّة

وأوّلُ فَتْحٍ أفاء الله عليه هزيمتُه لزُهَيْر الخَصىِّ والِى المَرِيَّة . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولَد عبّاس ، من أشدِّ الناس حماقةً واستخفافًا ، مُثيرًا للشرِّ ، مؤرِّشًا بين الملوك ؛ وكان الغالِبَ على أمر زُهَيْر ، إذ لم يكن زُهَيْر يصلح لشىء لغباوته وجَهْله . وكان قد جمع كلَّ خَصِىٍّ بالأنْدَلُس واحتفل ؛ فبالغَ . وأدركه الطمع فى غَرْناطة ، لِمَا بلغه من موت حَبُوس بن ماكْسَن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالفُونت ، محتقرًا لمن وَلِيَ غرناطة ، يزعم أنّهم أصاغِرُ وأمْرُهم مختلٌّ بعد حَبُوس ، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسيَّيه الخصيان .

وكان جدُّنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رُؤيَا أنّ الحَوْرَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض بجميعه ؛ فهالَهُ ذلك ، وخشى أن تكون الوقيعة عليه ؛ فأرسل فى المُعَبِّر وقصَّ عليه . فقال له المُعبِّر : « أبشِرْ بهذه

الرُّؤيا ! إنَّ الحَوْر شبيهٌ بالخصيان ، الذى* لا طَعْمَ له ، ولا أصل يتورّك ١٤ (ب) عليه ؛ وهُمْ بهذه المرتبة . ولا شكَّ فى سقوطهم وبوارهم على يديك ! »

فكان ذلك .

وقدَّم على العساكر أخاه بُلُقِّين ؛ وكان من أشجع الناس ؛ وكان باديس ، عند موت أبيه ، قد اختصَّه بكلّ ما شاء وفَضَّلَه فى الميراث على نفسه إلاَّ الناضَّ الذى تحتاجُهُ المملكة . فلقى العسكر المرذول ؛ فلم تكن إلاَّ ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتِل جميعُ من كان فيه من الخصيان ، وخفى زُهَيْر عن العسكر ؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميّتًا . وكانت تلك أوّلَ سعادة باديس ، كما كانت هزيمة المُرْتَضَى أوّل سعادة أبيه ، ثمَّ افتتح البلاد ، وصارت إليه الأنظار التى تَلِى المَرِيَّة . وظفر بعدوِّه كاتِبِ زُهَيْر ، وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة ، ونقم عليه أشياءَ كثيرةً قَبْلَ ذلك ، من أقاويل خَشِنة ومُعامَلات قبيحة عَرَّفَهُ بها .

وقرَّ مُلْكُ باديس جدًّا قرارَهُ ، وطار له الذِّكْرُ . وكانت له من الهَيْبَة فى الناس أن لم يَجْتَرِئْ عليه أحَدٌ بعد تلك القضيَّة .

ثمَّ إنَّ بُلُقِّين أخاه لم يلبث بعد تلك الوقيعة إلاَّ يسيرًا حتَّى مات — رحمه الله — . وكَبِرت سنُّ سَيْف الدولة فى حال الحداثة ، وهو أبونا . وترك عمُّه بُلُقِّين ابنًا كان يناوئُه ويخشى منه ضرًّا كثيرًا ، ويتوقَّع على نفسه من المُطالَبات بتلك الأخبار ؛ فخرج عن البلد بجميع مالِهِ وتركةِ أبيه ، لم يعترض له شىءٌ .

١٨ — شخصيّة الأمير بُلُقِّين سيْف الدولة والد المؤلّف

ولم يكن للمُظفَّر جدّنا غير بُلُقِّين أبينا — رحمهم الله — . وكان رفيقاً به ، مشفقاً عليه ، حَذِرًا من أعدائه و بنى عمّه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسّ من أحَدٍ داخِلةً ولا نفاقاً إلاّ ونظر فيه بما يوافق أمْره من إخمالٍ أو نَفْيٍ أو أخْذِ مالٍ ، لئلاّ يبقى لابنه مَنْ يُناوئُه ويُذِلُّه .

١٥ وكان سَيف الدولة حليمًا* رَفيقاً ، ضدّ أبيه فى كلّ حال ؛ فإنّه لم يجرِّبْ من الأمر ، ولا ابتُلِيَ بما ابتُلِيَ هو به . وكان يَعِدُ الناسَ بالجميل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقةَ أبى ! » ومن استوجب من أبيه القتل أو أدْنَى ضَرَرٍ ، كان هو الذى يعنى بأمره ، ويتشفّع فيه عند الأب ، حتّى يتخلّصه . فأجمع الناس على محبّته خاصّةً وعامّةً للذى يرون من مَكارِمِه ، مع تمكين أبيه له وبَسْطِ يده على الأموال .

١٩ — نشاط يوسُف بن نَغْرالّة اليهودىّ ومؤامراته

وكان فى زمانه للمُظَفَّر أبيه وَزِيرانِ ابنا القَرَوىّ : أحَدُهما علىّ ، والآخر عبد الله ، ممّن نشأ معه ؛ وكانا حَضِيرَيْهِ فى المكتب ؛ وكانا قائدَى العسكر ؛ وإليهما كان يرجع الرأىُ فى أمور الفِتَن[1] . وكان أبو إبراهيم الشيخُ مُؤْذِنًا لهما ، مستعيناً بهما .

(١) أصل : « الفتون » .

فلما توفّى أبو إبراهيم، وترك ابنَهُ وزيرَ جدّنا ، ورث لأبيه أموالاً كثيرةً ، ووصّاهُ بأن يسعى فى طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس ، وعرض عليه الأبواب التى منها يكون حَتْفُ كلّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستئثارهم بالجبايات .

فجعل الخنزير نَفْسَه لذلك . وكان المُظَفَّر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالَبَةً لمُسْلِمٍ ، ولا عرّضه لذلك ، غير أنّه كان يتلطّف بالأموال ، ويعطى لِثِقاتِهِ وعَبيدِهِ ما يجعلهم فى المُطالَبة على هواهُ ، وهو ساكتٌ ، لايتكلّم بشىء مثل أن يَدُسّ فى طَلَب أحَدٍ على يدَىْ مُوَفَّق الخصىّ صاحِب المدينة من ثِقات باديس ؛ وكان منتصباً لهذه المشَابِه ؛ فيأتى مُوَفَّق للذكور بنصيحة إلى السلطان ممّن يزعم أنّه من أهل الشرّ ؛ فيُرْسَل فى اليهودىّ ويُقال له : « بلغنى أمرُ كذا وكذا . » فيُرِيه اليهودىُّ التبرُّؤ[1] من ذلك بأن يقول له : « كلُّ ما نُقِل إليك* كذبٌ : فتثبَّتْ[1] ! » فيقول له الرئيس : ١٥(ب) « أخْبَرَنى مَنْ لا شكَّ عندى فى نصيحته ! » فكان آخرُ ما يقول له : « ما قَطَعُ الشرَّ إلاّ سياسةٌ ! » وكان لمُباهاته ومَخْرَقَتِهِ ، يُرى الناسَ أنّه يقدر ؛ ولم يكن ذلك منه ، إلاّ عن تحيُّلٍ ومكرٍ .

فلما توفّى أبو إبراهيم الشيخ ، وكان ابنُه فى سنّ الصبا ، كَرِه توليتَه جدُّنا ، وقال لعلىّ المذكور : « الْزِمْ خِدْمة المملكة ؛ فأنْتَ أحقُّ بها ! » فأبى ذلك علىٌّ . واطّباهُ وَلَدُ أبى إبراهيم بالأموال الجسيمة ، وقال : « ليس أرغبُ إلاّ أن أكونَ عَبْدَكَ وتَرْبيتَكَ ؛ ولك الأمرُ ؛ وأنا كاتبٌ بين يديك ، وأقوم بنَفَقَتك كلّها ، ولَوْ كان أهْلُكَ عَدَدَ الحَصَى ! » فطمع علىٌّ فى قوله ، وكلّم السلطان فى ذلك ، وقال له : « إن أبْقَيتَ على وَلَد

(١) أصل : « التبرئ » .

أبى إبراهيم ناصِحك ، فأنا أرجو ذلك لوَلَدى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . » ففعل السلطان ما قال ، وقدَّمه على العُمَّال والجبايات . وكان يعطى لعلىٍّ صدراً من دولته إلى أن كَبِرَتْ سنُّه .

وأظهر [ولَدَ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةً حظِىَ بها عنده ؛ وتَبَرْمَكَ على علىٍّ وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأل به عن علىٍّ ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إنَّ الذى يأخذ علىٌّ أنْتَ أوْلَىٰ به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والضَّفَف ، ويذهب مالُكَ إن لم تَحْمِنِى وتعضدنى . وهو متى تملَّأ ، طَمِع فى مُلْكك ! وأنا رجلٌ ذِمِّىٌّ لا هَمَّةَ لى إلاَّ خِدْمَتك وجَمْع الدراهم لبيت مالك ! » فوَثِقَ الرئيس بقوله ، وقاس عليه بعقله ، ومنع منه عليًّا وجميعَ الناس . ولما رأى علىٌّ تأَخُّرَهُ وتقدُّم اليهودىِّ ، ندم على ما كان منه أوَّلاً ، وفاتَهُ من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغَاظَه ذلك وأكْرَبَهُ .

وكانت مَدِينةُ وادِى آش* بيَدِهِ ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان ١٦(١)
يأكُلُها طعمةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِم ، وهى تُساوِى أزْيَدَ من مائة ألف دينار ثُلُثيَّة . فدخل عليه اليهودىُّ بهذه المُطالبة وقال للسلطان : « اقبض وادى آش من عنده ، ولك منِّى فيها أزيد من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أقدر على أخْذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاسدةً ، وهم متصرِّفون فى خِدْمَتها » . فوجد اليهودىُّ السبيلَ إلى حيلة فى نزعها باسْمِ سيف الدولة أبينا ، وقال : « لآخُذَنَّ البلدة من يد عدوٍّ ، فأضَعُها فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويَرَى لى ذلك عن تخدُّم ونصيحة ! » فقال لأبى : « إنه يلزمنى طاعتُك ونصيحتُك لأكون لك كالذى أنا لأبيك ؛

وأراكَ كثيرَ الذُّرِّيَّة ، تلزمكَ نفقات وتجمُّل الرياسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزراه والدِكَ أغنى منك ! وهذه وادى آش ، بِنْتُ غرناطة ، لا تجمل إلاّ لك ، وأنا أُثَمِّرُها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! » ففرح لقوله والدِى — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعده بالزيادة فى مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

ثمّ مضى إلى الوالِد ؛ فأخبره الخبرَ ، وقصّ عليه أمرَ ابنه ؛ فقال له المُظَفَّر : « الآن وجب أخْذُها من أولاد القَرَوِىّ . » فأرسل على القائم فى علىّ وقال له : « إنّ ابنى محتاجٌ إلى المال ، وطلب منّى وادى آش . ولو كنت آخِذَها منك ومُعْطِيَها لقرِنِك ، لَعزّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرّع بها لابنى . » فلم يكن جواب علىّ إلاّ أن قال له : « ما صَلُح للمَوْلَى على العَبْدِ حَرَامٌ ! » فضمّها اليهودىُّ خادِماً لأبى فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رَمِّتها فى أنجُم العام ؛ واتفقا على ذلك*. وصارت المودّة متمكّنة بين الابْن ١٦ (ب)
والوزير مُدّةً طويلةً .

٢٠ — موت الأمير بُلُقِّين مسموماً

فلما رأى وزراءُ الدولة وعلىٌّ وأخوه تَمَكُّن اليهودىّ عند السلطان وعند الابْن ، أغاظهم ذلك وأقْلَقَهم ، وبلغ منهم كلَّ مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أبينا . وكان أولاد علىّ وعبد الله وزَرَاء لسَيْف الدولة ونُدَماء ، لا يُفارقونه . فعملوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنيهم ، وقالوا لسَيْف الدولة : « إنّ الأموال التى يغنم اليهودىُّ ويستأثر بها ، أنتَ أحَقُّ بها وأوْلَى . وقد أخْمَلَك وأخْمَل الدولة أجمع ! ولو أنّك قَتَلْتَه ، لم يقلْ لك أبوك فى ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفَسَقة —

قَتْلَ عدوِّهم على يدى ابن الرئيس ، ليخرجوا أيديهم من المسألة : فإن عاقَبَ ، عاقَبَ ابنَهُ ، إن شاء ، وحصَّلوا على الدولة دون ملامة من السلطان . فلم يزالوا به أبدًا ، ينمُّون باليهوديِّ ، ويكذبون عليه ، ويمضون(١) إلى اليهوديِّ بالكذب على لسانه ، حتّى تغيَّر أبونا عليه وتغيَّرت له نفسُ اليهوديِّ ، مع قلّة تجارب سَيْف الدولة لمكايد الناس . فعمل على قتله ؛ وكان يتحدَّث بذلك ، ويفشى سرَّه إلى الوزراء الرافعين إليه ؛ فلا هو يعزم على قتله ، ولا هو يتكتَّم بالأمر ، إلى أن صحَّ ذلك عند اليهوديِّ ، واعتزم رأيُه على أنْ يسبقه بالأمر ، ورأى عيانًا تغيُّره عليه . وكان أبونا ، لمّا همَّ بقتله ، وأعَدَّ لذلك عبيدَه ، فكَّر فى سطوة أبيه ؛ فكَفَّ .

وكان لسَيْف الدولة أخٌ صغيرٌ اسْمُه مَاكْسَن ، عمُّنا الشهيدُ فى وقيعة بَطَلْيَوْس . فعمل الخنزير رأيَه مع مَشْيَخَة اليَهُود ، *وأخْبَرَهم بتغيُّر سيف ١٧ ا الدولة عليه ؛ فقال له أحَدُهُمْ وأدْهَاهُم رأيًا : « لا تطمع فى الفلاح بعد الشيخ ، ولا فى سَيْف الدولة ! ولكن انظرْ لنفسك فيمَنْ تُقِيمُ إن مات رَئِيسُك : أوجَدْتَهُ ؟ وتحيَّلْ فى سَقْى سيف الدولة . وهذا مَاكْسَن أخوهُ مخول ؛ فإنْ قتَلْتَ أنت هذا ، ووَلَّيْتَ هذا ، قدَّمْتَ عنده يدًا لا ينساك عليها ! »

فسوَّلَتْ له نفسُه سَقْيَهُ . وكان متمكِّنًا بذلك ، لأنَّ أبانا كان كثير الشرب معه والتكرارِ عليه فى منزله . فشرب يومًا عنده على عادته ؛ فلم يخرج عنه حتّى قذف ما كان فى جوفه ، واستلقى على الأرض ؛ فلم يَسْتِطع المشى إلى منزله إلّا عن مشقّة ؛ ولبث يومَيْن يجود بنفسه ، حتّى مات — رحمة الله عليه .

---

(١) أصل : « ويمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيرًا من خِصْيان باديس يقول : « أرسَلَ فىَّ سَيْفُ الدولة يوماً وقال لى : « انهضْ إلى أُمَّهَاتِى وقُلْ لهنّ(1) إنّى اعتزمتُ على قتل اليهودىّ . » يقول الخَصىُّ : « فقلتُ له : « أنا لا أمضى بهذه الرسالة ! فإنّ الخَبَرَ لا مَحَالةَ عنده ! لو أنّك تريد قَتْلَهُ ، ما كان ينبغى لك أن تُسْمِعَنِى ذلك ولا أحدًا من خلق الله ! » فعلمتُ أنّ حاله تؤولُ إلى مثل ذلك . »

وممّا أعان على الفساد قَبْلَ ذلك أنّ أبانا كان مع أُمَّهَاتِهِ ، اللّاتى رَبَّيْنَ وَلَدَهُ المُعِزّ أخانا ، على ضدٍّ من الأَمْن ، لإفراغِهِنّ المال على ابنه طفلاً صغيرًا ومَنْعِهِ هو منه . فاحتاج إلى اليهودىّ عن المال . وكان أُمَّهَاتُهُ يُطالِبْنَهُ ويمنَعْنَهُ عن صحبة اليهودىّ ، حتى شعَرا بذلك ؛ واتّفق رأْيُهُما على مُطالبة النساء عند الرئيس ، وتجريحهنّ بسرقة المال وإرسالِهِ إلى البلاد . فلما وقف جدُّنا على المقالة ، وقد وقعت المفاسدة بينهُنّ وبين ابنِهِنّ ، صار مَلُوماً* من الأب والنساء . وتحيّل النساء على أن بَرّأْنَ(2) أنفسَهنّ ممّا قُذِفْنَ ١٧(ب)
به ؛ ودَعَت الضرورةُ سَيْفَ الدولة أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهُنّ ؛ ورُدَّت القِصّة فى رأْس اليهودىّ . فكان ذلك ممّا زاده غائلةً ونفورًا ، وجرى على يديه ما قدَّر اللهُ به لتَمام المُدّة .

وكان فى أوّل المفاسدة قد احتبس له بكثيرٍ من جباية وادى آش ؛ وشكا به سَيْفُ الدولة لأبيه . فتحيّل الخنزيرُ على أن دعا أبانا إلى منزله لشرابٍ ، حتّى سكر ؛ وأمَرَ بخروج بنيه وعياله فى ثياب الحزن . فهالَ ذلك أبانا لِمَا رأى من حالهم وبكائهم ، إلى أن قال له : « هل مات عندك

---

(1) أصل : « لم » . (2) أصل : « برين » .

أَحَدٌ ؟ » فقال له : « مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمسك عنك إلّا بَطْلِ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فأْنَسْ أَهْلى بكَتْب براءةٍ تبرّئنى بها إلى أن يَرِدَكَ مالكَ ؛ فإنّهم قد وجسَتْ نفوسُهم وفزعوا . فأَتِمَّ إحسانَك بكَتْب البراءة ! » فافْتَرَصَه فيها ، وكتبها ؛ ثمّ ذهب بها إلى أبيه وقال له : « إنّما ينفق مالَهُ على الوزراء والشرابِ المُدْمِنِ ! وهـذا إبراؤُه لى : فأينَ شكواه ؟ » فرجع مَلُوماً من الأب زائدًا ، وصار فى خسارة مع الوزير والنساء ، لِماَ أراد اللهُ من تمام المدّة . والله ينفعه بجميل نيّته وصَفَاء مَذْهَبه الخاصّة والعامّة !

٢١ — ما بلغ ابن نَغْرالّة من المكان الأرفع

فلما توفّى أبونا ، وكانت من أكبر الرزايا للناس ، لِمَا كانوا يرجونه من العدل على يدَيْه ، هاج الناسُ بأمره ، وهمّوا بقتل اليهودىّ . وكانت تلك مقدّماتٌ لهلاكه ، غير أنّهم كانوا يتوقّعون معاقبة الرئيس . وزاد فى طَلَبه لأولاد القَرَوىّ ، وصوّر عند المُظَفّر أن بنيه زيّنوا لابنه الإدمان على الخمر حتّى هلك . وأدركتْ لذلك أولادَ القَرَوىّ منحسةٌ عظيمةٌ من نَفْيهم عن أوطانهم ، وأَخْذِ أموالهم ، وقَتْلِ بعض الوزراء* الذين كانوا ١٨ (أ)
حَوَالَىْ أبينا لِمَا اتّهِمُوا به ؛ وجانِى القضيّة لا يُوبَهُ له . وتَبَرْمَكَ اليهودىّ بعد سَيْف الدولة ، وسعى فى إقامة مَا كُسَن عمّنا .

وكَبِرتْ عند ذلك سنُّ جدّنا ، وأَخْلَدَ إلى الراحة ، وزَهِدَ فى طَلَب البلاد لكبر سنّه وموت ابنه ، وألقى بمقاليده إلى اليهودىّ فى الخدمة عنه ؛ فتمكّن بما شاء من الأمر والنّهى .

٣٢ — استيلاء باديس على مالَقة

وإنّما كان طَلَبُ جدّنا أكثَرَهُ وسَعْيُه على أخْذ مالَقة ؛ فإنّه ، متى كان يأخـذ شيئاً من مَعاقِل الأندَلُس ، يبلغه من المُعِزّ بن باديس أنّه يقول : « يخاطِبُنى صاحبُ غرناطة بأخْذ الكُوَر والقُرَى ! أمَا أنّه لو أخَذَ مثل قُرْطُبَة ومالَقة وما أشبههما من القواعد ، كُنّا نبايع له فى ذلك ! » فجعله كلامُه يجدّ فى خبر مالَقة ، وللّذى كان يرَىٰ من اندبار سلاطينها ، وتوقّعِه على أن يأخـذ البلدةَ مَنْ يُدْخل عليه الداخِلة منها . فلم يزل يعاوِدُها سِنين[1] بلا سآمة ولا فترة ، حتى حصل عليها .

وبنى قَصَبتها بنياناً لم يقدر على مثله أحَدٌ فى زمانه ، وأعَدّها عُدّةً للمُهمّات ، وجعل فيها جميع ما ورث لابنه ، وزاد عليه ؛ وكان الذى يتوقّع من كَلَب سلاطين الأندَلُس واتّفاقهم عليه لذلك أن يتحصّن فيها ما استطاع ، وإلّا ، فيجوز منها إلى عِدوة بنى عمّه بأهْله وذخائره . ومُذْ أخَذَها ، حلّ عن نفسه .

ونازَعَهُ عليها ابنُ عَبّاد ، وأطاعَهُ أهْلُها دون القَصَبة ؛ فوجّه إليها عساكِرَه ، وهزمه عليها . ورجعَتْ إليه بعد اليأس منها . ولم يُلاقِ سلطانٌ على مدينةٍ ما لاقَى هو على مالَقة من طول الفِتَن ونفقة الأموال . فلما بلغ منها الغاية من آماله ، حلّ على نفسه ، وتمتّع بمُلْكه . ومن ذلك دخلت عليه الدواخِلُ باستنامته إلى الوزراء وولاةِ البلاد ، على حسب ما نقُصّه بعد هذا .

---

(١) أصل : « سنيناً » .

ولولا ما كان غَرَضُنا وَصفَ دولتنا خاصّةً ، لذكرنا لُمَعًا من دُوَل بنى حَمُّود فى مالَقة ، واختلالِ أمْرِهم* واحِدًا بعد واحد ، حتى تصيَّر الأمْرُ إلى جدّنا — رحمه الله — ؛ لكن نقتصر على ذِكْر ما نحتاج إلى إيراده إن شاء الله . ١٨ (ب

فتهدّنت الحال ، وتأتّت السادات ، وامتلأتْ بيوتُ الأموال سِنِين[1] لا يُسمع فيها بِفِتْنة ، ولا يُرَى معها تشغيبٌ ، إلى أن اختلّت الأحوال بعد ذلك بما كان من نفاق اليهوديّ — لعنه الله — ، وتَصْيِيرِ وادى آش وجميع أنظارها لابن صُمَادِح ، واستِنْسادِ الرؤساء على البلاد ، حتّى إنّه لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمُنَكَّب وباغُه وقَبْرة . ولما شاع عند الرعايا خبر موت الرئيس الأجلّ — فإنّه كان مُحتجِباً أبدًا — خَلَت المَعاقِل من الرجال ، وافترصَتْها الرعايا بأسبابٍ نحنُ نَذْكُرُها[2] إن شاء الله بعد هذا .

٢٣ — علاقات باديس ببنى صُمادِح أصحاب المَرِيّة

والأَوْلَى أن نقدِّم وَصفَ ولايةِ ابن صُمَادِح للمَرِيّة ، وعضدَ جدّنا — رحمه الله — لرياسته ، وإثباتَه له فى مُلْكه عند قيام ابن أبى عامرٍ عليه ، طالباً له لخلافه عليه ، وأيادى كريمة سلفَتْ من المُظَفَّر قبله ، لم يسبِقْه إليها أحدٌ من جنسه ، ولم تكن مكافأتُه على ذلك إلّا أن افترص بلادَه وقِيل دواخِل إلى الإفْرَنْج ، يَعِدُهم بالمال الكثير . وأجابَهُ مُجاهِدٌ لِمَا أشار به عليه ؛ وعملت الكلمةُ فى نفسه ؛ فلما هَمَّ ابن أبى عامرٍ بالرجوع عن لُرْقة يُريد المَرِيّةَ ، تأخَّرَ عنه مُجاهِدٌ ، وتبيَّنَ للمَنْصُور قعودُه عنه وخذلانُه إيّاه ؛ وسألَهُ عن ذلك . فقال مُجاهِدٌ مُخاطِباً له ولأعلام قوّاده :

(١) أصل : « سنيناً » .	(٢) أصل : « ذاكرها » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البَرْبَرَ ، ولا جرّبتُمْ حُروبَهم ، فأنا ، والله ، عليمٌ بها ! فإيّاكم أن يكون بَوَارُكم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون] أنّ فِتْنةَ عشرين سنة خـيرٌ من مُلاقاة ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإنّ فيها تتلف الدُّوَل ، وينتقل المُلْك ، ويستأْصل الجمع . فعليكم بالتأَنّى ! » فقال له ابن أبي عامرٍ : « جَبُنْتَ ! ارجِـعْ إلى دانيَةَ ولا تفسد علىّ الجيش ! » فأقلع على المقام مغضباً من قذفه .

١٩ (١) وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأدركَ* الإفْرَنْج الطمعُ ، وطلبوا منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المُظَفَّرُ رجالَه وقال لهم : « كيف ترَوْن هزيمة هذا العَسْكَرَ من غير قِتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُفِّقْتَ ! وأنتم ، مَعْشَرَ الملوك ، لم تُعْطُوا الولاية على الناس حتى اختاركم اللهُ لها ، وجعل عقولـكم أجَلّ وأنْفَسَ من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونـكم ! » ورجع المُظَفَّرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأحْوَص [بن صُمَادِح] طاعةً له ؛ لا يروم شيئاً من كلّ ما بالمَرِيّة إلّا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمْرٍ إلّا وكان مِلْكَ يَدَيْه . وبقى الأمرُ على ذلك سنينَ .

وكانت قُرْطُبَة فى ذلك الزمان بمنزلة المَرِيَّة ، إذ كان فيها ابنُ السَّقّاء ، لا يمتنع على المُظَفَّر من رغباته فيها شىءٌ ؛ إلى أن توفّى أبو الأحْوَص ، وترك ابنه هذا المتوفَّى بالمريّة — رحمه الله — عند ظهور المرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السنّ . فأرسل إلى المُظَفَّر يرغب إليه أن يكون له فى العضد والحماية بالمنزلة التى كان عليها لأبيه ، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ انقياداً من أبيه ؛ وسألَهُ تجديد التعهّد معه والاجتماع به . فأجابه المُظَفَّر إلى كلّ

ما سأل ، ووعَدَه بالذبّ عنه على أتمّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به . وجدّد معه عَقْدًا . وثبتَتْ رياستُه ، وقرّ حاله قراره ، ودامًا على ذلك دَهْرًا طويلًا ، لا يُسمع فيها بفِتْنة ، ولا يكابد معها تشغيبٌ .

وكان فى ذلك [الوقت] خدّامُ دَوْلَتنا مُتّفقين مع اليهودىّ ، إذ كان وزيرَ السلطان وصاحبَ سرّه : فمنهم صَنِيعَةٌ له قد استغْنَى معه ، ومنهم عدُوٌّ له ، مُؤازِرٌ فى الظاهِر استدفاعاً لشرّه . فاتّسَقَت الأُمور بذلك ، وأعان بَعْضُهم بَعْضاً على خدمة السلطان ، وأنِسُوا إلى ثِقَته بهم وعَضْدِ بعضَهم لبَعْض . ولما تهيّأت له الأُمور ، وتوطّدت الدولة ، بعد كلّ ما ذكرنا من تلك الفِتَن[1] وغيرها ، وحصّل على مدينة مالَقة بعد المكابدة واليأس* ١٩ (ب) منها ، حلّ عن نفسه ، ومال إلى الراحات التى يستريح إليها الملوك ، وفوّض أمْرَه إلى الوزير والخَدَمَة .

٢٤ — وصول النّاية إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهودىّ

وفى أمْكَنِ ما كانت الدولة وأبْهَجِها ، قصدَه النّايَة ، عبدٌ كان للمُعْتَضِد ابن عَبّاد — رحمه الله — ؛ وكان من جُمْلة من اتّفق على غدره مع ابنه المشهورِ خَبَرُه ؛ فأتى للقَدَر الذى لم يكن عنه محيصٌ . واعتنى به جماعةٌ من كِبار العَبيد ، وطلبوا له من السلطان العَطَايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَقَمُّناً لسرورهم[2] ، كَىْ يزيدوا فى خِدْمته ونصيحتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصَدَكَ هذا الإنسان عن مفاسَدةٍ لغَيْرِك وتعويلٍ عليك ؛ وقد أمّلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العتون » . (٢) أصل : « لسارّهم » .

إنّما تُسديه إلينا . » ودخل غرناطة فى أسْعَدِ وقت له ، وأشْغَبِهِ على الدولة . وسار فى أوّل أمره مع الخدَمة بأجمل سيرةٍ وتواضُعٍ لهم ، حتى حمدوا طريقته ، ونفعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله فى بعض خِدْمَته وصرّفه فى ولاية بعض عسكره . وكان لطَلَبِهِ الثأر من بنى عَبَّاد ، قد اكتفى فى فِتْنة مالَقة واستمال أقواماً من الجُند ؛ وكان فيها مُتَصرِّفًا بين يدى مُقاتِل بن يحيى قائدِها . ولم يزل مُقاتِلٌ المذكورُ ، متى خَرجَت مُغيرةٌ إلى بَلَدَ ابن عَبَّاد ، يُعلِم المُظَفَّرَ بكفاية النابة المذكور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسَّ كلَّه ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركاً بينهما ، وصار قائدًا معه فى البلدة . وزاد جِدُّه ، ونَما خَبَرُه ، وتَضَاعَفَ إحسانُ المُظَفَّر إليه . وكان ، متى ما أتى مالَقة ، نزل السلطان فى داره ، وشرب معه ، مع تنويهه به والتزيُّد له من ذلك مع الأيَّام .

وكان ، مع تقريب السلطان له مَتَى انفَرَد به أو افْتَرَصَه على الخمر ، يجرِّحُ عنده اليهوديَّ ، ويقول له : « قد أكَلَ مالَكَ ، وتملّك بأعظم من مالِك ، وبَنَى خَيْراً من قَصْرِك ! فالله الله فى إزاحته والتحبُّب إلى المسلمين بفَقْدِه ! » والمُظَفَّرُ فى هذا كلّه يَعِدُه ويقول له : « لا بُدَّ لى من ذلك ؛ وأُوَكِّلُكَ * على قتْلِه ! » فَرُبَّما لفظ بذلك بمَسمَع من لا يُؤبَه ٢٠ (1) له من عبيده والمُتَصَرِّفين بين يديه ؛ فينقلون ذلك على المقام إلى اليهوديّ ليَصِلَهُم عليها . فلا تزداد نفسُ الخنْزير إلاّ حماقةً ومُنافَرةً ، ويكاد أن يموت همًّا وحنقاً ، مع حسده له على المنزلة التى خُصَّ بها دونَه ؛ ورام مطالبته عند السلطان بكلّ مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أنّ منزلته لا تزداد إلّا ترفيعاً ، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وَجْهٍ وقال : « إنَّما اسْتهزَاؤُنا بالناس من أجْل عزِّ السلطان ! وأمِنَّاهُم على أنفُسنا بحمايته وعنايته . وأمَّا الآنَ ، فقد انقطع الرجاء : لا سلطان نأمَنُهُ(١) ، وقرين سُوْء يطلُبنا عنده ، وعامَّةٌ تريد هلاكَنا ، ونَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُون فى الأرض ! »

٢٥ — إجلاء الأمير ماكْسَن بن باديس

وكان [اليهودىُّ] قد ألقى يَدَه فى عمِّنا ماكْسَن ، رجاء منه أن يسند إليه ؛ فكان من أشدِّ الناس عليه ، ولم يكن حوَالَيْه رجلٌ رشيدٌ يُسَدِّده ويأمُرُه بالمُداراة ، إلى أن قال له مواجَهَةً : « أتُرِيدُ أن تقتلنى كما قَتَلْتَ أخى ؟ » فعملَتْ فى نفس اليهودىِّ . وكان ماكْسَن مع هذا كُلِّه سَيِّئَ الطريقة ، قليلَ البرِّ ، خَشِنَ الكلام ، يَعِدُ الناس بالشرِّ ، حتى كَرِهَهُ أهْلُ دولة أبيه وأبغضوه . وكَثُرَ عليه الطَّلَبُ عند أبيه .

وكانت أمُّهُ تَتْرُكُ معاملة الوزير الذى ألقى يَدَه فيه ، وتَمِيلُ إلى خَالِه : يهودىٌّ يُعْرَف بأبى الربيع بن الماطُونىّ ، وكان قابِضَ الوجيبة ؛ فتخاطِبُهُ أبدًا ، وتَطْلُبُ منه مالًا باسْمِ السلف . فغارَ الوزيرُ لذلك ، وعمل على طَلَبه وطَلَبِ أمِّه وحاشِيَتِهِ ، وافترى عليهم عند السلطان . وشهد له على ذلك جماعةٌ من أهل الدولة ، ممَّن نقموا على ماكْسَن قَبْلَ ذلك ما قدَّمْنا ذِكْرَه . وأغْرِىَ بهم حتى جعلَتْه الأنفة من مكروه ما نُقِلَ إليه أن يأمر بقَتْل أمِّه ودَاياتِهِ وبَعْضٍ من انتمَى . وقتل الوزيرُ خَالَهُ غدرًا* فى منزله (د على الشراب بِخلافِهِ عليه فى هذا وغَيْرِه ؛ واتَّقى منه نصيحة السلطان ،

---

(١) أصل : « نأمنوه » .

وأعطاه على ذلك مالًا جسيمًا ، لئلاّ يثرب عليه قَتْله . فقبل السلطانُ ذلك منه ، ووَدّ أن لو قَتَلَ كلّ يومٍ يهوديًّا ، فيُغْرِمَ عليه مالاً .

ثمّ أمر بعد ذلك بنَفْيِ وَلَدِهِ . وكان من آكَدِ الأسباب فى نَفْيه أن خرج السلطان يوماً لعَرْض الأجناد ، وقتَ الفِتْنة مع ابن صُمادِح ؛ فانتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغى لك أن تُقَدِّمَ علينا العَبيد وغَيْرَهم ، وتَتْرُكَ مثل هذا الابْنِ ! أرْسِلْهُ معنا ، وتتّبعه فى كلّ مُلِمَّةٍ ! » يعنى ماكْسَن . فعزّ ذلك على أبيه ، مع سَخْطه عليه لِما كان يَرَى منه ونُقِل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فعلٌ بأن يحملوه ويقدّموا ابنَه . وجزع اليهوديُّ لذلك جزعاً شديدًا وقال : « ما حسبتُ نفسى فى ذلك اليوم إلّا مقتولًا ! » فأَعْلَمَ السلطانَ بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنَفْيِهِ عن البلَدِ ، ووجّه معه من عبيده من يُخْرِجه عن نَظَره كلّه . ووصّى اليهوديُّ — لعنه الله — ذلك[1] العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمّاهُ بحيثُ يخفى أمْرُهُ ، فيضرب فيه عنقَه .

وكان أخونا المُعِزُّ قد ربّاه جَدُّه ، ونال معه الكرائم ، وأحبّوهُ فى حُرْمة أبيه . واتّفق رأىُ الجميع مع اليهوديِّ على قَتْل ماكْسَن وتوليةِ المُعِزِّ ، حذرًا على أنفسهم من ماكْسَن أن يثور عليهم ويعاقِبَهم بمَحَبَّتهم فى [ابن] أخيه وتَرْبيتهم له . فكان من ذلك ما أمّلوهُ .

وخرج عَمُّنا على أسوأِ حالٍ ، مذعورًا ، خائفاً ، بَعْضُهم يُشير بقَتْله ، وبَعْضُهم يأْبَىٰ إلّا إزاحته عن النَّظَر كلّه ، حتّى صار ببعض الطريق . وانحلّ عن غُمومه بهلاك اليهوديِّ ، على ما نذكُرُه بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حَبُّوس

(٢) من موت ابن نَغْرالَّة إلى نهايتها

---

٣٦ — مؤامرة الوزير اليهوديّ ابن نَغْرالَّة

ثورة صِنْهاجة عليه وقتله

وإنّ الخِنزيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء، وكلُّ فرقة منهنّ تُريد ولاية مَنْ تُرَبِّيه من أبناء السلطان، ورأى تغيُّر مولاه* عليه وإمعانَ ١٢١ ا النابة فى مُطالَبته والازديادِ فى جاهِه، لم يَجِدْ فى الأرض مَهْرَباً، ولا وجد إلى التخلُّص سبيلا، وشاوَرَ فى ذلك مَشْيَخَته من ذوى الرَّأى؛ فقال بعضهم: « انجُ بنفسك، وقَدِّمْ جُلَّ مالِكَ إلى أىِّ البلاد أحْبَبْتَ، تَسْتَوْطنها غَنياً آمِناً! » فقال: « ذلك مُمْكِنٌ لولا أنّ الرئيسَ الأجَلَّ، إن أرسل فىَّ إلى صاحب تلك الجهة، يقول: « ذهب وزيرى بأموالى: إمّا أن تصرفه علىَّ، وإمّا أن أفاتِنَكَ! » أتَرَى أنه يبيع الرئيس عنِّى؟ هذا ما لا يجوز إلاّ أن أُصيِّرَ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما، ونأمن على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يُمكنه إسلامى. وأنا قد وضعتُ فى

يده بلاداً ومجداً كبيراً ! » فاتّفق رأيهم على مُخاطبة ابن صُمادِح ، وأنّه الأولَى لجيرته وقربه من كلّ أمْرٍ يحتاج إليه فيه .

وأخبرنى رسولُ ابن صُمادِح ابنُ أرْقَم ، وكان قد تخيّروه للرسالة [1] حينئذ، قال : حضرتُ يوماً مع المظفّر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متنزّهاته والنايةُ معه ، واليهوديُّ وراءه ، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير، يهوديّ؛ فأمر بإهانته وإرجاله عن دابّته بحضرة الرئيس ، وتوقّح فى ذلك ، وأبلغ فى شتم اليهوديّ ؛ فاستعظم اليهوديُّ ذلك وقال لابن أرْقَم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كُنتم تستطيعون لى على شىء ، وإلاّ فلا بدّ من الترامِى على غَيركم ! » فقال له ابن أرْقَم : « أنت جديرٌ بالتثبُّت فى هذا الأمر ! وأىّ ضرورة دفعَتْك إلينا وبيدِكَ الرعايا ، وإليك تُجبى الأموال ؟ والسلطانُ لم يغيّر عليك شيئاً أكثر من همزات هـذا المُطالِب ! فاحتلْ بأن تُصابِرَ الأمور إلى أن يموتَ الشيخُ ، لاسيّما أنه قد أسَنّ؛ وتُلقى يَدَكَ فى حفيده المُعِزّ ، وتبقى حالُك معه حسب ما كانت مع جدّه ؛ وهو أقْرَبُ إلى السلامة ! » فقال له اليهوديُّ : « كنتُ أفعلُ ذلك لولا أنّ المُعِزّ صغيرُ السنّ *، وله أمّهات وطبقات جمّةٌ من النساء والحاشية . فكيف نرجو معهم ٢١(ب) الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون علىّ أشدّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحّ عندى أن الصبىّ يحقد علىّ ما قاله الناس من سَقْىِ أبيه . وقد أدَرْتُ هذه الوجوه؛ فلم يتّجِهْ لى منها أمْثلُ من الترامِى على المُعْتَصِم ! » فقال ابن أرقَم: « دخلتُ على المُظفّر ، وألقيتُ إليه من الكلام رُموزاً ، وقلتُ له : « أيّدكَ اللهُ ! تَيقّظْ ! فإنك لم تَطْعَن فى السنّ ، ولا بلغتَ فيه مبلغاً يولد عليك الغفلة

(١) أصل : « الرياسة » .

عن دَوْلَتك ! » رجاء منّى أن يستَفْهِمَنى عن الكلام وأَقُصّ عليه بَعضَه . فدعا اليهوديّ وقال له : « انهضْ إلى ابن أرْقَم وقلْ له : « لأىّ وجهٍ قال لى الآن : تَيَقَّظْ ! » واستَفْهِمْهُ عن ذلك ! » فجاءنى اليهوديّ وأخبرنى بالقضيّة . فدهشتُ لما ومِتُّ ، ولم أجِدْ جواباً . فاتّهمنى الخِنْزِيرُ ، وخاطب بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُقعِدنى عن الرسالة ويوجِّه فيها من يثقُه ؛ فسفر فيها رَضِيعَه وأمَرَه بنسج الأمر معه ، وكيف الحيلةُ فى تصيُّر الدولة إليه ، وغرناطة معدن الجيش ، وفيها من صِنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم ؟ وقال له : « لا تُدْخِل نفسك وللمُعْتَصِمَ فيما لا يتمّ وتَفتضِحُ فيه مع المظفّر ، وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة ! وتخزى معه ، وتكون سبباً إلى هلاك نفسك والفساد عليه ! » فرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِج من البلاد كلّ من يتوقّع قيامَه .

وتخيّر من كبار صِنْهاجة وغيرهم من العبيد ، الذين يخشى معرّتهم ، أقواماً ، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِل المُهِمّة ، وصَكَّك لهم بها ، وقال لهم فى سرّ الأمر : « أنتم إخوتى ، وقد أُخْمِلتُم معى ، ورأيتمونى ! وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكارُه بأن يقدِّم عليكم من ليس منكم ولا شأنه شأنُكم ، وتبقى ولايتُه عارًا عليكم وشنارًا ما بقى الدّهرُ ؛ وقد* نصحت السلطان فى أمره ؛ فلم يقبل منّى ، ولا يُقدر على مُضادّته ؛ ٢٢ (
والآن أتوقّعُ على هذه البلاد الشريفة والمَعاقِل الفارهة أن يليها من قِبَل النابة مَن يشقى به الجميعُ ، ولا نقدر معهم على إمساك الدولة ، وتكون لهم الصولة علينا ، ثمّ لا مَهْرَبَ إلاّ إلى يديه ، فإذا أمْسَكْنا معاقِلَنا وكان بنو عمّكم بالحضرة ، يتجسّر على تَبْدِيدكم ، وكان أمره بعد ذلك هيِّناً ، متى أراد التغيير ،

قتلناهُ ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحَدِنا وأمر بنَفيْهِ على يديه ، لَجَأَ إلى مَعْقِلِ صاحبِهِ . »

فقبل القومُ قَوْلَه ، مع شَرَهِهِم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك . فأخرج يحيى بن يِفْران إلى مدينة المُنَكَّب ، ومُسَكَّنَ بن حَبُوس المَغْرَالِيَّ إلى جيَّان ، ومَن سِواهُم إلى غيرها من القواعد . وزيَّن للسلطان أن ذلك من وجْه النَّظَر له ، وأنَّه لا يحمى القواعد إلَّا كِبار الرجال ، وأن المعزولين قد صَحَّ عنده غفلَتُهم وتضْييعُهُم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله فى هذه المَشَابِه ، لِثِقَتِه به .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبِره بخروج القَوْم الغَوْغاء من المدينة ، وأنَّه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَه له ، ويحصدهم سَيْفُه إذا دَخَلَها ، وأنـه مُتَهَـيِّءٌ لفَتح أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وضيَّع النَّظَرَ فى سـائر الحصون غير القواعِد ، وأهْمَل ما يَرْتَقِبُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة ، حتى خَلَتْ .

والمُظفَّر ، فى هذا كلِّـه ، لا خَبَر عنده إلّا الإقبال على الشرب والدَّعة .

فلما خَلَت المَعاقِل ، وصحَّ عند أهلها ، بإهمالهم واحتجابِ السلطان عنهم ، أنَّه قد مات لا مَحالةَ ، تصـايحَت بعضُها لبَعْض ، وخَلَّتْ بأقطارها ؛ وافْتَرَصَها رجالُ ابن صُمادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إلّا حِصْن قَبْرَيْرة ، على مقربة من غرناطة فى طريق وادى آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يلحُّ* عليه فى الإقبال إلى ٢٢(ب) المدينة ، وأن لا مانِعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمادِح ، وجزع من الجسر على مثل غَرْناطة ، إلى أن اتَّسع الخَرْقُ وتَمادَى النفاق ؛ وصار

اليهودىُّ مُتَنَقِّلاً من داره إلى القَصَبة حِذْرًا من العامّة ، حتى يتمّ ما أمَّل ؛ فأنكر ذلك الناسُ ، مع بُنْيانه لحِصْنِ الحَمْراء على أنّه ، إذا دخل ابن صُمادح البَلَد ، صار هو بأهْلِه إليها ، إلى أن تتوطّد الحالُ . فأنفت العامّة والخاصّة لمكر اليهود وما اشتهروا به من تغيير الأحوال ، ورأوا من الرُّتَب خِلافَ ما عهدوه .

وللّذى أراده الله من هلاكهم فى يوم السبت لعشر خَلَوْن من صَفَر [من سنة ٤٥٩] ، استعمل اليهودىُّ الشراب تلك الليلة مع أقوامٍ من عَبيد المُظَفَّر ، كانوا قد عاقَدُوه واتّفقوا معه ، وبعضُهم فى السرّ يشنأُهُ ؛ فأعْلَمَهم بأمْر ابن صُمادح ، وأنه واردٌ عليهم ومسوِّغٌ لهم من القُرَى فُلانة وفُلانة من فَحْص غرناطة ؛ فانتدب إليه أحَدُهم ممّن كان يكمن بُغْضَه ، وقال له : « قد عَلِمنا هذا ! فأخْبِرْنا عن تسويغك هذه الإنْزالات ، أهُوَ مولانا حىٌّ أو ميِّتٌ ؟ » فردّ عليه بعضُ حاشية اليهودىّ ، ووبّخه على قوله ؛ فأنف ذلك العبدُ وخرج فارًّا على وجهه [وهو] سكران ، يصيح بالناس ويقول : « يا معشر من سمع بالمُظفَّر قد غدره اليهودىُّ ! وهذا ابنُ صُمادح داخِلٌ فى البلدة ! » فتسامع لذلك الناس أجمع خاصَّتُهم وعامَّتُهم ، وأتوا عازمين على قتل اليهودىّ . فتحيّل على المُظَفَّر حتى أخرجه إليهم ، وقال : « هذا سلطانكم حىٌّ ! » ورام الرئيس تسكينَهم ؛ فلم يقدر ؛ واتّسع الخَرْقُ على الراقِع . وهرب اليهودىُّ بنفسه إلى داخِل القصر ، واتّبعَتْهُ العامّة حتى ظفروا به وقتلوه . وأحالوا السيف على كلّ يهودىّ بالبلدة ، وحصلوا على عظائم من أموالهم .

واستأسدت إذْ ذاك صِنْهاجة ، وطَغَوْا بما صنعوه على الرئيس ، مع الفِتْنة

المُنْطَـكَةُ* عليه من كلّ قطر . وكانوا هُم الوزراء ومُدَبِّرى[1] الدولة ؛ والمُظَفَّرُ من هذا كلِّـه تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشىء من دواخِلِه ، ولا صدق قَوْلَهم عليه ، وسائرُ أمرِه معهم بالمداراة والصبر ، إلى أن تفتَّحت له البلاد ، ورجعت طاعته إليه بما نَحْنُ نذكُرُه[2] بعد هذا إن شاء الله . ٢٣ (١)

ولما مضى مُسَـكَّن إلى جَيَّان ، على ما قدَّمنا ذِكْرَه ، ألْقِيَ فى طريقه عَمَّنا ماكْسَن ، يحمله الصَّقلِّيُّ ؛ فاستَنْقَذَهُ ، ومشى به إلى جَيّان ، وقال : « لا فائدةَ أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معى حُجَّةً على ما أُريدُه من مُلْكِ جَيّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناسُ ، ونحصل على عظائم ! » كالذى كان . فوَلِيَ جَيّان باسْمِـهِ ، وصار حاكِمَها مع بنى عمِّـه . وحصَّل إذ ذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصَّل . وبقى ثائرًا على أفضلِ حال .

٢٧ — الحركة الموقَّتة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آش من أيدى ابن صُمادِح

وإنَّ المُظَفَّر ، لما رأى ما نزل به من كَلَبِ العدوّ وطَمَعِ الناس فيه ، وما حلَّ به من كلّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْن فى أمرِ وادى آش ، وتصيُّرِها إلى ابن صُمادِح ، واستحواذِه على أنظارِنا ؟ » فأجابه قوّاده وجلةُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلَّا أن تبذل الأموال ، وتترك الدَّعة ، وتُباشِر الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مَثَلى ومَثَلُ ابن صُمادِح كمَثَلِ القُبَعة التى كان بإزائها عشٌّ إوزّة ؛ فأعجبها بيضُها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكروه » .

« لأحضننّ هذا البيض ، يكون خيرًا من متاعى ! » فلما رامت ذلك ، عجزَتْ وقصُرَتْ جَناحاها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ . وكذلك ابن صُمادح : تعدّى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير ممّا كان قديمًا بيده ! » فقَوِيَتْ نفوسُ الناس ، وادّرع الحزمُ والعزمُ ؛ وتأهّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرّق] فيهم العطايا ، ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرَها .

وكان فى أوّل الفتنـة ، للذى* رأى من قيـام رعيَّته وخشى خلافـ (د ٢٣
الجميع ، قد وجّه لابن ذى النُّون ، صاحِبِ طُلَيْطُلَة ، يعلمه بما دهمه من الأمر ، ويسألُه صِـلَةَ يده به ، وأنّه ما انصرف إليه من البلاد أعطاهُ منها ما أَحَبَّ واختـار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصَرَهـا وقَرُبَ مَرامُها ؛ واجتمع معه إلى أجْمَلِ هيئة وأتمّ رتبة . وفى قَصَبة وادى آش ذلك الوقتَ وزراء صاحبِ المَرِيّة وأكابِرُ رجالِه . فاشتدّ عليها الحربُ ، وكَثُر الإنفاقُ ، حتى إنّه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيتُه مكتوبًا بخطّ يد جدّى — رحمه الله — ستّةَ بيوت من المال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً ، البيتُ منهـا ألفُ ألفِ دينـارٍ ثُلُثِيّةٍ . وصار ذلك مَثَلاً فى الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبة من أكابر أهل المَرِيّة ما دهمهم ، وأنّه لا مَلْجأَ لهم إلّا الحرب أو السَّيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تحيَّلوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون ، وهُمْ على الهلكة ، يعلمونه بما هم فيه وقَطْعِ رجائهم عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسّط أمرهم مع المُظَفَّر ، ويأخـذ لهم العفوَ ، ويخرجُون على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصيِّروا

المَرِيَّةَ مُلْكَه . وكان ابن ذى النون من الطمع فى غايةٍ لم يَنْتَهِ إليها مَلِكٌ ؛ فطَمِع فى قولهم ذلك ، وترامَى على جدّنا ، ورغب إليه ؛ فأَسْعَفَهُ ، حتى خرجوا وأَخْلَوْا له القَصَبة . وثَقَّفَها بحماة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وَعْدَه ، وقال : « إنَّ الذى أُريد من هذه البلاد بَسْطَةٌ . » فلم يكن بُدٌّ للمظفَّر من إنجاز وَعْده ، وأمر بإخلائها له . وتفتّحت للحاجب بلادٌ كثيرةٌ أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صُمادِح بعد ذلك ، يسأله العَفْوَ والإغضاءَ على ما كان منه ، وأنّه لا يتعرَّض من ذلك شىءٍ لولا اليهودىُّ ، وخوفاً ، إن* أهل ٢٤ (١) البلد ، أن يتعدَّى عليه من يخشى داخِلَته . وترامَى على جدّنا وأتاه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويجدّد عقدًا . ففعل وقبل اعتذاره . ويُحكَى أنّه ، عند اجتماعه به ، كان أوّلُ ما خاطَبَه به : ﴿ يا أبانا ! اسْتَغْفِرْ لنَا ذُنُوبَنَا ! إنّا كُنَّا خَاطِئِينَ ! ﴾[1] فأجابه المُظَفَّر على البديه : ﴿ لاَ تَثْرِيب عَلَيْكُمُ اليَوْمَ ! يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ[2] ! ﴾ .

٢٨ — الحركة الموفَّقة التى قام بها باديس لانتزاع مالقَة من يد ابن عبّاد

ولما صار إلى المظفَّر جميعُ بلاده ، وتوطَّدت له الدولة ، وكان قبل أَخْذِهِ لوادى آش قد أَخَذَ مالَقة ، وقدَّمها قَبْلَ شغله كلّه ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرةَ يحيى بن يِفْران ؛ وكان الرجلُ من أكابر تَلْكَاتَة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .
(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً فى قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدّة الفتنة . ولمّا استأسدَ صِنْهاجة ، على ما قدّمنا ذكره بعد قتل اليهودىّ ، ترَأّسَ فيهم يحيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيرًا فى ماله وعرضه ؛ فحقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنّه ، إذا انصرف من فتح مالَقة ، أن ينظر فى خلعه ، ويثور عليه مع بنى عمّه . وكان الخَبَر قد طرأ إلى جدّنا . فقضى اللهُ تعالى أن مات يحيى المذكور فى تلك السفرة مقتولاً فى الوقيعة . فقال عند ذلك المُظَفَّر : « أتَتْنا فى يوم واحد فرحتان : أوّلُهما موتُ يحيى ، والأُخرى فَتْحُ مالَقة ! » ثمّ نهض على المقام إلى وادى آش ؛ ففعل عليها ما وَصَفْناهُ .

وكان ابن عَبّاد قد دخل مدينة مالَقة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصَبَة لِما كان فيها من كفاة المَغَارِبة ، وقائدُها ذلك الوَقْت مَخْلُوفُ ابن مَلُّول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاته ؛ وانتظروا قوّةَ الرئيس صبْرًا منهم ، وكثْرةَ بقْيا ، وأَنَفةً من كشفٍ لحرمة الذين كانوا بالقَصَبة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبّاد ؛ فمُنِحوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنْوةً .

وكان حصول ابن عَبّاد عليها لداخِلةٍ* أهلها ومَيْلِهم إليه ، اختيارًا له (٢٤) ب علينا ، على إحسان المُظَفَّر — رحمه الله — إليهم ، وأنّه وجدهم على أسْوَأ حالةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيرًا ، وحمل فُقَهاءها ومُقْرِئيها على المَطايا ، وأنزلهم على أفضل المَراتب ، ما كان مشهورًا عنه فى الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ فى حال قلّةٍ وعلى غير رتبة . ثمّ كافأوه بما فعلوا . وبعد ظفره بهم ، عفا عن ذلك كلّه ، وزاد فى مَراتبهم . ولقد اخْتُطِبَ لابن عَبّاد مُدّةَ كونه فيها ؛ وحُكِىَ أنّه قيل فى الخطبة : « اليومَ أَكْمَلْتُ

لَـكُمْ دِينَـكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَـكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ! » فلم تعطِ السياسة مُعاقَبةَ أَحَدٍ منهم ، إذ كانوا فيه سواء ، ولا يصحُّ إمساكُ بلدةٍ إلّا بأهلها .

فقرّ مُلكُ جدّنا قَرَارَهُ ، وجبر الأموال ، وزادت الجِبَايات .

٢٩ — الكشف عن أمر فِنيَانة وفِتْنَتها

ولما انصرف من فِنْيَانَة[١] ، غزوتَه تلك الوادِي آشِيَّة[٢] ، دعا بقائدَيْه [النابة وعبد الله بن القَرَوىّ] ، وكانا على العسكر مُدّةَ فِتْنة وادى آش ؛ وامتحن على أموالهم أين أُنْفِقَتْ : أَكانت فى واجِبٍ أَمْ زِيفَتْ ، لِمَا استعظم من النفقة ؛ وجمع القائدَيْن والكَتَبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف .

وكان النابة من أَهْلِ التجربة والفكرة فى العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ، وأخرج منه نَفْسَه : فمَتى وردَتْ أموالٌ من غرناطة للعطاء ، يتحرّى عنها ، ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذى يأتى بها : « احمِلْها إلى خِباء الشيخ عبد الله بن القَرَوىّ ؛ فهو أَعْلَمُ بما يصنع ، وهو أَسَنُّ وأَدْرَبُ ! » فاحتجّ النابةُ بهذا الفعل عند المظفَّر ، وأتى على ذلك بالبُرْهان ، وتبرّأَ منها .

وغضب الحاجِبُ على عبد الله ساعتئذٍ ، وأمر بنَفْيه .

وكان أَكثرُ الجند يشنأُ النابةَ على ما وَصَفْناه ، ويؤثر عبد الله لتَرْبِيَته[٣] معهم ؛ فشقّ ذلك عليهم ، وأدْرَكَهم من الأَنَفة أن خرجوا كلُّهم حُرْمةً فى عبد الله ، وأَخْلَوْا * عليه المَحَلّةَ . وزال عنهم أَكابِرُ صِنْهاجة أجمع ؛ ٢٥ (١)

---

(١) أصل : « فتيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشية » .

(٣) أصل : « لترتيبه » .

فلم يصبح الحاجب بفِنْيَانة منهم معه أَحَدٌ ؛ ورَجَوْا أن يكون يرغب إليهم ، و يفزعونه بتلك الفعلة . فأتى إليه النايةُ يرعد فَرَقًا ، وأخبره بالقِصّة . فقال المُظَفَّر فى نفسه : « لا خَيْرَ لى فى ردِّ هؤلاء ! فإنّ ذلك ممّا يزيدهم طغيانًا ، وتجرُّهُم العادةُ ، متى أحبُّوا الخلاف ، على أن يمتثلوا هذه الطريقة . ولا حاجة بى إلى إمساكهم ، وفى مُضيِّهم الغنيمة والراحة ! » فسكت عنهم وتركهم على أهوائهم ؛ فصاروا فِرَقًا وأشتاتًا ، منهم من مضى إلى جَيَّان يريد مُسَكَّنًا ابنَ عمِّهم ، ومنهم من انقطع إلى شَرْق الأندَلُس ، ومنهم من رجع إلى غرناطة على خفاء ، يُرَى أنّه لم يكن فى الجملة .

وأَقْلَعَ المُظَفَّر عن فِنْيَانة وأتى غرناطة ، لم ينقصه من ذلك شىء ، ولا عدم جُنْدًا . واستوزر النايةَ ، و بقى على الدَّعة والتَّمكين دَهْرًا طويلاً .

٣٠ — استيلاء باديس على مدينة جَيَّان

ولمّا تمكّن ماكْسَن من جَيَّان ، وثار معه مُسَكَّنٌ مع بنى عمّه ، أَقْلَقَ ذلك جدًّا ؛ وخاف النايةُ على نفسه منهم ، وجزع من أن يَتَّفِقَ مَنْ هنالك من بنى عمِّهم وسائر البَرْبَر الذين بغرناطة ، ويقتلوه ، ويسعوا فى ولاية ماكْسَن . ولم يَرَ المُظَفَّر — رحمه الله — لمُفاتَنَته وَجْهًا ، وإنّ مُسايَرَته ومُداراته أَوْلَى ، وإنّ فى فِتْنَته من العار وسوء القالة أن يُقالَ : « رجع المُظَفَّرُ يُكابِدُ فِتْنةَ ابنه ، وإن أعياهُ أَمْرٌ عجز ! » فترَكَه على حاله ، ورأى أنّ السَّعْيَ عليه بالمُداخَلة أَوْلَى . والناية ، فى ذلك كلِّه ، يجدُّ ويَجْتَهِدُ ، خوفًا على نفسه ، ويَبْذُل الأموال للمَغاربة ، ويرسل منهم إلى قَصَبة جَيَّان مُتَخَيِّسين مَنْ يُداخِلُهم .

وكان مُسَكَّنٌ قد أخلَ عنّا ماكْسَن ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال دونَه ؛ وصار له ماكْسَن بمنزلة* البازى الذى يُصَيَّد به ، وماكْسَن لا يقدر ٢٥(ب) على أكثر من الصبر ، إذ لا فِئَة غيرهم ، وقنع بتلك الحال لاستنقاذه له من الموت ، ورأى إقرارَ روحِه فى جسده غنيمةً ، فَضْلاً عن طلَب ما سِوى ذلك . فلم يَزَلْ أبدًا يُداخل عليه بالأموال ، حتّى استمال جميع مَغَارِبة القَصَبة . وكان ، مُدَّةَ كونه بجيّان ، يُخاطِبه أقوامٌ من صِنْهاجة فى مَحَبَّته ، ويقولون بذلك فى المحَافل والمجَالِس سرًّا وجهرًا ، ويرَوْن ولايته خيْرًا من تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشْبَهَهم ؛ قد سئموا من ذلك ، وأشربوا المُظَفَّر من الشنآن والبغضاء مالو استطاعوا ، لَخَلَعُوه . لكنَّ السعادة واللُدّة لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كلِّه تحت أمْرٍ عظيم ، والنابة متوقِّعٌ للقتل مساء وصباحًا ، تكثُر عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن نجمت تلك المُداخلة : فقام المَغَارِبةُ بالقَصَبة على ماكْسَن ، وخرج منها فارًّا بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكَّن ، لا يلوى على شىء ، يطلبون النجاة بحشاشة أنفسهم ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث أتوا لمّا سمعوا النداء بالليل : « لا طاعةَ إلاَّ للمُظَفَّر ! » وعجَّل الحاجبُ بثقاف جَيّان ، واستراح من تلك الفِتْنَة .

ولقد حُكِىَ عن المُظَفَّر — رحمه الله — أنهُ لما تهَيَّأتْ له هذه السعادة ، رأى النابةَ مهمومًا . فسأله[1] فى ذلك ؛ فقال : « اهتمَمْتُ لخلاص هذه الشرْذِمة بأرواحهم . ولسنا نأْمن شرَّهم فى البلاد ! » ومِنْ نَوْرِ حَىٍّ لا يُلْبَس هَرَاكِيس ! » واسْمُ وَلَدِكَ كبيرٌ ! » فأجابه المُظَفَّر أن

(١) أصل : « فقال له فى ذلك » .

قال : « الذى حلّ بهم أشدُّ من القتل ، خلائهم[1] عن أوطانهم وكَشْفهم فى انتقالهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهم و يُرْكِبُهم ويُنزِلهم . والموتُ دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ماكْسَن إلى طُلَيْطُلة ، وصار بها عند ابن ذى النُّون* مُكْرَماً ، على حال الجُنْدية . وتقلّب مُسَكَّنٌ فى البلاد ، يخدم الجُنُديّة . وصاروا أبادِيدَ .

٣١ — استيلاء النابة على بيَّاسة

وزاد جاهُ النابة بغرناطة ، وأخْمَلَ صِنْهاجةَ ، وأظهر لهم البغض لنفاقهم كان بزَعْمَه على اليهودىّ وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستخصّ بنى بِرْزال وأحْسَن إليهم ، وقرّبهم من نفسه ، وهُمْ كانوا أولياءهُ[2] وأنْصاره ، وبثّ فيهم العطايا . وأخلد السلطانُ إلى الراحات .

ثمّ إنّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناء يؤثَر عنه ، فى غزو البلاد ومُداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة بَيّاسة ، وقال للمُظَفّر : « إنّ مُداخلةَ بعض أهْلِها عندى ! » وكانت إذ ذاك لوَلَد مُجاهِد . فقال له الحاجِب : « لا تتعرّض إليها ، ونَحْن فى دَعَةٍ ! وكأنّى والله أرَى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلك الرجال ، ولا نُحَصِّل على فائدِ ! » فألحّ عليه وزيّن له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمَرَهُ بالمَسِير ، وهَيّأ معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من بيّاسة أمرًا عظيماً : كلُّ ذلك يتعذّر من أمْرِها ما لا يُرجَى به أخْذُها ، حتى سئم السلطان النفقة ومنع منه المال .

---

(١) أصل : « خلاهم » .

(٢) أصل : « أولياؤه » .

وكان فى المَجْلِس ممَّن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتِبٌ للمُظَفَّر يُعرف بابن أضْحَىٰ ، ويقول للحاجِب : « لم تقِمْ بيَّاسة وعشرةٌ أمثالُها ببعض هذه النفقات التى كُنْتَ عنها فى غِنًى ! » وكلُّ ذلك يتَّصِل بالناية ؛ فيُخْرِج المغاوِرَ ، ويغنم الأغنامَ ، ويوجِّهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضْحَىٰ يبيعها ببخْسٍ من الثمن ، ويُحضر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا مِمَّا أنفقتَ ؟ » فيخرج أخلاق المُظَفَّر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جَيَّان . وكان بانياً على أنَّه ، إن لم يقدر فيها على شىء ، أن يكون ذلك طريقَهُ فارًّا ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المؤاظبة والمُلازمة ، وكانت عليه الصولةُ على مُطالِبيه بذلك . ودخل* المدينة فى عِزَّةٍ ورفعةٍ وإكرامٍ من السلطان جسيمٍ ، مُهَدِّدًا ٢٦ (ب) لمَنْ طالبَهُ ، ومُسْتَطيلًا بذلك مُعْلِناً .

وقدم إلى المُظَفَّر يقول له : « لا أدخُل البَلَد حتَّى تأمُرَ بنَفْى ابن أضْحَىٰ أو أنْصَرِف من مكانى هذا ! » فرأى الحاجِبُ أنَّ نَفْيَ ابن أضْحَىٰ أوْلَى من فساد عسكره . فأمر بنَفْيه ، بعد تَغريمه وإهانَتِه . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومُطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتى أظفرنا الله به ، على ما يأتى ذِكْرُهُ بعد هذا .

٣٢ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

وإنَّ وزراء الدولة وكثْرةَ عبيدها ، لمَّا بصروا بما فعل الناية ، والزيادة فى أمْره وجاهِه ، وأنَّه هو الحاكِمُ دون السلطان ، حتى قالوا إنَّه طامِعٌ بالرياسة والقيام مع بنى بِرْزَال ، وشنع ذلك عليه ، أدركَتْهُم منه أنَفَةٌ

عظيمةٌ وحسدٌ شنيعٌ . فاتّفق رأيهم أجمع ، أعنِي ولاةَ البلاد : منهم وَلَدُ القَاضِي ، صاحِبُ بَاغَه وابنُ يَعِيش ، صاحِبُ قَبْرة ، ووَاصِلٌ ، صاحِبُ وادى آش ، والقاضى ابنُ الحسَن النُّبَاهيّ بمالَقه ، أنّه متى قدِم إحدى هذه الجهات ، قُتِلَ فيها ، وأُرْسِلَ فى ما كُسِن — وقُدِّم — أراد والِدُه أم لم يُرِدْ .

ثمّ إنّ النفر المذكور عملوا رأيهم ، وفكّرُوا فى العاقبة ، ورأوا أن يقتله واصِلٌ العِلجُ بوادى آش ؛ [فيكون ذلك] أستر لقتله وأبعد للظنّ بهم : فإن عاقبَ ، عاقَبَ غُلامَه وتبرّأُوا من ذلك . فوُعِد واصِلٌ المذكور على ذلك بالوزارة مكانَهُ ، وضمنوا له توطيدَهم للأمر عند السلطانِ ، حتى تهيّأَ ذلك فى دماغ العِلْج ، واستعدّ لقتله ، إلى أن حدث بوادى آش أمرٌ لم يكن بُدٌّ للسلطان أن يرسل وزيره فيه ، من تحصيل أموال والكشف على أحوال . فنهض فى أنحس وقتٍ وأشرّ قدَر . وكان واصِلٌ هذا المذكور من أكبر صنائع النابة ، وممّن اطّباه بإحسانه ، وشرّفه عند السلطان ، ورفعه من الحضيض . ففشَا الأمرُ عند الناس قبل ذلك أنّ واصِلاً عازمٌ على قتل النابة .

وحكى لى إنسانٌ من البَرْبَر ، قال : « نصحتُه بذلك وحذّرتُه أن لا ينهض إليه ، وأنّ مِثله لا ينزل فى داره ؛ فكان من جوابه : « تريدون أن تنزعوا الرِّيبَ من أنفسكم وتردُّوها على أصدق الناس إلىّ ! » فلمّا توجّه إلى وادى آش ، ونزل فى منزل واصِل ، أظهر له إكراماً وتبجُّلا لم يكن عليه قَبْلُ ، حتى اطمأنّ ، وانصرف عنه أعوانُه . ولمّا دخل الليل فى جُنّه ، أتاه واصِلٌ برمحه ، وهو سكران ؛ فضربه ضربةً أنفذه بها ، حتى أثّرت الضربة فى الحائط ؛ وقطع رأسه وطوّفه صبيحة الليلة [بأزِقّة مدينة وادى آش

ومُنادٍ ينادى] : « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »

فورد الخبرُ فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يَدْرِ أحدٌ من حيث أتِيَ ، فمنهم من يقول : « السلطان دسّ إليه ، إذ لا يمكن لذلك العِلج أن يتعدّى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعَلِمَ أن هذا من اتّفاق عليه ؛ ودخل منه فى بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذّته . وأظهر للناس تجلُّدًا ، وهدّده الجند ، وأرسل إلى واصِل بالأمان ، يأمُرُه بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيدًا إلى أن يستبرئ كيفيّة الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العِلْجُ حماقةً ، وقال مُعْلِناً : « لم أُدْخِل يدى فى هذه القضيّة وحدى ، حتى يساعدنى عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! » وأتَى مُشترطاً للوزارة . وكلّمَ وَلَدُ القاضى المظفّر فى أمره وقال له : « إنّ هذا العبد ، وإن جنى عليك فى قتل وزيرك ، فإنّما فعل حُبًّا منه فيك ورغبةً فى قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتُك ! » وجعل [أهل] الدولة يعتنون به ويسألون العفو له . فأحسّ السلطانُ ذلك فى نفسه ، وأيقنَ أنّ هذه النَّصْبة لم تكن إلاّ عن اتّفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإنّه ، ساعةَ ما قُتِلَ الناية ، أُرْسِلَ عن ما كَتَن إلى طُلَيْطلة ، ووُجِّه* إليه بخاتم الناية ٢٧ (ب) كَىْ يتحقّق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصُدُّك ! » إلّا أنه لم يتجاسر حتى يرَى إلى ما تؤُول الأحوالُ . فكظم الحاجب هذا فى نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارَىٰ جميعَهم ، وصوّب فعلَ واصِلٍ ، وقال : « هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينقذنى منها إلا إطفاؤُها والنظر لها على سَعةٍ ! »

وأمرَ بتقديم واصِلٍ على الخَيْل .

٣٣ — استدعاء الأمير باديس ولده ماكْسَن ورجوعه إلى الحضرة

واتّفق رأيُ الجميع ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدخَلَ عليه ابنُهُ ، ويُخلَع من أجْله على كلّ حال . فلما رأى المُظَفَّر اتّفاقهم عليه ، وأحسّ بهذه المصايب ، ولم يَرَ لنفسه مع من يستريح ، أرسل فى أبى الربيع النصرانىّ ، وكان فيما مضى كاتِبَ حَشَمِ ، قد عرف خدمة اليهودىّ وتصرّف معه ؛ فأرسل عنه سرًّا ؛ وأتَتْ كُتُبُهُ قبل ذلك ، فراجَعَ عنها بخطّ يده . فكان ذلك زيادةً فى الشرّ وخبالِ الدولة . فلمّا أحسّ بهذا ولَدُ القاضى صاحبُ باغُه ، شافَهَ المظفَّرَ فى الأمر وقال له : « إن كنتَ تعزم على أبى الربيع ، فنحنُ لا نبقى معك ، ولا يأتوى أحدٌ حوالَيْك ! » فأجابه : « ألاَ أبقى اللهُ منكم أحداً ! » وضيّع الحزم فى هذا ، لا سيّما أنه قد عَلِم أن بيده مدينة لا يملك منها معه شيئاً ؛ فعمِلَت فى نفس صاحب باغُه وأهل الدولة ، وتغيّرت الأنفس ، وكثر الإرجاف . واتّفق مع صاحب قَبْرَة ، وكان صديقه قديماً ، إلى أن ورد أبو الربيع .

فاستراح إليه المظفَّر على المقام ، وأعلمه بما حلّ به . وأتاه المذكورُ من دَانيَة ، إذ كان بها من وقت قتل اليهودىّ . فقال له أبو الربيع : « قد أيقنتُ أنهم أرسلوا عن ابنك ، ولا يختلف عليه . ولا قدرة بك على مُكابرة العامّة والخاصّة ! فالرأي فى ذلك والحيلة أن تتلافى الأمر ، وتوجِّه فى ابنك ، وتكتُبَ إليه بخطّ يدك بالعفو عنه وإيثارك له على كلّ والٍ لم يَصلُح لك ، وأنك مقدِّمُهُ* لولايتك وموروِّثُهُ مُلكَك. فإنك، إن فعلتَ، هَدَّنْتَ قلوبَ هذا العالم ٢٨ (وتمكّنتَ مسرّتهم[1] . فإذا وصل ولدُك بين يديك ، كنتَ فى أمره بالخيار ،

(١) أصل : « سارهم » .

وتخدَّمتَ قصَّته على سعة : فمُكابدَتُه ، وهو معك ، خيرٌ من مُكابدَة شرِّه مع بُعده ! ولستَ تأمَن مَكرهُ حيث ما توَجَّهَ ! »

فرضي المُظَفَّرُ ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه فقيهاً كبيراً من فُقهائه يؤمِّنه ويوطِّده ، ويبشِّره بمَذْهَب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس فى الدولة من بنيه من يُرْجى لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب فى تسريحه إليه . فسرَّ بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسُهم عمَّا كانت عليه ، وطفِقَ العالَمَ فى محبَّة ماكْسَن ، ورجَوْا الخيرَ معه ، إلى أن وردَ فى أنحَسِ طالع وأنكَدِ جِدّ .

فأنَّسَهُ أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصِّيه بوَصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضُرَّه وانصراف نفوس الناس عنه . فأوَّلُ ما أمره به بالشدَّة والقطاعة ، وبغَّض إليه صِنْهاجةَ ، وقال له : «أنت تعلم ما شقيتُ أنا بهم بعد حَبُوس ! فَصُلْ عليهم ليهابوك ، وليس فى الدَّولة غيرك إلَّا بنى أخيك : فهم أطفال صغار! »

وكان ماكْسَن من السفه وعَجْز الرأى وقلَّة الفطنة بحيث لم يَخْفَ على أحد . فزاد على ذلك أضعافًا مضاعفةً . ووافق سوء طبعه مَقالةَ أبيه ؛ فتحكَّم الشرُّ فيه ، ولم يقدِّم شيئًا على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبَّه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوسُ العالم فيه إلى البغضة ، وتبيَّنَ لهم من قلَّة عقله ؛ وأجمَعَ * الكلُّ على ألاَّ خيرَ فيه يُرْتَجَى . ٢٨ (ب)

وكانت بنت عمِّه أمُّ العُلُوِّ طامعةً بزواجه ؛ وكانت مُطاعةً فى قومها : قد استمالت أكثر نساء الجُند ؛ فأوَّلُ ما ابتدأ بتهجينها وَشَتْمِها ، وأنَّها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك فى نحسه والسعْى بكلِّ وجهٍ عليه . وكانت كريمةُ

المُظَفَّر الساعية فى خبره بعد سعيها فى قتل أُمِّه ، قد أغارت من أن يكون ماكْسَن يزوج بنت عمّه ، حِذْراً منها أن تجعل منها حاشِيَةً وتمنع حرمَته . واتّقى من ذلك واصِلٌ وامرأتُه ؛ فقالا(1) لها : « أىُّ فائدة لك فى زواج أمِّ العُلُوِّ ؟ لكنَّ الأَوْلى بكِ أن تعطيه صَبِيَّةً من تربيتك ، تكونين(2) من أجلها حاكمةً على داره ! » فعلَتْ ذلك وأخرجَتْها إليه بأموال ، وصوّرت عند السلطان أنها تُوفِّيت ، لئلّا يطلبها فى قصره ، باسْمِ أُخرى ماتَتْ عندها .

وشقَّ على بنت عمّه ذلك كلُّه ، ورجَعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أرَدتِ الانفراد بماكْسَن ، فما حمل امرأة العِلْج على السكنى معه ؟ » فمُنِعت الدخول إلى داره ؛ فأنفت لذلك . وكان مع ذلك زوجُها وَاصِلٌ يؤثِر عليها صبيّةً كانت لها ، ويؤذيها من أجْلها . فاجتمع على المرأة الغيرةُ والأنفةُ لِمَا طُرِدت عن دار ماكسَن ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبى الربيع النصرانىّ : وقالت له : « أنا أَمَةُ المُظَفَّر : فَلْيَنْظُر من نفسه ! فإنّ الاتّفاق عليه على وجه كذا وكذا ! » وبيّنتْ جميع ما راموا من غدره . فأتى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أُنظُرْ كيف تبتدى سعادتُك فى تشتيت هؤلاء القوم ! أخْبرتنى امرأةُ واصِل بكذا وكذا ! ألمْ أقُلْ لك(3)....... ؟ »

(1) أصل « فقالوا » . (2) أصل : « تكون » .

(3) إلى هنا انتهى ما هو موجود فى نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس ابن حبوس جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس مؤلِّف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله .

---

٣٤ — رفض مطالب ألفُونْشُ السادس واشتراكه مع ابن عمّار

[. . . . . وأمّا]* ألفُونْشُ ، لمّا تيقَّن هذه الفِتَن ، عَلِمَ أنّ ذلك ٢٩ (١) من أكْبَر سعادته وأعْظَم فُرَصِه فى طَلَب الأموال . فأرْسَلَ إلينا رسولَه : أوّلَ مُداخَلَةٍ نشأتْ بَيْنَنا وبَيْنَهُ ؛ فأتى باطرُ شُولِش يطلُب منّا ضَريبتَه . فأبَيْنا عليه ، واجتمع رأيُنا على أن لا نفعل ، وأنّ ضَرَرَ ألفُونْشُ لا يُخشى وغَيْرُنا أمَامَنا ، نعنى بذلك ابن ذى النُّون . ولم نَقِسْ أنّ أحَداً يُعاقِدُهُ على مُسْلِمٍ . فانصرف عنّا دون عَمَلٍ .

وإنّ ابنَ عمّار انتهز هذه الفُرْصة ؛ وكان مُنتَظِراً له بِباَغِه ، مُرْتَقِباً لِماَ يصنع معنا . فلمّا رأى أنه لم يتمّ له عَمَلٌ ، ألْقَى يَدَه فيه على المقام وقال له : « إن كنتم[1] مُنِعْتُمْ عشرين ألف دينار (وهى التى سأل عن ضَريبتِهِ) ، فنَحْنُ نعطيكم خمسين ألفاً ، على أن نُعاقِدَكم على غَرْناطة :

---

(١) أصل : « إن كان منعتم » .

تعطونا القاعِدة ، ولكم ما فيها من الأموال ! » فعاقَدُوه على ذلك . واتَّفق رأيُهم على أن يبنوا على غرناطة مَعْقِلاً يضيِّق عليها حتّى تلقى يدها . وكان ابن أَضْحَى ، المذكورُ قبل هذا — هو المُخْرَجُ على يدى النابة — قد انحاش إليهم ، يدُلُّ بهم على عَوْرات البلدة ، ويُريهم أشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِع إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ بَلِيلُّش .

وأكرَى ابنُ عمّار من عسكر أَلْفُونْش ما قوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوِّفهم فيها تارات ، ويَعِدُهم ويُخادِعهم ، حتّى تمّ البُنيان . وجعل المُعتَمِد يُحاوِل ذلك بنفسه ، ويبرِّز أبدًا على مقربة من غرناطة مدّة كَوْنِه ، طمعاً في أن يقُومَ معه أَهْلُ البلدة . فلمّا تمّ بُنيانُه ، قوّاهُ بالندب ، واتّخذ فيه جميع الأقوات ، وأمَرَهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونُسِيَ به أمْرُ القَلْعة .

وعند انصراف المُعْتَمِد عنه وعساكِرِ الرُّوم ، عبّينا عسكرًا كثيرًا ، ونهَضْنا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . وانقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المُطالِبِين عليها مع الرومىّ . وندِمْنا على التفريط أوّلاً في مُعاقَدته حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شيء* على السلاطين أَخْذُ مَعْقِلٍ بالسيف ؛ ٢٩(ب) فإنَّه ، متى اعترض ، لم يستطِعْ على دخوله لمنعته وما عُدّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوّةٍ تأتيهِ ، فيُقْلِع عنه إلّا من كان أقوَى . ولم نكُنْ نحْنُ إلّا مُتَكافِئين في ذلك : متى ما أَعْطَى أحَدُنا لعسكرٍ مالاً ، وأراد الآخَرُ نقْضَه ، أرْبَى عليه وأراحَهُ منه .

فكانت بَلِيلُّش قد أفسدت ، وضيَّقت على فَحْص غرناطة ؛ ولم يَكْفِ

ما حلّ من أجلِها حتى جَعَلنا ألفُونْشُ أن نُغرِمَ ما فَاتَهُ مِنّا ، تباعةً وتذنيباً لرَفْضِنا إيّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتّقَى من تَمادِيهِ على الطَّلَب . وابنُ ذى النون فى هذا يتوسّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه بذلك وينتظِرُ فسادَ مَمْلَكتنا ، فيَفْتَرِصُها هو أو يأْخُذَ منهـا حِصّتَه .

فكان — على ما قدّمْنا ذِكْره — عدوًّا فى الباطِن ، صديقًا فى الظاهِر . وهو مع ذلك لا يزال يُدَاخِلُ قُرْطُبة ، ويَسْعَى جَهْدَه فيها ، إلى أن قدّر اللهُ ، وافْتَرَصها غُدْرًا بمُداخَلة من بعض أهلها ممّن لا خَطَرَ له . واسْتُشْهِدَ فيها ابنُه عَبّاد [بن المُعْتَمِد] وقائدُه ابنُ مَرْتِين .

فلمّا انقضت بقُرْطُبة هذه الدائرة ، وسمع بالخَبَر أهْلُ بَلِيلُّش ، أخْلَوْها على المقام ؛ ودَخَلَها رِجالُنا ، وصارت فى مِلْكنا مُشيَّدةً مَبْنِيَّةً . فنظَرْنا منها بالذى نصنع بقَصَبَة غرناطة . وتروّح مُخَنَّقُها من حيث لم يُحْتَسَبْ .

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمادِح صاحب المَرِيّة

وكان قائدَ مدينة بَسْطَة ابنُ مَلْحَان ، رَجُلٌ معجبٌ ، قد شَرِهَتْ نفسُه إلى رُتَب الملوك . وكان المُظَفّر — رحمه الله — قد فوّض إليه أمْرَ البلدة عِوَضاً من أبيه . فلمّا صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراء الوَزَرَاء ، جعل كلٌّ واحد منهم يطلبه بمال ، ويسألُه مُتاحَفات : فمن لم يعطِهِ ، طالَبَهُ وأذَاهُ ، مع صغر سنّنا ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ، ولا شكوى لمن يذبُّ عنه ويحميه . فترامَى على ابن صُمادِح وقبله ؛ وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أنّه لا يُفاتَن طولَ مدّة الفِتْنة مع ابن عَبّاد . ثمّ إنّه غدر* حِصْنَ شِيلَش ؛ ونحن ، فى ذلك كلّه ، لا نفتر عن مُحازاته ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حِصْن شَنْت أَقْلَج من مَعاقِلِهِ ما وَقَعَت المُعاوَضةُ به من شِيلَش . وصالَحْناهُ مُهادَنةً وانجراراً للحال ، حتى نَرَى ما نصنع مع ابن عَبّاد .

٣٦ — مهاجمة ألفُونْشُ السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

وبقى ابنُ عمّار مُرْتَهِناً بما جعل على نفسه للنَّصْرانىِّ من كِراء بَلِيلُش فى تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقْطِعُها له ، ويَعِدُهُ بها . وأَدْخَلَ سلطانَه من ذلك فى تشغيب ، لأنّه كان لا يُريد أن يجعله يَخْلُد إلى راحةٍ لِكَىْ يحتاج إليه فى تلك الفِتْنة لا يقرُّ عن إدخال ضَرَرٍ على المسلمين . ومتى ما كان المُعْتَمِدُ يسعى فى تهدين الأمر ، ونرومُ معه الصُّلْحَ ، أو تنشأُ مُهادَنةٌ ، لا يَنامُ فى نَقْضِها وإشعالِ نار الفتنة .

فعاد ثانيةً إلى النصرانىِّ ألفُونْشُ ، وزيّن له أمْرَ غرناطة ، وصَوَّرَنا عنده فى صورةِ مَنْ لا يقدر على شىء من أجْل الضعف وسنِّ الصبا ، وأنّه ضامِنٌ له أموال غرناطة لتَصِيرُ إليه بأسْرها ، على أن يُعاقِدَهُ ، إذ تمكّن من البلدة ، أن يجعلها مُلْكَهُ ، وله ما لَقِىَ من أموالنا . وأَلْقَى يَدَه فى ألفُونْشُ ، عازماً عليه فى الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً جسيمة ، ووعده بخمسين ألف مِثْقال إذا تمّت القضيّة ، سيعطيها زائدةً على ما يَجِدُ ، لمُساعَدَته على السير .

فأدْرَكَ الرُّومىَّ من ذلك طمعٌ كبيرٌ ، وقال : « هذه نَصْبةٌ لَسْتُ أخْلُو فيها من فائدةٍ ، وإن لم تُحَصِّل البلدة ! وأىُّ فائدةٍ لى فى إعطاء

بلدة من واحدٍ لآخَرَ إلّا تَقْوِيَتَهُ على نفسى ؟ وكُلَّما أكثر الثوّارُ ، ووقع بينهم التنافُسُ ، كان لى أفْتَدَ ! » فأتَى على نِيَّةِ أخْذِ مالِ الفريقَيْن ، يكسِّر روُّوسَ بَعْضِهم ببعض . ولا كان أيضاً فى أمَله أن يأخـذ البلاد لنفسه ؛ فإنَّه عمل فى ذلك حساباً أن قال : « إنّا من غير المِلّة ؛ وكلُّ الناس يشْنَأنى ؛ فبأىِّ وَجْهٍ أطمع فى أخْذِها ؟ إن كان من باب الطاعة ، فأمْرٌ لا يمكن ؛ وإن كان من وَجْه القتال ، فيهلك فيها رجالى* وتذهب ٣٠(ب) أموالى ، وتكون الخسارة على أكثر ممّا نرجوه إن صارَتْ إلىَّ . ولو صارَتْ ، لم نَتَمَسَّكْ إلّا بأهلها ؛ ثُمَّ لا يؤمنون ! ولا من المُمْكِن أن نَسْتَبيحَ أهْلَها ونُعمِّرَها بأهْل مِلّتى ! ولكنَّ الرأْىَ ، كلَّ الرأى ، تَهْدِيدُ بَعْضِهم ببَعْضٍ ، وأخْذُ أموالهم أبَدًا ، حتى ترقّ وتضعف ؛ ثمّ هى تلقَى بيدها إذا ضَعُفت ، وتأتى عَفْوًا ، كالذى جرَى بطُلَيْطُلَة إنّما كان من فَقْرِ أهْلِها وتَشَتُّتِهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارَتْ إلىَّ بلا مَشَقَّة ! »

وكُنّا نحن نعلم هذا من مَذْهَبه ، على ما كان يُخْبِر به وزَراؤُهُ . ولقد قال ذلك شِشْلَانْدُ فى حال هذه السفرة ، وشافَهنا بذلك ، وقال : « إنَّما كانت الأنْدَلُسُ للرُّوم فى أوّل الأمر ، حتّى غلبهم العَرَبُ ، وألحقوهم بأنْحَسِ البِقاع : جِلِّيقِيَّةَ ؛ فهُمُ الآن عند التَمَكُّن ، طامعين بأخْذِ ظلاماتهم ! فلا يصحُّ ذلك إلّا بضعف الحـال والمُطاوَلة ، حتى إذا لم يَبْقَ مالٌ ولا رجالٌ ، أخَذْناها بلا تَكَلُّف ! »

فكان الجميعُ يُسايرُ الأُمورَ ، ويُدافِع الأيّامَ ، ويقول : « مِنْ هُنا إلى أن تتمّ الأموالُ وتهلكَ الرعايا بزَعْمِهم ، يأتى الله بالفرَج وينصر المسلمين ! »

فورد علينا من إقبال ألفُونْشُ مع ابن عمّار هَوْلٌ عظيمٌ ، وصحّ عندنا أنّه لم يَأْتِ إلاّ طالباً لمُلْكنا : قد استَوْثق من ألفُونْشُ على ماقدّمْنا ذِكْرَه . ثمّ أرسل إلينا ينذرُ بإقباله ، ويأمُرُنا بالخروج إليه ، يُرَى أنّه يذهب إلى تجديد العَهْد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشكّ أنّ ذلك للتقبُّض علينا وإنجاز ما عاقَدَ عليهم . فاجتمع علينا أهلُ الرأى والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عَدُوٌّ قد جاء لطَلَبك ، ولا قدرة بك على مناواته ! وسَواء عليك خَرَجْتَ أم بَقَيْتَ ! فإنْ أنت بَقيتَ ، حَلّتْ بك الداهيةُ العُظْمَى ، ووقعت المُفاسَدة ، وأصاب مُطالِبُك سبيلًا إلى العَمَل ؛ وتكون هذه أشَدّ من الأُولى ، وَقْت رَفَضْنا بَطْرُه سُولِش وألقى ابنُ عمّار يَدَه* فيه حتى بَنَى علينا بَلِيلُّش. والآن لم يتروّح مُخَنَّقُنا حتى نعود إلى ما هو أدْهَى وأمَرّ ؛ فلو رأت الرعايا بعض خِلاف من هذا الجيش، لم تُبْق ولا تَذَرْ لشعفة ما قد دَهَوْا به قَبل، وكان الرجاءُ ينقطع ، ويتلف الكلّ حتى تُؤْخَذَ هُنا باليـدِ على غَيْرِ صُلْحٍ ، فلا يرقب فينا إلاً ولا ذِمّةً ! فالخروجُ إليه أيْسَرُ لأمْرَيْن : فإن كانت سلامة ، شكرتَ رأيكَ ، وثبت مُلْكُك ؛ وإن كانت الأُخرى ، كان خروجُك عن أمَانٍ ، وصِرْتَ حَيِّزًا فى العافيـة ! فاعْزَم على لقائِهِ[1] ، وقُلْ له قولًا ليِّناً ؛ ولله أن يُنفذَ قضاءه . ٣١(أ

فاستَعْدَدْنا لذلك جهْدَنا ، وأجْمَعْنا حَوَالَيْنا مَنْ نَثِقُ به من رجالنا ، وأخَذْنا أهْبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالَغْنا بالضرورة فى إكرامه ؛ فأعرض علينا وَجْهاً بَسِيطاً وخُلُقاً حَسَناً ، ووَعَدَنا أنّه يُحامِى

(١) أصل : « لقاه » .

عنّا كما يُحامِى عن بَلَدِه .

ثمّ وقعت المُعامَلة ، ومَشَت الرُّسُل مِنّا إليه ومِنْه إلينا ، يُبَيِّنُ ما عُوقِدَ عليه وأنّه سِيقَ سُوقًا ، ويقول : « إنّى قد تَشَبَّثُّ فى الأمر ، ولم نُعَجِّل حتى نسمع ما عندكم . فإن جامَلْتُمونى ورأيتُم لقَصْدى وَجهاً ، انصرفتُ عنكم على خير ، وإلاّ ، فها أنا مع من عاقَدَنى ! » وطلب خمسين ألف مِثْقال. فشكَوْنا إليه قِلّةَ البلاد ، وَأنّ ذلك لا يقدرُ عليه ، وفيه من القطع لنا ما يَفْتَرِصُنا به ابن عَبّاد ؛ فإنه ، لو أخَذَ غرناطة ، قوى عُنْصُرُهُ ، « ولم يَنْطَعْ إليك . فَخُذْ ما نقدر إليه ، وَاتْرُكْ رَمَقًا لا نَسْتَأْصَل من أجْله ! وَما تَرَكْتَ ، تَجِده عندنا متى ما طلبت ! » فقبل العُذْرَ بعد جُهْدٍ عظيمٍ ، وقاطَعْناه لقَصْده بخمسة وعشرين ألفاً ، نِصْفِ العدَد ؛ ثمّ أعْدَدنا له من الفرش والثياب والآنية كثيراً ، استدفاعاً لشرِّه ؛ وَجَمَعْنا ذلك كلّه فى خِباء كبير ، ودعَوْناه إليه . ولمّا رأى الثياب اسْتَحْقَرَها ؛ ووقع الاتِّفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مِثْقال لِتَتِمّ بها ثلاثون ألفاً ؛ فأكملناها له لئَلّا ينفسد الأكثرُ عن* الأقلّ . فشكر على ذلك كُلِّه ، وطابت عليه نفسُه. ١١ (ب)

ورجع إلى ابن عَمّار يقول له : « كَذَبْتَ لى فى قولك إنّ غرناطة فى ضَعْفٍ ، وَإنّ صاحِبها من صغر سنّه لا يعقل ! ورأيتُ من رتبتها وأحوالها ما خالَفَ قولَكَ ! »

فرجع ابن عمّار يسأله أن يعقد بَيْننا عَقْدًا يُوقَف عنده ، وَاستماله على أخذ إسْطَبّة من عندنا ؛ وَكانت مَعْقِلاً عظيماً ممّا يَلِي جِهات إشبيلية ، قدكان أخَذَه قائدُنا كَبّابٌ فى الفِتْنة . وَسَألناه نَحْنُ خَبَرَ القَلْعة ؛ فوقع الاتفّاق على أن تكون قَلْعةُ أسْطَلِير عِوَضًا من إسْطَبّة .

وكانت قَاشْترُهْ ومَارْتُش المَعْقِلَيْن اللّذَيْن على جَيَّان . ومن أجْلهما انقطع صاحِبُها عَمُّنا [ما كْسَن] ولم تكن لجيّان مَمْنى إلاّ بهما . فترامى ابنُ عمّار فى أمرهما على ألفُونْش ، ووَعَدَهُ على مَارْتُش بأموالٍ كأنّه يشتريها منه . فَعزَمَ علينا فيها للطمع فى المال ، ووَعَدَنا نَحْنُ على قاشْتَرُهْ بالمَطْمَر ، وكان أيضاً حِصْناً قد اشترك نَظَرهُ مع نَظَرِنا بِيَدِ ابن ذى النُّون ؛ فضمَّن خَبرَه أنّه يعطيه لنا عِوَضاً منها ؛ فدافَعْنا الأمْر جُهْدَنا : فلم نقدر على أكثر فَعْلِ القوىّ مع الضعيف ،

ثمّ إنّه عُقِدَ العَقْدُ بَيْن يَدَيْه على ذلك ، وأن لا يتعدّى مِنّا أحَدٌ على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كلّ عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مِثْقال فى العام ، وطيَّب لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمّار أن نغدر بك ؛ وَمعاذ الله من ذلك أن يشيع فى الدنيا أنّ مِثْلى كبيرًا فى الرُّوم يقصدك ، وأنت كبير فى جنسك ، ثمّ نغدر بك ! فابقَ على أمان ! لا أكلّفكَ إلاّ الضريبة ، تُوَجِّه إلىّ بها فى كلّ عام دون مَطَلٍ ؛ وإن تأخّرْتَ بها ، أتاك رسولى عنها وَتلزمك عليه نفقات ؛ فبَادِرْ بها ! »

فَقَبِلْنا قوله ، وَرأينا إعطاء عشرة آلاف فى العام ندفع بها مَضَرّته خيرًا من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على مُلاقاته وَمُكابَرته ، ولا وَجَدْنا من سلاطين الأنْدَلُس عَوْناً عليه إلاّ من يسوقُه إلينا لهلاكنا . فبَقِيَت الأُمور على مُصالَحة ومُهادنة* وَرفاهية ، لا يُسمع فيها بفِتْنةٍ . ٣٢ (١)

٣٧ — استيلاء أَلْفُونْشُ السادس على طُلَيْطُلَة

وممّا هيّأهُ الله أن فَقَدْنا وسائط السّوْء بعد ذلك بفقْد ابن عمّار ، وَشغْلِه فى مُرْسِيَة ، وبزَوَال سِماجَة عنّا وأشياعِهِ . وتوفّى قبل ذلك ابنُ

ذى النون عند بلوغه آماله بقُرطبَة ، وكانت الأندَلس قد ارتجّتْ له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمّتْ . وكان أهْلُ العِلْم يخبرون بذلك أنّه إذا حصل على قُرْطُبَة ، فقد تمّتْ أيّامُه وإذا تمّ شيءٌ ، دنا نَقْصُه .

ثمّ خُلِع من بعده حفيدهُ ، وقام عليه أهْلُ بلده ، ولجأ إلى ألفُونْشُ ؛ فصرفه إليها على قَهْرٍ وغلبةٍ ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمةً ، أشدّها ما جعل على نفسه فى شراء حِصْن من ألفُونْش على مقربة من طُلَيْطُلَة بمائة وخمسين ألف مِثقال طيّبة وخمسمائة مُدْىٍ من طعامٍ ضيافةً لكلّ ليلةٍ مدّةَ مقامه عليه : أخذَها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازَمَها ألفُونْش حتى صارت إليه . وَعوّض صاحِبَها ببَلَنْسِيَة ؛ وَلم يَعْترِضْ له مالاً ولا أهلاً غير الذّهَب والفِضّة .

وكان حفيدُ ابن ذى النون ، فى أَوّلِ ولايته ، لم يقدّم شيئًا على الغدر بوزيرِ جَدّه [ابنِ] الحديدىّ لسعاية البُغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسُه أنّ قتْلَه لا يصحّ إلاّ على يدى قوم قد سجنهم جَدُّه على بصيرةٍ ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه ؛ ولمّا تمكّنوا منه، كان كَلَبُهم عليه أشدّ ، وصاروا طالبين للثأر وكانوا أقوَى الأسباب فى فساد مُلْكه ، وهُمْ بنو اللّوارَنِكىّ ، و بنو مُغيث، ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكنّ العجْزَ وضُعْف الرأى عَمّيا عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانِيَة . بعض أخبار بنى هود

وحصل أيضًا ابن هود على مدينة دَانِيَة بغفلة صاحِبها عن الرجال وحُبّه فى الأموال ، مع مُداخَلات أُوتى بها من قِبَل وزيرِه ابنِ الرّيُولُه ، الخارج

عنه إلى سَرَقُسْطَة ؛ فسل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل المدينة بلا مشقّة ، وحصل منها على عظائم من الأموال بوفرها . وكان* ٣٢ (ب) عنده وَلَدُ مُجاهدٍ صاحِبِ دَانِيَة مكرّمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابنَ هود ، لمّا حصل على دانِيَة ، انفسد طبعُه ، وأدركَتْه الرّغبة فى البلاد ، وزال عمّا كان عليه من جهاد الرّوم ، وطَمِع فى بَلَنْسِيَة عند ذلك ، وأعطى عليها أموالاً جسيمة لألْفُونْش ؛ والْفُونْشُ فى هذا كلّه ، على ما قدّمنا ذكره ، يأخذ الأموال ، ولا يحقّق لأحد أن يُهاوِدَه على أخْذِ بلدٍ . فتوفّى ابن هود فى إثر أخْذِهِ لدانِيَة وبلوغِهِ آمالِهِ منها . وقد كان ابن الخيّاط المُنَجِّم ذكر ذلك كلّه ؛ ولقد قرأْتُهُ فى بعض كُتُبه قَبْلَ أن ينقضى ، حتى رأيتُه عيانًا .

وكانت قضيّتُه فى دَانِيَــة كقضيّة ابن ذى النون بقُرْطُبَة : فإنّ ابن هُود اهتزّت له الأنْدَلُس عند حصوله على دانِيَة ؛ وجزع جميعُ الرؤسـاء لأخْذِهِ لها دون قتال ولا زمان ، وَأَعَدَّ كلُّ أحَدٍ عُدَدَهُ مُتَأَهِّبًا لشرّه ، إلى أن أراح الله منه ، وقبضه على فِتْنةٍ واقتبالِ أمَلٍ .

ثمّ قام من بعده ابنُه المؤتَمِنُ ؛ فلم يلبث إلّا يسيراً حتى مات . وشعر المؤتَمِنُ لابن الرُّيُولُه وزيرِ أبيه بأعمال فاسِدة مع أَلْفُونْش ، ليتخدّم له خدمة ابن عمّار ، فيرأس لذلك عنده على أهل زمانه خِذْلانًا وطغيانًا ؛ فأمر بقتله .

وتوفّى المؤتَمِنُ ، وورثه المُسْتَعِينُ حَفِيدُه هذا الوالى الآن .

وكان المؤتَمِنُ رجلًا عالِمًا ، قد طالَعَ الـكُتُب ، مع ما كان عنده من الآثار ؛ فرأى مَوْتَه قريبًا . فكان لا يسرُّ بالمملـكة ، ويزهد فى كثير من الدنيا . ولقد أخبرنى بعضُ من حضر مَجْلِسَه من أعلام جُنْده أنّه كان

يُريهم ذخائره التى لم يجتمعْ مثلها عند مَلِكٍ ؛ فيُهنّئونه عليها ؛ فيقول لهم : « ما أصنَعُ بها ، والمُدَّةُ يسيرةٌ ، ولا أدْخُلُ منها قبرى إلاّ بكفنٍ ! » فكان يكدر قولُه ذلك عليهم ، حتى مات .

وكان مُنْذِرٌ أخوه بدانيةَ ، إلّا أنّ أباهُ الشيخَ لم يُمَكِّنْهُ من مالٍ ، حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدّته وشدّةِ بأسِه . فلما توفِّى المُقْتَدِرُ ، اضطربت الفِتْنَة بينهما . وكان مُنْذِرٌ منهما* يتَضَعْضَعُ له ويَتَكافى به ، ٣٣ (١) لِماَ كان من إحسانِه للأَجناد ومواساتِه لهم ، إلى أن توفِّى بعد أخيه ؛ وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وزيرُهُ .

٣٩ — ثورة ابن عمّار على المُعْتَمِد بمُرْسِيَة إلى أن أخرجه منها ابنُ رَشِيق . أعمالُه بعد ذلك ومهلكُهُ الشنيع

وصار ابن عمّار فى حَيِّز الخلاف على المُعْتَمِد ؛ وجَعَلَهُ يطْلُب مُرْسِيَةَ ، واعتراهُ عليها مشقّات ونَفَقات أموال . وجَرَى من أسْرِ ابن المُعْتَمِد عليها ما قد شهر . وطال مكثُه على مُرْسِيَة ، يُحزِّب عليها الأحزاب وينفق الأموال ، يُرى سلطانَه أنّ السَّعْىَ له ؛ وهو فى الباطن يجدّ لنفسه ، لكَىْ يتَّخِذَها مَعْقِلًا يَرْأَسُ فيه ، كالذى صَنَعَ . ولقد كان يقول أهْلُ العِلم بالآثار والتأْثير : « إنّ مُلْكَ بنى عبّاد يتناهى حتى يبلغوا إلى تُدْمِير ، ومن ثَمّ يتمّ هلاكُهم . وكان الناسُ إذ ذاك يتوقّعون عليه الفساد عند محاوَلة ابن عمّار لأمْرها ؛ فلم يكن إلّا بَعْدَه بحينٍ ، عند بلوغ الكتاب أجَلَهُ .

وصار ابن عمّار بمُرْسِيَة بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال

للمعاصى ، والإدمان على الخمر ، حتّى أبغضه أهلُها . وكان المُعتَمِد طاعةً فى معصية ؛ واشتهر بأخْذِ عِرْضِهِ وهَجْوِهِ بما قد نَزَّهَهُ اللهُ عنه ، فِعْلَ الأوغاد والأرذال .

وقدم إلى مُرْسِيَةَ ابنُ رَشِيق ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشبّكَ عليه المعاقِل بقرابته ، واتّخذ لنفسه صنائع مُدّةَ غفلة ابن عمّار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسِيَةَ ، يُريد لنفسه فى رسالة النصرانىّ ليخدم أمْرَ الأنظار التى تُجاوِره فى الشرق ، وعسى يَضَعُها فى يدَيْه ، مِثْل شَنْت مَرِيَّة ، ويسْعَى فى إصلاح ما أفسد عليه ابنُ رَشِيق ؛ فإنه لم يَجِدْ إليه سبيلًا لكَلَبِهِ عليه . ولمّا نهض إلى ألْفُونْش ، فأوّلُ ما سعَى فى تَصْيِير طُلَيْطُلَة إليه بمُدَاخَلة أهلها ، ليكونوا حاكمين أنفُسَهم ، ويؤدُّوا الجزْية للنصرانىّ دونَ رئيسٍ . وأبى طُلَيْطُلَة ، وابنُ ذى النُّون فيها باسْمِ * الرسالة ، ٣٣ (ب ووافَقَ على ذلك ، ومَحَلَّةُ ألْفُونْش عليها ، فى حين صَرْفِ حاجِبِها إليها بعد خَلْع أهلها له ، لِيَفِيَ له بوَعْده ، ثُمَّ يعكس عليه القصّة ، فيُقْتل . فشعر لذلك ، وغلب حفيدُ ابن ذى النون الفئةَ القائمة عليه . ففرَّ منهم مَنْ خلص إلى ألْفُونْش ؛ وفرّ ابنُ عمّار .

ولمّا لم تتمّ له خدمة ألْفُونْش فى ذلك ، نهض إلى صاحب سَرَقُسْطة ، وتخدّم له خَبَرَ شَقُورَة (وبها ظُفِرَ به ، ووُجِّهَ به إلى المُعْتَمِد) . فلما ثبت أنّه استقرّ عند ابن هود ، غَدَرَهُ فيها — أعنى مُرْسِيَةَ — ابنُ رَشِيق ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايتَه . ولم تكن لابن عمّار بعد ذلك رجعةٌ إلى مُرْسِيَة ، وصار خادِماً عند ابن هُود صاحِب سَرَقُسْطة . ولمّا احتلّ بذلك القطر ، أضْرَمَه نارًا ، وأهاج فيه فِتْنَةً ؛ وصار سفيرًا

للإِفْرَنج . وآثَرَهُ ابنُ هُود ، وقرَّبَه ، رجاءَ منه أن ينال على يدَيه ما نال
المُعْتَمِد ، للّذى قام له عنده من الطارُوس بسعادةِ صاحِبِه ، لا بأعمالِهِ .

وكانت العداوة الواقعة بَيْنه وبَيْن المُعْتَمد على يدى الرَّشيدِ ابنِه ؛
فإنّهُ ، بفسوقه ، كان يتكبَّر على أولاده ، ويضيِّق عليهم ، ويُسىء الصنيعةَ
مع من يجب عليه إِكرامُه من قرابة سلطانه ؛ والمُعْتَمِد ، فى هذا كلّه ،
يصبر له ، ولأنّه كان قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلةٍ : فمتى
ما دهم أمرٌ من قِبَلهم ، وجَّهه إليهم ؛ فيَنْجَلِى من أمْرِهم ما يضيقُ الصدرُ
به ؛ وكلُّ ذلك بأموال رَئيسِه وسعادةِ أيَّامِه ، وهو بجهله يعتقد أنَّ ذلك
لا يتهيّأُ إلّا بسببَه ، ويَرُدُّ الحسَّ كلَّه إلى نفسه . وكانت هذه المعانى ممّا
أحنق عليه المُعْتَمِد ، حتّى عقّب عليه بما كان جديراً به ، وأمْكَنَهُ الله منه ،
وجازاهُ بما لم يكن له منه بُدٌّ ، ولا رآه لغيره أهْلًا . وكانت شَقُورَةَ قد
أخلّها المُعْتَمِدُ ، وبَقِى صاحِبُها — عَبْدٌ من عَبِيدِ سِرَاج الدولة — أن يَضَعَها
فى يديه ؛ فلما صار* ابن عمّار إلى سَرَقُسْطة ، نهض إلى العبد المذكور ، ٣٤(١)
عَسَاهُ يرجع إلى طاعة ابن هُود ؛ فثقَّفَهُ وأرسل به إلى المُعْتَمِد ، وعند
ذلك قَتَلَهُ شرَّ قِتْلةٍ .

وإنَّ ابنَ رَشِيق بعد ذلك سوَّلَتْ له نفسُه الخلافَ على المُعْتَمِد ،
واحْتَجَ بأن قال : « لم يُقَدِّمْنى إلى مُرْسِيَة ! » وزعم أنَّ أهل البلد
اختاروه ، وأنَّ مُقَدِّمَهُ إنّما كان ابن عمّار متى ذهب عنها . وسنَذْكُرُ من
أمْره بَعْدَ هذا ، عند ذِكر أحوال المُرابِطين — أعَزّهم الله — وقَصْدِهم
إلى لِيِّيط ، ما انقضى من خَبَرِه عليها ممّا هو مشهورٌ .

٤٠ — عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كلُّ الناس عَلِمَ سِرَّ الأمر كالذى تَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قدّمناه ذِكْرَه من ارتباطِ المُعْتَمِد إلى الخيْر وإيثارِه للصُّلْح بزوال هذا الفاسِق ابن عمّار عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنة فيما بيننا وبينه ؛ وحقّق معنا فى كلِّ أمْرٍ ، كالذى فَعَلْنا نَحْنُ معه . وجَدّدْنا العَقْد على ما ارتضيناهُ من مُعَاوَضات ، سِوَى ما كان قديماً بيده ، ممّا خرج عنّا فى أيام المُظَفَّر ، وأخَذَت الفِتْنةُ عليه حقَّها ، ولم يوجَد فى طَلَبِ ذلك خيرٌ ، ولا إلى غير المُصالحة سبيلٌ ،

فقرّت الأحوالُ قرارَها ، وتَهَنَّى كلُّ واحِدٍ منّا بمُلْكه إلّا ما كان من سَيْفٍ بَرّانِيّ يعترض بلادَنا من الرُّوم؛ فكان الرُّزْءُ فيه واحداً والمشاركة سواء؛ وإن كُنّا لا نقدر على ذلك بالإمداد بَعْضنا لبَعْض لضعْفِ الحال، فكنّا نتشارَكُ بالمُداخَلة وإعمال الرأى والتحذير من أمْرٍ عسى أن يكون خفى عن الآخر وما أشبه ذلك .

٤١ — المؤلِّف يتحدَّث عن منهجه فى كتابة مُذَكَّراته

وإذا أتَيْنا على ذِكر جُمَلٍ من أحوالِ الأندلس الحادِثةِ فيها ، المشهور خَبَرُها حسبما استفاض ، وتَرَكْنا وَصْفَ الاختلافات ، إذ يوجد الحقُّ فى طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طولِعَ بالمشاهدة ولا بالمعاينة أكثرَ من إشاعةِ خَبَرٍ ، ذَكَرْنا منه ما ينقاس فى العقل ، وحَذَفْنا منه الإكثار والمشتبهات . وإنّه ، متى أتينا على ذِكْرِ خبرٍ حادثٍ فى دَوْلَتنا ممّا حاوَلْناه

أو شاهدناه* أطْنَبْنا فى وَصْفِهِ ، وقَتَلْناهُ عِلْمًا إلى آخرِهِ ، وأخبرْنا بسرِّه ٣٤ (ب)
عن جَهْرِه ، وبأرَقِّ الأسباب فيه . والإطنابُ فيما يحاوِلُ الإنسان أبلغُ وأنْعَتُ من وصْف المشاهدة لغير ما يخُصُّه ، كما أنّ وَصْفَ المشاهدة ، وإن كان لا نعنيه ، أبلغُ من ذِكر المستفاض الذى لم يُوقَف على حقيقته ؛ فإنّما يُذْكَر منه ما يقبله العقلُ ، ثمّ يجْتَرِى واضِعُهُ على أن يضع فيه من عقله دون الأغْلَب عليه عند العامة ؛ فيصير مُكَذَّبًا .

ولهذا ما اخْتَصَرْنا من الكائنات المشهورة بالأنْدَلس كثيراً من الأخبار عنها ، واقْتَصَرْنا على الإطناب فيما يخصُّنا منها ، ممّا حاولْناهُ أو رأيْناهُ عَيَانًا . والحقيقةُ من الخبر عَوْنٌ كبيرٌ على ما يرومُ الإنسانُ من صِفَةٍ فى مَنْظومٍ أو مَنْثُورٍ ، كالمادح أو الذامِّ ؛ فإنه ، إذا وجد إلى المقال سبيلاً ، أطْنَبَ وأبْلَغَ ، وإن كانت بعض زيادة ، فإنها لا تمكن إلّا فى الأغلب والأكثر ، ويكون فى ذِكر الأمْرَيْن مصدّقًا لمَعْرِفة الناس به ؛ ولأنّ كتابنا لم يكن مَبْنِيًّا إلّا على وَصْفِ تَمَلُّكتنا خاصّةً ، « والحديث ذو شُجون » ؛ فلا بُدَّ من ذِكر جُمَلٍ من غيرها عند الحاجة إلى وَصْفه أو ضَرْبِ مَثَلٍ به ، تزيينًا للكلام وإقامةً للبُرْهان ودورانًا على الحقيقة .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس ، مؤلِّف هذا الكتاب

(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

---

٤٢ — عزل الوزير سِماجة

ثمَّ إجلاؤه واستقلال عبد الله فى الأمر

وإنّه ، لما تهدَّنَتْ لنا الأحوال وقرَّ مُلكُنا قَرارَه بمُصالَحة المُعتَمِد ، ومُعاقَدةِ الرُّومىِّ على المُهادَنة ، وتَوطينِ النفس على ما نَعْطِيه[1] فى العام ، انصرف نَظَرُنا إلى إصلاح أمْر بلادنا ، والفتشِ على رَعِيَّتنا ، والكَشفِ على العُمّال إن كانوا عادِلين أو ظالِمين . ولمّا شعر بذلك خَدَمَتُنا ومَنْ كان له مَذْهَبٌ فى نصيحتنا ، انتدب جميعُهم إلى الإعلام بما عنده والتنبيه على ما خفى عنّا زمانَ تلك الفِتْنة؛ فكُنّا لا نقبل من أحَدِهم على الآخر إلا بعد رويّةٍ وهجومٍ على الحقيقة ، حذراً أن يكون مقال أحَدِهم حسداً للآخر أو طَلَباً لا يُتَّقَى الله فيه .

وكان سِماجَة ، وزيرُ دَولَتنا المتقدِّم ذِكْره ، قد شعر بذلك وأحسَّه مِنّا ؛ فاغتمَّ للأمر* وعمل فى نفسه ، وشكاه إلى إخوانه ؛ وكان فيما قال ٣٥ (١)
لهم : « إنَّما كُنَّا نطمع بالتحكُّم على هذا الرئيس والتمكُّن من دَولته مدَّةَ

---

(١) أصل : « نعطوه » .

أيّامِ صبوته ، يعني صغرَ سنّه . وأمّا الآن ، فلَسْنا نَجِد سبيلاً إلى ردّه عن دَوْلته ، لا بِفِتْيَةٍ تحمينا ، ولا بصغرِ سنٍّ نَجِد به السبيل إلى صرفِه عند العامّة وتسفيهِ رأيه ، لاسيّما إذ كان رأيُه النظرَ من دَوْلته والبحْثَ عنها .»

فقيل له : « لَسْتَ[1] تَجِد سبيلاً إلى أكثر من المُداراةِ له ، والإتيانِ لمرغوبه ، وقلّةِ الخِلاف عليه لئلّا يتمكن عدوُّك منك ، ويشتفي حاسِدك عليك . فهو ، إذا وجد منك الذي يرغب ، لم يلبث أن يُمِلّ النَّظَرَ والخِدمةَ ويُفوِّض الأمْرَ إليك ! ثمّ أنتَ بالخيار عند غَفْلته وإقباله على راحته ! وعليك بإشْغالِه بالنساء ، وعَجِّلْ له ابتياع الرقيق ! ولَسْنا نأمن أن يكون يشتأك من تَحْجيرِك هذه الشهوات عليه ؛ فإنّه نَظُنُّ به ما يُظَنُّ بمن كان في سنّه !»

ففعل ذلك . وكانت هذه الفترةُ التي دبّرها من سعادتنا وتمكيننا من آمالنا في الذي ذَهَبْنا إليه من الاستبداد بمُلكنا ؛ فإنّه شبَّكَ علينا المعاقِل ببني عمّه ، وأشَدُّها علينا مدينةُ المُنكَّب . فجعل يطلق لنا العِنان في كلّ ما نُريده ، واشترى الرقيق ، وجَعَلَنا نخرج إلى النزاهة في البلاد ، يُري بذلك الإنصاف والتأنّيَ ، إذ كان الرجل متثبّتاً ، خائفاً من سوء العاقبة ، مع أنّه كان خائفاً من قبل ذلك من أجلِ كُتُبٍ استعملها على ألسِنَتنا أقوامٌ من أعدائه إلى طائفةٍ من صِنْهاجة يأمرون فيه بقتله ، ونحن براء منها ؛ فظفر بالكُتُب ، وأنزل بنا التهمة ، وأمر بقتل أولئك المسمّين في الكُتُب ، وغيرِهم ممّن اتّهم من كرائمِ باديس — رحمه الله .

وكانت تلك المعاني مقدّمات تُعازِلُه لعَزْلَتِه . فلمّا كانت وجهتنا إلى وادي آش عن اختياره ، وقد كنتُ علمتُ معتقَده في ذلك كلّه بالقياس

---

(١) أصل : « ليس ».

والمَيْز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأَمْرَ* والنَّهْيَ ، ورأى من يَقْظَتنا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعْله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإلَيْه لا يؤمن خلافه ، والرجعة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافِق ! وإن فاتَتْنى هذه المرّة ، أكُنْ كمَنْ نُبّه على أمْرٍ وحذّر من نفسه ، ثمّ أوبق نفسه إلى المضرّات . وإن أغْضَيْنا هذه المرّة وعاد إلى ما كان ، ثمّ نَرَى منه خلافاً ، لم نقدر عليه بشيء ، إذ يكون نَظَره لنَفْسه أجْوَد من هذا النظر ، فإنّ هذا الأمْر منّا جاءه فجأةً لم يحتسبْه ولا ظَنّ به ؛ والفُرَصُ تمُرُّ مرّ السحاب ! فما دُمْنا[1] نحن بالخيار عليه ، لا نتربّص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ٣٥(ب)

فأراد إشاعة عَزْلَتِه بالحضرة عند إمكانِ السَّفَر ؛ فلم نَرَ لذلك وَجْهاً إلاّ ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنَع في الناس وأقطَع ليأْس الرعايا ، مع أنّى ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخَلَتْه الصِّناعة ، وكتم عن النـاس ، وشغَّبَت امرأتُه من الدار .

فلما وَصَلْنا وادى آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعيّة أن ترفع بمَظالِمِها ؛ وكان عامِلَها ابنُ أبى جوش ، صَنيعةَ سِماجة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحَدَّدتُ لهم حَدّاً يقفون عنده ألاّ يجعلوا بَيْنى وبَيْنهم واسِطةً ؛ وأمَرْته هو بالتزام ما يخصُّه لنفسه ، وأن لا وزير لدَوْلتى إلّا نفسى ؛ وحَددت لكلّ خادم ما تكون طريقتُه أن لا يتعدّى سِوَاها . فسرّ بذلك جميع الوزراء ، إذ تساوَتْ أقدامهم ، وانكشف حِجابى لهم ، لكى تكون حوائجُهم إلىّ

(١) أصل : « ما دام » .

دون مَنْ هو مِثْلُهم أو دونَهم . واغتبط الرعايا بعزلة الظلَمة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُتَّهم بخيانة ، وقدَّمتُ عُمَّالاً إلى الجهات ، أُريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمِّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لمَّا سمعوا بذلك ، يفرُّون منها ويترُكونها حتّى يوَجِّهَ إلىَّ جُنْدُها عن قائدٍ . ولم نَلْقَ فى ذلك* كُلِّه مَشَقَّةً . ولم يَبْقَ إلاَّ ابن عَمٍّ له ، صاحِب المُنَكَّب ؛ ٣٦ (١)
فجزع ، إن تَرَكَهُ ، أن يوجَد إليه السبيل بسَبَبِه ؛ فأخبرنى بالأمر ، وسألنى إرْسال قائدِى إليه ، فعزِل . وسأل زَاوِىُ زوالَ أخيه بلْبَار عن وادى آش . فكان ذلك كلُّه على أمْكَن سعادة وأجْوَد تقدير ، للذى شاء الله من تمام أيَّام وزَارته .

ثمَّ أمَّنْتُهُ فى نفسه ، وأبقَيْتُ عليه جميعَ أمواله إلاَّ الذهب والفِضَّة ، وسوَّغْتُه إنزالاً ينعاش فيه ، وأمَرْتُه بلزوم مَجلِسى وأنَّه مُكرَّمٌ طول حياتى . فقَبِلَ الرجلُ ذلك كلَّه ، وأطاعنا فى كلِّ أمْر أرَدْناهُ دون خِلاف ولا إظْهار لمَعْصية ؛ فإنَّه كان جزوعاً ، قليلَ الجرأة على العظائم ، ولأنَّه لم يَجِدْ فَئَةً تُعينُه . واتَّقَى بذلك أمَّنْتُهُ فى نفسه ، ومضى عليه دَهْرٌ طويلٌ على لزوم المَجْلِس دون خِدْمة ، فلم يَتْرُكْهُ .

وخاف منه مَنْ سعى فى أمره من أهل الدولة ، وتوقَّعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يُغْرون به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبَّة أمْرِه ، ما لم نَرَ معه وَجْهاً لإمساكه فى البلدة ، احتياطاً على أنْفُسنا ؛ ورُبَّما كدحت بعضُ تلك الأقاويل ، فهلَكَ من أجْلِها . ولا استَطَعْنا حينئذٍ على مُعاقَبته لِمَا ارتكب فى صَدْر الدولة من قَتْل أولئك النساء ومَنْ جرى مجراهُنَّ ، لشركته فى ذلك مع سِوَاهُ من شيوخ تَلْكَاتَة ؛ فيسوء ظنُّ

الجميع ، وتفسد من سَبَبه الأَحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المَمْلكة وسوءِ عاقبة الأمْر بما يلزم من إقامة الحدّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنّا دون تغيير ولا إبلاغ فى عقوبةٍ ، استمالةً لأَنفُس الناس ، وبَسْطاً لأَموالهم . فخرج بجميع أَثاثه وخَدَمه ودَوابّه وجميع ثيابه وفرشه ، مشَيَّعاً إلى المَرِيَّة . فكان المُعْتَصِمُ يُكرمه من أجْلنا ، ولا ييأَسُ أن نصرفَه إلى منزلته ، فيقدِّمَ ذلك الإكرامُ عنه . وخَرَجَت امرأتُه بحَلْيٍ كثيرٍ من الجَوْهَر ، حاشى ما خفى عنّا من المال ؛* وإنّما صار إلينا ما أعطيناه بأَيدينا من الذهب والفضّة أوّلَ ٣٦(بَ) ولايتنا ، وَقْتَ فَتْح بيتِ المال ؛ ولم نتحقّق ما اكتسب منها مدّةَ خِدْمَته لنا ، ولا بَحَثْنا عن ذلك .

٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المَرِيّة . تعاقُب أحداثه وحلُّه

ثُمّ قُمْنا من بعده فى أُمور البلاد والرعايا بأَحْسَنِ قيامٍ وأَتَمِّهِ ، وجَعَلْنا الأُمَناء على البحث والتعقُّب ورَفْعِ المَظالِم إلينا . ودام الأَمْرُ على ذلك دَهْراً طويلاً .

وإنّه ، فى إثْرِ مَضى صِمَاجَة للذكور إلى المَرِيَّة ، بَلَغَنا أنّه حقَّر الدولة لابن صُمَادِح وطَمَّعه فيها ، لِماَ كان يرَى من طمع الرجل الذى قد شهر به — رحمه الله — ؛ فإنّه كان كثيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المُنّة . فعمل قَوْلُه فى نفسه ، ورَجَا أن ينالَ على يدَيْه فُرْصةً بمُداخلةٍ أو إدْلالٍ على مَوْضِعٍ فائدةٍ ، كالذى تَهَيَّأَ له مع اليهوديّ .

ووافَقَ ذلك أن وَقَعَتْ بين قائدَى النَّظَر ما بين فِنْيانَة والمُنْتُورِى

مُشاجَرةٌ على الجهات ؛ ولم يتهيَّأ حيازة ذلك النَّظَر إلَّا بِبُنْيَان المُنْتُورِى المذكور . وقد كُنْتُ ، عند وجهتى إلى فِنيانَة ، أرسلتُ إليه رسولاً يُعلمه بورودى عليه ، وسألْتُه تلك القُرَى للصاقِبة لها وإنَّها أَوْلَى بذلك المَعْقِل لقربها ، وتطارَحْتُ عليه فى المُكارمَة بها ؛ فكان من جوابه للرسول : « هَيْهات ! ليست[1] تُملَكُ الأقطارُ إلّا بالبُنيان والسَّيف ! » فلمَّا علمتُ مُهِمَّ ذلك الحِصْن على المَرِيَّة ، وبَلَغَنى ما كان من تطميع سِمَاجة ، وتذكَّرتُ مُراجَعته عن القُرَى ، أَغْضَبَنا ذلك ولم نُؤَخِّرْ أن عاجَلْنا بِبُنْيان ذلك المَعْقِل . فقام على المقام بالجِدّ والقوّة ، وجَعَلْنا فيه حُماة الرجال ؛ وضاقت المَرِيَّةُ من أجْله ؛ واحْتِيجَ إلى بُنيان مَعاقِلَ غَيْرِها ، تَوَقُّعًا أن نسبق إليها ، فيكون عِوَضًا عن المُنْتُورِى . فقام بُنيانُها على ساق ، وصارت كلُّها حرزًا للجهات التى لنا ، وأَقْفالاً عليها ، وضَرَرًا على جِهات المَرِيَّة . فعيلَ بالأمر ، وضاق به ذرعًا ؛ وكان لا يُوجِّه* عسكرًا إلى موضع إلَّا هُزِمَ ؛ وأَسَرْنا ٣٧ (١)
كبارَ رجاله على طُرْلَبش .

وكان عِدَّةُ ما بُنِيَ عليه سبعة حصون . وكنتُ مع هذا آمُرُ[2] أهْلَها بالرفْق وحرْزِ جهاتها ألّا يتطرّق إلينا طالِبُ شرّ . وإنّى إنّما بَنَيْتُها صَولةً وتَهيُّبًا ، حتى نُصالِحَ الرجُلَ على ما يَقَع بموافَقتنا ، ويعرف أقدارَنا . وإنّه ، لمَّا ظهر من كَلَب الرُّوم على الأندلُس ما ظهر ، ورأيتُ نفسى ظافِرة متى رُمْتُ مع ابن صُمَادِح فِتْنةً ، وتبيَّن لى ضعفُه عن المُناظَرة ، صرفتُ نفسى عن التمادِى والإلحاح ، وقُلْتُ : « أنا فى مِثْل هذا مُدْرِكٌ ! لا يفوت من الأمر متى أَرَدْتُه شىءٌ . وحَسْبُنا ما قد ظهر إلينا ؛ فالإبقاء

(١) أصل : «ليس» .   (٢) أصل : «نأمر» .

أَوْلَى ، وإصلاحُ الأمْرِ مع الجار — وجارٌ ضعيفٌ يُبْقِى عليه — خَيْرٌ من تَهَيُّئِنا لقَوِىٍّ لا يُرام ! ولقد كان المُظَفَّرُ على بَصِيرةٍ من إبقائه لدَوْلته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أُسوةٌ وقدوة ! »

فصالَحْتُ الرَّجُل ، وأَمَرْتُ بهدمِ تلك الحصون ؛ ونُشِرَت المَرِيّةُ من كفن . وتمكّن بعد ذلك ، ودَنَا ، وصار أَصدَقَ الناس لنا :

ولا خَيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

فلم نَزَلْ متعاقِدَيْن مُتَشارِكَيْن فى الحلو والمُرّ إلى انصرام الأَجَل ،

٤٤ — توجيه عسكر ضدّ تَمِيم بن بُلُقِّين صاحب مالَقة وأخى المؤلِّف ، ونصره إيَّاه

ثمّ لم نلبث بعد ذلك إلّا يسيراً حتى جاءنا من أخينا تَمِيم لحمةٌ لم نحتسبها بعد أن رأى ظهورَنا ، وصُلْحَنا مع سلاطين الأندلس ، وما صنعناهُ بجهات المريّة ، لم يفرق بين هذه الحالة والحالة الأُولى ، لغرارة الصبا وقت اصطكاك الفِتَن والشغل الشاغل . فحسب الزمانَ كلَّه واحداً . ولما سُكِت عنه قبلُ ، لهذه العِلّة على ما قدّمنا ذكره من بدء أمره ، تمادى على تلك الأفعال . فأرسل قَطائنه إلى حرب المُنَكَّب وشَاط ، وخُوَيلةٌ فى إثرِها للضرب على النَّظَر المُصاقِب لها . وأتانى أهل تلك الجهات شاكين بالأمر ؛ فقلتُ فى نفسى : « هذا إنسانٌ لم يُبَصِّرْه الدهر ، ولا حكمَتْه التجارب : ومتى تركناه * على ٣٧ (ب) هذا دائباً ، ولم نؤدِّبْه عليها ، تمادى شرُّه ، وحسب أنّ ذلك لهيبته ؛ فازداد ، ولا تنفع فيه مَوْعظةٌ ولا قيلٌ ! » فلم نجد بُدًّا من تأديبه وزجره ، فإنّ الشيء تحقره وقد ينمى ! وإنّما كان ذلك الإغضاء لمَعانٍ تُوُقِّعَتْ ، وانتظاراً به لحسن العودة

ورويّة البصيرة . فإذا قد يَئِسْنا من هذا وأَمِنّا ما يُشغِلنا عنه ، فتَرْكُهُ على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

ووافقَ ذلك الزمان اشتغالُ المُعتمِد بأمر ألفُونْشُ ؛ فإنّه نازَلَ إشبيلية لتباعات تسبّب بها ؛ وضاقت الحال من أجْله . فاتّفق الأمر وتهيّأت الأسباب على حين غفلة وانتهاز فُرصة . فنهَضْنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهلُ حصونه ، ولم نتداركْ بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى وَرَدَ علينا عن حِصنِ القَصْر بجهة صَالِحَة أنّه صار في مِلْـكِنا وطاعَتنا رعيَّتُه ؛ وهو حِصنٌ أوّلُ من يطوع وآخِرُ من يعصى لذَوِى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصِرْنا إلى الحَمَّة ، نروم منها أمرَ ذلك النَّظَر . فأُعْلِمْتُ بصَخْرة دُومِس (ولا معنًى لِرَيِّه إلاّ بها ، وهى موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جلُّ عساكر مالَقة مع قوّاد صاحبِها ؛ فلو انتُزِعَتْ تلك الشوكةُ ، كان أمرُ غيرها يسيرًا هيّنًا . فاستَعدَدْنا لقتالها ، وضارَبناهم فى أوّل النزوع عليها . فجزع مَنْ فيها من الجُنْد ، وأرسلوا إلينا تلك الليلةَ يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالمين فى مُهَجِهم . فأجبْتُهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرَها بهذه الأيادى ؛ وأخلوا الصَّخْرَةَ ، وصار فيها جُنْدُنا .

وانتقلْنا عنهم إلى حِصنٍ كان صاحبُ مالَقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أوّلَ قيامه ، على ما سمعناه ؛ فلم يكن إلاّ ساعة قدومنا عليه وتخاذَلَ مَنْ فيه ، ودُخِلَ قسراً ، وهو حِصْن أُشْتَنير . ثمّ نَهَضْنا إلى مَرِيّة بَلِّش ؛ فألقت بيدها . وأردتُ التمادى إلى بِزِلْيانة .

وكان كَبّابُ * بنُ تَمِيت صاحبُ أَرْجُذُونة ، قائدُنا ، قد استقلّتْ ٣٨ (١)
فى تلك الجهة ، وزعم أنّه لا يتعزّل إلينا . فلمّا رأى ظهورَنا فى هذه المَعاقِل ،

خاف أن يَصْفُوَ الجوُّ ويصرف البال إليه ، فرام أن لا نَصِلَ إلى بِزِلْيانة وحذَّر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنُ مُنْت مَاس ، رأيتُ أنه لا تتمكَّن لنا مُنازَلَةُ مالَقة إلاّ بالراحة منه ؛ فإنَّه يمنع الميرة إلى المَحلّات . فانصرَفْنا من بِزِلْيانة نريد مُنْت مَاس المذكورة ، وأظهَرْنا لـكبَّاب الأَخْذ برأيه ؛ فسرَّ بذلك .

ولما نهضتُ إلى مُنْت مَاس ، رأيتُ مَعقِلاً عظيمًا ، قد اجتمعت به جميع الرعايا ؛ فعرَضْنا عليهم الطاعة ؛ فأَبوا ، خيفةً منهم أن نكون غدًا نُصالح أخانا ويُعاقِبَهم ؛ فأمَّنّاهم من ذلك . واجتمع فيه كلُّ فاسِقٍ من أهل الشرَّ ، وأعْرَضْنا عليهم الحرب بأنفُسنا ، وترَكْناهم على ذلك ، ورتَّبْنا عليهم الرُّتب وانصَرَفْنا إلى غرناطة . وفى انصرافِنا ، طاعَتْ لنا غيرُها من المعاقِل ، مثل أيرُش وصَخْرة حَبيب . وكُنا فى أوّل وجْهتِنا قد أَخذْنا رُيَّيْنَة بالسيف قسرًا ؛ وطاعت لنا جُطرُون ؛ وهُما قَصَبَتا مالَقة . وطارت فى تلك المدّة عن يده عشرون مَعْقِلاً . وانْصَرَفْنا إلى مُنْت ماس ثانيةً ؛ ويئِسوا من ترْكهم ، وطاع أهلُها ؛ وثقَّفْناها ؛ وهدَمْنا من الحصون ما نستغنى عن إمساكه بغيره ؛ وأمّنْتُ الجِهَة وبحثتُ عن فوائدها ، وصار ذلك مُقَيَّداً ؛ وأوْسَعْنا أهْلَها خيرًا .

ولما رأى أخونا ما دهمه من الأمر ، وقيامَ رعيَّته عليه ، خاف على نفسه من أهل البلد ، مع تَبْرِيزنا نَحْنُ عن مالَقَة فى حين أَخْذِ مُنْت مَاس . واشتغل بعض النـاس بقتال انحازوا إليه دون مَوْضِعِنا ، وتبعهم أكثرُ عسكرنا ، فانتهز أهلُ مالَقة الفرْصة ، لما رأوه من قلّةِ مَن في المَوْكِب معنا ، وخرجوا على باب فُنْتَنَالَة ، وحملوا على* العسكر حملةً اختلط فيها الفريقان . ولمَّا رأيتُ ٣٨(ب

فِرار مَنْ معنا واختلاطَهم بجُنْد مالَقة ، أمْسَكْنا على العَلامات ، وأمَرْنا بضرب الطبل بعد تولّيه ، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناس لمّا رأوا ثبوت العَلامات . ثمّ كانت لنا عليهم الكَرّة ، بعد أن أُسِر بعض رجالنا ؛ فأنقذوهم ، وهزموا عَسْكَرَ مالَقة ؛ وكان بها من جُنْد البَرْبَر نحو ثلاثمائة فارسٍ أنجاد ، إلاّ أنّ الحزم دَاخَلَهم ، ونزع إلينا أكْثَرُهُم .

ولمّا رأى بعضُ من معنا تلك الهزّة ، أشار علينا بالانصراف ، وخوّفنا من تَقْوِية ابن عَبّاد أن تَدْخُلَها ما لا يُمكن ؛ فقلْتُ : « إنّ الانصراف على هذه الحالة عَجْزٌ ! وسيشيع في الجِهة كلِّها أنّ رجوعَنا لم يكن إلاّ عن هزيمة ! فالأوْلَى أن نكسّر يومَيْن نُبَرِّزُ فيها كلّ يوم في الموضع الذى الْتَحَمَتْ فيه الخَيْلُ ، نُرِيهم : إن كانت بكم قدرة ، فعَاوِدوا ما فعَلْتُم ! » وثقّفْتُ العسكر لئلّا يطيش منه أحَدٌ . فكان ذلك . وأقْلَعْنا بعزّةٍ حتى وصَلْنا نَظَرْنا على أتَمّ ما يُمكن . ولو رَفَعْنا أوّلَ تلك الوهلة ، خَلَتْ جميعُ المعاقِل التى طاعت لنا ، وكأنّنا ما صَنَعنا شيئاً .

فبقِيَت الحال ضيِّقةً على مالَقة . وأرسل إلينا أخونا ، يستعطف ويسأل العَفْوَ وإقالة العثرة . فدبّرْنا أمْرَه فى أنفُسِنا ، وعملْنا فيه رأياً سديداً ، وعلِمْنا ماهو عليه من الحَرْص والشرهِ والحِدّة ، وأنّ صَرْفَ المَعاقِل إليه تَقْوِيَةٌ لشرِّه ، وأنّه ، إن عاوَدَ بما كان عليه ، لم نقدر له على شيء ، ولا تطوع بَعْدَها رعيّته إن أرَدْناهم بَعْدُ ، لِمَا يَرَوْن من إسلامنا لهم إليه ، وخافوا أن يُعاقِبهم ، مع ما كانوا ينقمون عليه من سوء الطريقة معهم ، يُعْلِنون بذلك ؛ وأخذوا مِنّا ميثاقاً غليظاً ألاّ نُسْلِمَهم إليه ، وعاهَدْناهم على ذلك بأيمانٍ مغلّظة . وظهر من أقاويلهم أنّهم ، متى رُدّوا إليه ، لم

يجيبوا * ، وأدخلوا الداخِلة ، وصيَّروها إلى رئيس غَيْرنا . فخِفْنا من هذه الوجوه ما يجب أن يتوقَّع . (٣٩ ا

ثُمَّ لم نَرَ وَجْهاً فى الإلحاح عليه ؛ فرُبَّما أخْرَقَ ، وصَيَّرَها إلى سِواناه، كالذى صنع ماكْسَن عمُّنا بجيَّان ؛ فتكون مُصيبةً للبلدة ، وعارًا عظيمًا ، من تَوَاليج أخينا وشقيقنا إلى غَيْرنا ، وتَغريبه فى البلاد ، وأُمّه فى قيد الحياة ؛ ولو لم تَكُنْ ، فأبقَيْنا عليه ، وقد أدَّبْناه[1] بما كَفى ، ووسعْنا عليه فى النَّظر ممَّا لم تَبْقَ فيه من الرعيَّة ، وكان مُهِمًّا عليه ؛ وأخْلَيْنا له رُبَيْنة وجُطْرُون ؛ فإنَّ رعيَّتها نصارى ، وهُمْ بَيْن النَّظَرَيْن ، لا يقدرون على نفاق مع أحَد ؛ وأعطيناه قُرًى يتَّسع فيها لمَرافقِهِ . وبقيَتْ بيده حُصُون الغَرْبيَّة مِثْل قَرْطَمَة ، ومِيشَش ، وحُمَارِش ؛ وأعطيناهُ قَامَرَة ، بَلَدَ الزرع ، ليتَّسِعَ فيها للحَرْث . وحرَمْناهُ غَيْرَها ، التى يتوقَّع من أهْلها ومنه : إن استأْسَدَ بها ، لم يؤْمَن شَرُّه .

وبَقِيَتْ حالُه فى أفضل الأحوال ، مارَضِيَتْ به الوالِدة وحَمِدَهُ جميعُ الناس ، صِلَةً للرحم ، وعَفْواً عند المقدرة ، وتأْديباً لما يخشى عاقبته . وقرَّ حالُه قرارَه ، ونَفْسُه فى هذا علينا حاقِدةٌ ، تَبْلُغُنا عنه أقاويل سيئَةٌ ؛ ونحن لا نعرج عليها ونقول : « إضْرَارُه بالقول خَيْرٌ من إضراره بالفعل ، لو صَرَفْنا إليه المَعاقِل ! وعَلِمْنا أنّه فى عافية ونعمة طائلة ممَّا عنده من الأموال التى ترك جدُّه بمالقة ، لم يحوج قطُّ إلى نفقة دِرْهَمٍ منها ، ولا نالَتْه فِتْنةٌ ، ولا بلغه مكروهٌ ؛ وكُنَّا نحْن أمامَهُ نُقاتِل عنه العَرَب والعَجَم ، ونعطى عنه الجِزْية ، وهو فى دَعَة ؛ فإذا كان بيده فوق مايكفيه لقِلَّةِ تَمَوُّنه واحتياجه

(١) أصل : « ودبناه » .

إلى نفسه فى التموُّن[١] والنفقات ؛ فإنَّ هذا كثيرٌ ، وهو تحت نِعَم جَمَّة ! » فطابت أنفُسُنا على ذلك . وكَفَّ هو عن كثير ممَّا كان يرتكب من القتل والظلم ، حتى أنَّه لا يَردُنى من عنده رسولٌ من أهل بَلَده أو جُنْده* ٣٩(ب) إلَّا ويوصِّى أن نشدَّ يدى عليه ، ويقول لى : « بتأديبك له فَلَحْنا وكفَّ عنَّا ، وإنَّه ، متى يأمن منك أمْراً ، طغى علينا ، وشقينا به . وما فى الدنيا أشْعَرُ منك فى إمْساك تلك المَعاقِل عنه ؛ فإنَّك كنتَ بعد هذا لا تلجمه أبدًا ! » فخرجت الأُمور خَيْرَ مَخْرَج ، وأمَّنَّا جِهتَه بسَتْره فى مكانه ، ولم نفجع فيه أمَّه .

٤٥ — ذكر ثورة كبَّاب بن تَميت وثورة بنى تاقنوُت ونهايتهما

وإنَّ كبَّابَ بن تَميت ، قائدنا بأرْجُذُونة وأنْتَقَيْرة ، لمَّا رأى ظهورنا على مالَقَة ، أكْبرَه ذلك وشقَّ عليه ، وعَلِمَ أنَّ الأَمْرَ منْجزٌ إليه ، إذ كان قد أضْمَرَ نفاقًا وطاعةً فى مَعصِيةٍ ، لِماَ تأسَّس له هناك فى حين الفتنة من ضَمِّ الأطعِمة ، والاستحواذ على أموال الناس بقَطْعِه السُّبُل ، وانقطاعِ أهل الشرِّ إليه من كلِّ قطرٍ . وكان أمْرُه من ذُنُوب مِمَاجَة عندنا ، الذى سوَّغه البلد ، وجَعَلَه مِلْكاً فى يده ويدى بنى عمِّه ، حتى شقى به . ولمَّا تمَّ صُلْحُنا مع المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، خالَفَنا فيه ، وجعل يُفسد وينقض ما أبْرَمْناه من ذلك ، ولا يقرُّ عن الضرب . فجَعَلْت أقدمُ إليه المَرَّة بعد المَرَّة ، وأنذره عاقِبة اتِّباعِ هَوَاه ، وأقولُ له : « إنَّ للمُصالَحةِ وقتًا ينبغى

(١) أصل : « الفتون » .

المَرْءِ حِفْظُها ؛ فإذا أفْسَدْتَها ، فأنْتَ من المُطالبين لى ! » فلا يَزْدَجِرْ مع هذا كلِّه ، ولا ينفع فيه وَعْظٌ ، لإعجابه وتحامُقِه . وكانت كُتُبُ المُعْتَمِد أبداً تَرِدُ بالشكوى منه ؛ فأَضْمَرَ لنا من كفِّه غائلةً . وكانت من سعادتنا أنّه لم يحمل المُعامَلة مع أحد الفريقَيْن .

فلمّا طال الشكوى به ، قلتُ لرسول المُعْتَمِد : « لا أَسْتَطيعُ على عَزْل كَبّاب إلاّ بالمُجاهَدة فى مُفاسَدته ؛ فإن استوثَقْنا منكم أن يترامى عليكم ولا تقبلوه ، فنَحْنُ ضامنون لعَزْلَته ! » فارتبط معى على أن لا تُقبل له رجعة ولا تُقال له عثرة . فألْحَحْتُ على كبّاب فى أن ينزل عن المَعْقِلَيْن ، ثِقَةً منّى بما رَبَطْتُه مع المُعْتَمِد ، فزاد طغيانُه ، وخاطَبَ على المقـام إلى ابن عَبّاد ،* يرغب فى تصيير الحصون إليه . فأرسل إلىّ المُعْتَمِدُ بكتابه ، وحضّنى على شدِّ اليد عليـه والراحة منه ؛ ففعلتُ ذلك . وهذا مِمّا تقدّم ذِكْرُه من إنصاف المُعْتَمِد لنا وقلّةِ خِلافه علينا مُذْ فارَقَ ابنَ عَمّار ، كالذى أجْمَلْنا نَحْنُ معه فى أمْر بَيّاسَة ، وقتَ نفاق أهْلِها وأرْسَلْتُ كتابهم إليه .

وإنّ كَبّاباً قبل ذلك ، لمّا رأى صَنِيعنا بمالَقة ، على ما قدّمناهُ ، نظر — فى زَعْمه — لنفسه وقال : « هذا ما صنع بأخيه ! وطاعت له الرعايا ! فكيف بمن هو عبدٌ من عبيده ؟ » وأحسّ ذلك فى نفسه ابنُ تاقَنَوْت ، صاحبُ مدينتنا ؛ وكان امْرَءَ سَوْء ، كثير الطغيان ، بعيداً من الخير ، مؤثراً للشرّ ؛ وكان له أخٌ بحصن جَرِيشة ، قد سَوَّغَهُ أيضاً سِماجةُ إقْليمَ نِيمَش كلَّه ، وطال مكثُه فى الحصن سبعة أعوام ؛ فسوّلت له نفسه ، مثل ما أضْمَر كبّاب من النفاق ؛ فتعاقَدَا جميعاً وتحالَفا أن لا ينعزل أحَدُهما إلاّ بعزلة الآخر .

فشعرتُ للأمر ؛ فأوّلُ ما ابتدأتُ به النَّظَرَ فى أمر ابن تاقنوت ، إذ كان أهمّ علينا من أجْل مَدِينَتنا التى كانت بيده ، وجَرِيشَة بيد أخيه . ورأيتُ معاقَدةَ المُعتَمِد عليه آكَدَ ، إذ علمتُ من حَنَقه على كُبّاب أنه لا يقبل له معذرة . فعامَلَنى على ذلك أيضاً بأحسن مُعامَلة ، وتَسرّح بعسكره قُوّة إن احْتِيج إليه لحرب جَرِيشة ، وشارَكَ غاية المشارَكة فى التوسُّط بَيْنَنا وبَيْنه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كُنْتَ جَزَعْتَ من رئيسك ، فاتْرُكْ حِصْنه ! وأضْمَنُ لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنتَ لا تَثِق بهذا كلّه ، فانْزِلْ إلىّ بعد أن أعطيك عَهْدَ الله وميثاقه ألّا أُسْلِمَك إليه أبداً ! » فما كان جوابُه إلّا إن قال : « وما تصنعون بالحِصْن ؟ » قال : « أُصيِّره إلى صاحبه ! » فأبى وقال : « إنّما أريد أن أجعل المَعْقِل بيد من يُذِيقه الشرّ ويتولّى فِتْنَته ! »

٤٠ (ب) فأتانى ابنُ* الأصبحىّ رسولُ المُعتَمِد ، المتوسِّط لخبره ؛ فقال لى : « اعْزِمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهِّبٌ للشرّ ، لا يقنعه إلاّ الإضرارُ بك ! » وكان فى هذا كلّه يقطع السُّبُلُ ، ويُخيف الناسَ ، ويقتل أهل الرِّفَق ، ويُطلِع أموالهم إلى الحِصْن ، ما كان أشْهَرَ فى الناس من الشمس ، حتى لا يتجرّأ أحدٌ أن يجتاز بشىء من تلك الجهات .

فاستخَرْتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستّة أشهر ، لا نُبالى عمّا ننفق عليه من الأموال ، إلى أن رقّتْ حالُه ؛ وأنا فى هذا كلّه أُقدِّم إليه وأُبْلى العذْرَ عنده ، وأخوه فى ثقاف . وأمرْتُ أخاه بأن : « اكتُبْ إليه أنّى متى أخَذْتُه على غَيْرِ عَهْدٍ ، بَرّحتُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قَبْل

أَخْذه ، ولو بساعةٍ ، لم يتوقّع مِنّى شيئاً ! » فوالله ! ما تَرِدُ عليه هذه الكُتُب إلّا ويزداد طغياناً وشتماً وحماقةً ، حتى يَسّرَ الله أَخْذَهُ ، ودُخِلَ الحِصْنُ ، وكفى الله شرّهم ، وطهّرهم من البلاد ، وأراح منهم العِباد .

وشاوَرْتُ كبارَ البلدة وفُقهاءها فى خَبَرهم ؛ فَخَبّرونى فى الذى حضّ الله عليه من قوله تعالى[1] : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتُهم مستوجبين للصَّلْب ، وأنه أدْهَى وأمرُّ من أن يُنفَوا من الأرض . فإن شرّهم لا يؤمن . وكثيراً مّا كان المسلمون مُرْتَقِبين لِمَا حلّ بهم ! ووَالله ! ما صرفتُ وجهى لأحَدٍ خاصّةً وعامّةً من أهْلِ بلادى إلّا ووصف لى من أفعالهم القبيحة ما وترواْ بها جميع الناس . ولقد كان يومُ قَتْلِهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرّهم .

وإنّ كَبّاب بن تَمِيت الذكور ، لمّا رأى ما صُنِعَ ببنى تاقَنْوَت ، زاده ذلك حماقةً واستيحاشاً ، وخاطَبَ المُعْتَمِدَ على ما قدّمنا ذِكْرَه . فأرْسَلْنا إليه نُعرض عليه التخلّى عن المَعْقِلَين ؛ فأبَى ذلك ، وأعدّ ، واستعدّ بآلَةِ الحرب ، وضمّ الحرّاسة وأخاف السُّبُل ، وقطع* الطُّرق وأتى بما هو ٤١ (١)
مشهور من شرّه . فاستخَرْتُ اللهَ على مُنَازلته ، وأمرتُ بضمّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمّ ما يمكن . ولما أحسّ من نفسه بالضعف ، وأنّه لا مَلْجأ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلّة إقبال السلاطين عليه ، تَرامَى علينا ، وسأل العَفْوَ ، خوفاً أن يحلّ به ما حلّ ببنى تاقَنْوَت إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيتُه من العَفْو ما سألَ ، ليكون ذلك

---

(١) سورة المائدة : ٣٣ .

قدوةً لمن سألَ منَّا العَفْوَ بعد الإساءة ، فلا يَيْأس من فعلها ، إن دفعنا إلى مثلها بعدها ؛ وكانت الأُولى عِظَةً وشُنْعةً لمن نفرَ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وكنَّا لا نُقَدِّم شيئاً ولا نؤخِّرهُ من هذه الأمور إلّا بعد رويّةٍ وفكرةٍ فى العاقبة ، ونَدَعُ مشورة الناس ؛ فإنَّا بَلَوْنا منهم قلّة التحقيق ، والنطْقَ على الهَوَى : فإمّا مَفْتونٌ بأمرٍ يُزَيِّنه ويحمل عليه ، وإمّا كارِهٌ لخيرٍ أو مطالِبٌ لأحَدٍ ، فيجعلنا نحيد عن ما لا يطابق هواه ، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾[1] . فلمَّا بَلَوْنا من الناس هذه الشمائل ، وأنَّ كلَّ أحدٍ يحبُّ أن تجرى الأحكام على اختياره ، رَجَعْنَا إلى إيثار اختيارنا ، إذ كان نظرُنا لأنفسنا أرْشَدَ من نَظَرِ غيرنا ؛ « وما حَكَّ ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ ![2] »

وكُنَّا مع هذا نَصْغَى إلى قول الناس بالأُذُن ، لا بالعَقْل ؛ فنقيس عليه ونختبِر مُرادَه ، ولا نُريه الخلاف ، فنُوحِشَه ، غيْرَ أنّى أُوسِع لهم صدرى ويَسَعُ جَهْلَهم حِلْمى ، وأقضى بعد ذلك ما أُريد ، إذ لم أكُنْ على أمْرٍ مجبوراً ولا مقهوراً ، إلّا ما قَهَرَتْنى عليه السياسة ، وما تُحْمَدَ له العاقبة ، كَمَن يتجرَّع الدواء لِبُرْء الداء ، ولم أكُنْ أغْتَبِنْ لأحَدٍ فى الحقّ من جهالة ولا غفلة ، إلّا أن تكون مساحةً وتَغَافُلًا لأمرٍ يُراد ، أو مُتباعَةً للقول فى حينه تَلَطُّفًا وقلّةَ خِلافٍ على قائله ؛ ثمّ أصرفه تارات .* فالجاهلُ عندنا مَنْ ٤١ (ب)
إذا أشارَ برأيٍ ، ثمّ رأى أنه صُنِعَ ضِدُّه ، أن يعاودَ القول فيه : فإن كان

---

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للميدانى (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِناً ، من العَيِّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكيرُ به غفلةٌ .
استنقاصٌ لمخدومه ؛ اللّهمّ إنّه لم يسمع منه الأُولى ، فتجرى عن الأُخرى
خِلافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القائل ، ولم يُرِد
عليه ؛ فيكون فى رأيه البَرَكة والخير للفريقَين ؛ وهو يلوم على ما لا يـ
ويتمادَى جهالةً ، وينطق هَذَراً ، وتنحرف نيّتُه على غير معنًى ؛
ظالماً لنفسه .

فأَوْدَعْنا كَـبّاباً حِلْماً ، وأمّنّاه ، وبقى فى جملة الجُنْد تحت إ
وإهمال ، غَيْرَ أنّى لم أستَعْمِلْهُ بعدها فى مَعْقِلٍ ، ولا مَكّنْتُه من ـ
إذ « لا يلدغ مُؤمنٌ من جُحْرٍ مرّتين[1] . »

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميدانى ، جـ ٢ ، ص ١١٠ .

الفصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس ، مؤلّف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزّلاّقة ومحاصرة حِصْن لِيِّط

٤٦ — مقدّمات تدخل المرابطين فى شؤون الأندلس

وبَقِيَت أحوالُنا على أفضَل ما يمكن ، وبَلَغْنا من آمالنا غايتها ، إلى أن حَدَثَ أمرُ المُرابِطين — أعزّهم الله — . وكُنّا رأينا كَلَبَ النصرانىّ على الجزيرة وأخْذَه لطُلَيْطُلَة ، وقلّةَ رفقه ، بعد ما كان يقنع منّا بالجِزْية وصار يروم أخْذَ القواعِد ، وأنّ أخْذَه لطُلَيْطُلَة للضعف المتوالى عليها عاماً بعد عامٍ ؛ وكذلك كان من شأنه فى أخذ البلاد ، إذ كان مَذْهَبُه ألاّ يُنازِلَ مَعْقِلاً ، ولا يُفْسِدَ أجنادُه على مدينةٍ ، لبُعدِ مَرَامِها ومَن فيها من مُخالِفِى مِلّتِه ، وإنما كان يأخذ منها الجِزْية عاماً بعد عامٍ ، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدّى ، إلى أن تضعف وتلقى بيدها كما فعلَتْ .

فوقع من ذلك فى الأندلس رجّةٌ عظيمةٌ ، وأشرب أهلها خَوْفاً وقطَعَ رجاءه من استيطانها . وجرَتْ بين المُعتَمِد وألفُونْش مُخالَفات كثيرةٌ ، وسأله

أن يتخلّى له مَعاقِلَ كان الموتُ عنده أوْلى من إعطائها. فوجست نفسُه منه بالجملة ، ورام كَسْرَه بطوائف المُرابِطين ، وضَرْبَ بَعْضِهم بِبَعْضٍ للقَدَر الذى شاء اللهُ :

إذا لم يكن عَوْنٌ من اللهِ للفَتَى فأكْثَرُ ما يَجْنِي عليه اجتِهَادُهُ

*وقد كان أخونا صاحبُ مالَقَة ، للفِتنة التى كانت بَيْننا وبيْنه ، قد داخَلَهم قَبْلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقام مِنَّا بهم ، وأن يُدْرِكُوهُ ما فاتَهُ من مملكة جدِّه ؛ وظنَّ أنَّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بينى وبيْنَه . وكان هذا الخِلافُ كلُّه من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تَشَتُّتِنا أنَّه لا مشقَّة تكون عليه فى أخْذِ بَعْضِنا ببَعضٍ متى شاء ، فلم يُجِبْهُ الأميرُ إلى شىء ، ولا كان وَقْتُه ، وهو يُلِحُّ عليه بقلَّة الدربة . ٤٢ (١)

٤٧ — إرسال سفارات أنْدَلُسيَّة إلى مَرَّاكُش . احتلال المرابطين الجزيرة الخَضْراء

وقد كان رُسُلُ المُعْتَمِد قبل هذا قد وردت عليه ، تُعلمه أن يتأهَّبَ للجهاد ، وتَعِدُه بإخْلَاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يَصِلُ إلى سَبْتة إلاّ ويَضَعُها فى يديه . فلمَّا وصل متأهِّبًا لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدَّم رُسُلَه إلى المُعْتَمِد ، منهم عبدُ الملك القاضى . وابنُ الأحْسَن ؛ فأمْسَكَهُم بإشبيلية مُدَّةً طويلةً ؛ وأميرُ المسلمين فى ذلك مُتَقَلِّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ إشْبِيلية من يقول له : « تَرَبَّصْ من سبتة مُدَّةً من ثلاثين يومًا ، إلى أن نُخْلِي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسألوه خطَّ يده وبالتربُّص . فأشْعِرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يَحْمِلْكَ ابنُ عَبَّاد فى هذا الالْتِواء إلا لأنَّه يُرِيد أن يرسل إلى ألْفُونْش يُعلمه بقدومك ؛ ولعلَّه يتأتَّى له منه ما يرغب ،

ويُهدّده بك ، ويسألُه أن يُعاقِدَه على أنْ يَهبَه الجِزْية أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقُهُ إليها ! وإن كان النصرانيُّ لا يتأتّى له ، أرْسَلَ إليك فى الجواز ! »

ولمّا انفصل الرُّسُلُ عنه بنيَّة التَّرَبُّص فى إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ، جهّز عسكراً مُقَدَّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم فى أثرهم ؛ فلم تَصِل الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلّا والعسكر فى أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار الصِّناعة . فالتفت القومُ إلى خَيْل قد ضربَتْ مَحَلَّتها ، لم يُدْرَ متى أقبلت ؛ ولم يُصْبَحَ لهم إلّا وطائفةٌ أُخرَى بعدها ، يزيدون ويترادَفون ،* حتى انكمل ٤٢ (ب) العسكر كلُّه على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأحدقوا حوالَيْها يحرسونها .

ونادَى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمونا بالجزيرة ! ونحن نأتِ لأَخْذِ بلدةٍ ولا ضَرَرٍ بسلطان ! إنّما أَتَيْنا للجهاد ! فامّا أن تُخْليها من هنا إلى وقت الظُّهْر من يومنا هذا ، وإلّا ، فالذى تقدر عليه ، فاْصْنَعْ ! »

وخاطبَ أميرُ المسلمين ابن[1] عبّاد ، يُعلمه بما صنع ، ويقول له : « كفَيْناكَ مؤنةَ القطائع وإرسالَ الأقوات لأجْنادنا كما وَعَدْتَ ! » فأرسل المُعْتَمِدُ لابنه الراضِى فى إخلائها لهم ، وحصل فيها داوود . وأتى الأميرُ إليها ، ودخلها ناظِراً إليها ؛ ثمّ انصرف إلى سَبْتة إلى وقت إقباله . وأمر داودَ بالتقدُّم إلى إشبيلِيَة ؛ فاستوفت العساكر على إشْبِيلِيَّة .

وقد كان رُسُلُنا مضوا مع رُسُل المُعْتَمِد إلى أمير المسلمين ، على اتّفاق ضمّ بَعْضُنا فيه بَعْضاً إلى حقيقة ، وعاقَدْنا أمير المسلمين على أن تتّصل الأيدى على غَزْوِ الرُّوم بمعونته ، وألاّ يعرض لأحَدنا فى بلده ، ولا يقبل عليه رعيّته بمن يروم الفساد عليه .

(١) أصل : « لابن » .

٤٨ — تجمُّع جيوش الأندلُسيِّين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حُلُوله بإشْبِيلية ، عن جميع الرؤَساء ؛ فأمَّا ابنُ صُمَادِح ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصًا ليَرَى كيفيَّةَ الأمْرِ ومَخْرجَهَ مع الرُّوم ؛ واعتذر بكِبَر السنِّ مع الضعف ، وأرسل ابنَه مُعْتَذِرًا . و بادَرْنا نَحْنُ إلى الخروج ، وسُرِرْنا بذلك ، وأعْدَدْنا ما استَطعْنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدَّمْنا الهَدِيَّةَ إلى أمير المسلمين ، وأمَرْنا بضرب الطَّبْل وما يُسْتَعَدُّ به للفرح ، عند مُخاطَبَته لنا بدخول الجزيرة . وظَنَنَّا أنَّ إقبالَه إلى الأنْدَلُس مِنَّةٌ من الله عظُمَتْ لَدَيْنا ، لا سِيَّما خاصةً من أجْل القرابة ، وللذى شاع من خيرهم ، وإقبالِهم على طَلَب الآخرة ، وحُكْمِهم بالحقّ ؛ فنعمل أنْفُسَنا وأمْوَالَنا فى الجِهاد معه كلَّ عامٍ : فمن عاش مِنَّا كان عزيزًا ، تحت سترٍ وحمايةٍ ، ومن مات كان شهيدًا . والعجبُ فى تلك السفرة من حُسْن النيَّات ،* وإخْلاصِ ٤٣ (١) الضمائر ، كأنَّ القلوب إنَّما جمعت على ذلك .

ولقينا أمير المسلمين فى طريقه إلى بَطَلْيَوْس بجَرِيشَة ، ورأيْنا من إكرامه لنا وتحفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطَعْنا أن نمنحه لحومَنا ، فَضْلاً على أموالنا . ولَقِيْنا المُتَوَكِّلَ ابنَ الأفْطَس مُحْتَفِلاً بعسكره : كلٌّ يرغب فى الجهاد ، قد أعمل جَهْدَه ، ووطَّن على الموت نفسه .

٤٩ — موقعة الزَّلَّاقة وانتصار المسلمين على ألْفُونْش السادس

وتَلَوَّمْنا ببَطَلْيَوْس أيَّامًا ، حتَّى صحَّ عندنا إقبال ألْفُونْش فى حفلة ، يروم المُلاقاة ، ويظنُّ أنه يهزم الجيش لقلَّة معرفته به قبل . وساقَهُ القَدَر

إلى أن توغّل فى بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن بإزاء المدينة ، متَرَبِّصون : إن كانت لنا ، فبها ونِعْمَتْ ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرْزاً ومَعْقِلاً نأْوى إليها . وأمير المسلمين يُدبِّر هـذا الأمر بحُسْن رأيه ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع المُلاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحْوَج إلى التوغّل فى بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلُس ، ولا يعرفون مَنْ لَهمْ أو عليهم ؛ ورَجَا بأن يكون الرُّومىُّ لا يَخْرُجُ إليـه أحدٌ ، فَيَنْصَرِفَ طريقَه ، ويكفى الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُرِيَهُ الأُمور وجوهَها . فلا يُسْـمَع إلّا الأميرُ مُتَرَبِّصًا لالْتِيَاثٍ طافَ به ، ولولا ذلك ، لكان فى أرض النصارى مُدَوِّخًا لها . والنصرانىُّ فى هذا كلِّه يقرب متعاطِياً ، لا يعمل حساب مَنْ يُغلَب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأْصِلَه السيفُ ؛ ولو لم يكن إلاّ يأْكُله الطريق وبُعْدُ المسافة .

ثمّ أرسَل ، على يدى ابن الأفْطَس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أقْبَلْتُ أُريدُ ملاقاتك ، وأنت تتربّص وتختبىْ لأصْل المدينة ! » فلم يكن بُدٌّ أن يُنْتَقَل إليـه ، ليكون الجيش على مقربةٍ منه . وتوَاعَدا اللِّقاء فى يومٍ سَمَّيَاهُ . ولم يكـن بَيْنَ المَحَلّتَيْن إلّا نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعْد ،* وحلّ الناس عن أنْفُسهم ؛ وكانت ٤٣(ب) خَيْرَةً أن لو رَكِبت الفِئَتَان ، لم تنفَصِل إلاّ عن فَقْدِ الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما تُوجِبُه الموافقَة للقتال .

فَفَجَأَهم عَسْـكَرُ الرومىّ ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنّما له ما ألْفَى فى تلك الساعة ، وألْقَى سُمَّهُ فى الرَّحْل ؛ ومات منهم خلائق ممّن لم يكن يقدر على نفسه . فـلم تقَعِ الصيحة على الجيش [إلّا] وركبوا فى

طَلَبِهم ؛ وهُمْ قد كَلُّوا وثَقَّلَهم السِّلاح مع بُعْد المسافة . فاقتفى المسلمون آثارهم ، وركبوهم بالسَّيْف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتَبَدَّدوا فى الطريق فمن بَيْن قتيلٍ ومَيتٍ مُثَقَّلٍ ضريعٍ . ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفِئَتَين ومناطَحتهما فى اللقاء ، لفُقِدَ من العَسْكَرَيْن الأكثر ، كالذى توجبه الرتبة ؛ لكنَّ الله لطيفٌ بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلاّ الأقلّ . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامةٍ ونصرٍ .

٥٠ — يوسُف بن تاشُفين يعقد مجلس رؤساء الأندلُس بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضَتْ غزْوَتهُ تلك، جَمَعنا فى مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلُس ، وأمرَنا بالاتِّفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأنّ النصارى لم تفترِصْنا إلاّ للذى كان من تَشَتُّتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكلُّ أنّ وصيّته مقبولةٌ وأنّ ظهوره ممّا يجمع الكلّ على الطاعة والجَرْىِ إلى الحقيقة .

وانتدب إليه ذلك الوقتَ أخونا صاحبُ مالَقة ، وقال من غير رويّةٍ : « إنّ أحوالى قد ضاقت بتعدّى أخى على بلادى وميراثِ جَدّى ! » يُشير بذلك أن يأخُذَ له الأمير بحقّه منّا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هَلْ لَقيتَ أخاك فى هذا المعنى ، وتراميتَ عليه قبل مُخاطَبتك لى ؟ » فلمّا قال له : « لا ! » ردّ عليه : « ما ينبغى لنا ذلك إلاّ برضاه ! » ولم يمكنّا فى ذلك الحين السكوت لِما يلزم من شُكْر الأمير ، و[كانت] فرْصةً لتبيان الحجّة ، وإقامة عذْرِنا ألاّ ينتَسِبَ إلينا بَعْدُ نَسَبَةٌ .

*فقلتُ له : « إنّ أمير المسلمين لم تكن غايتُه إلاّ ما هو بسَبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١) وهو لا يرضى أن ينقض ما أحْكَمَه آباؤُنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منّا أحدٌ حصَلَ على شيء بقُدْرَته ، إلاّ بما تهيّأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرّضى بمن تخيّرُوه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتّب ذلك ، ورأى أنّ مالقَةَ لا غنًى بها من غرْناطة ؛ فجعل أمْرَها مصروفاً إلينا من بعده ، كالذى كانت فى حياته . فأنقضتَ من الأمر ما أبرم ، وقطَعْتَنا ، وأردتَ الاستبداد على غير حقيقة ولا أصْلٍ . ولو رأى جدُّك فى ذلك صلاحاً ، لأعدّ لك لذلك عُدّةً تغنيك عنّا ! ولمّا تعدّيْتَ المرّة بعد المرّة ، سَعَيْنا فى صرف بعض الحال إلى ما رتّبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ فى ذلك الغاية التى تجِبُ بانحياشك ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتّب الشيخ ، فهو لنا بمنْزلَتِهِ : أمْرُهُ نافذٌ ! وإن رأى ما فُعِلَ من ذلك سداداً وصلاحاً ، فلأىِّ وجه نكلّفه ما لا يليق به ؟ » فلمّا تكلّمتُ بهذا ، وَقَعَتْ مُساكَتَةٌ . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ فى ذلك بَعْدَها مَجْلِسًا إلاّ فى سَفْرة لِبِّيط الملعونة .

وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطّلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلِمَتِنا ما لم يرَ وَجْهاً لإبقائنا فى الجزيرة . وأنّسَ الجميعَ ؛ ولم يتربّص فى البلاد ألاّ يُوحِشَ سَلاطِينَها ممّا يتوقّعونه من انحياش رعيّتهم إليه ؛ فكلُّ من شكا إليه ذلك الوقتَ من رعيّةٍ ، يقول له : « لم نأتِ لهذا ! والسلاطينُ أعلَمُ بما يصنعون فى بلادهم ! » حتى ازداد بذلك مَحَبّةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا ، وإليه استنامةً ومَيْلاً . ورجع الكلُّ إلى وَطَنه .

٥١ — عودة يوسُف بن تاشُفين إلى الأندلس .

حصار حِصْن لِيِّيط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أُشرب الرُّومُ من تلك الوقيعة خَوْفًا وانكِماشاً . ولم تزَل الحالُ صالحةً إلى سَفْرة لِيِّيط .

وإنَّ المُعْتَمِد بن عبَّاد ، لِمَا رأى من خِلاف ابن رَشيق عليه ، وأنَّه أراد أن يَضَعَ ابنَه الراضيَ بمُرْسِيَة عِوَضاً عن الجزيرة ، صار بنفسه إلى أمير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريه الطمأنينة ، ويحكم معه* ما شاء من ٤٤ (ب عَمَلٍ في مُرْسِيَة وغيرها . وعَظَّمَ له شأنَ لِيِّيط ، وأنَّه في قَلْب البَلَد ، وأن لا راحة للمسلمين إلّا بفَقْده ؛ وعاقَدَهُ على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله ، لِكَيْ يَتَهيَّأ سَلَاطِينُ الأَنْدَلُس حَرْبه بعُدَدِهم وأجناعِهم ؛ فيأمنوا مَنْ يُقْلِقُهم عنه .

وأتَتْنا كُتُبُ الأمير ، يأمُرنا عند جوازه ، بالاستعداد للقتال وما شاكَلَ ذلك . ففَعَلْنا ، وبادَرْنا ، رغبةً في الجهاد ، ومَحَبَّةً فيه ، وإيثاراً له ؛ وخَرَجْنا إليه ، ولقيناهُ في حَيِّزٍ من بَلَدنا ، بما يُطابِقُ مِثْلَه من الهدايا والتُّحَف . وأجْمَعْنا على المسير إلى لِيِّيط .

فنازَلْناه على أتمِّ ما يمكن من الرجال والعُدَد ، كلُّ رئيسٍ يقاتِلُهُ على حسب مجهوده ، وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه ؛ وهو قد امتلأ برعيَّة الجِهَة ، كلُّها من النصارى ، وأعدُّوا فيه ما يحتاج من كلِّ شيء ، لِقَلَّ مَنْ نَظَرَ على سَعَةٍ ؛ وهُمْ في ذلك يهدِّدون بمجيء ألْفُونْش ، ويريعون الحيلةَ بالتنْبير كلَّ ليلةٍ ؛ والقتالُ عليهم كلَّ يوم لا يفتر ، مع البُنْيان في المواضع

المُهِمَّة عليهم ، ونَصْبِ المَجانيق والعَرَّادات ، حتَّى لم يَبْقَ عَمَلٌ يُرامُ به افتراسُ المَعَاقِل إلّا وصُنِعَ . وأتَى ابن صُمَادِح بِفِيلٍ أقامَهُ ، وخرق به العادة : أصابَهُ من الحِصْن قَبَسُ نارٍ ، فأَحْرَقَهُ . وفى كلّ ذلك لا ينجح عَمَلٌ ، ولا تظهر فيه للمسلمين فُرْصَةٌ ، لِمَا شاء الله من اختلاف الكلِمة .

٥٢ — مُحاصَرة لِيِيط تصوّر فوضى ملوك الطوائف فى ذلك الحين

وكانت تلك سفرةً أخرج الله فيها أضْغَانَ سَلَاطِينِ الأنْدَلُس . ورعيَّتهم فى ذلك يأتون أفواجاً ، شاكين لِمَا وَجَدوا لمن أسندوا إليه : فالراضِى منهم يلتمس الزيادة ، والساخِطُ يرجو الانتقام ؛ وجعلوا فى شكاوِيهِم فُقَهاءَهُمْ وَسَائِطَ ، يقصدون نحوهم : منهم الفقيه ابن القُلَيْعِىّ ، قد صار خِباؤُه بتلك المَحلّة مَغْنَطِيساً لكلّ صادرٍ ووارِدٍ ، يَجِدُ بهم السبيلَ إلى الطَّلَب ، للقدَر الذى قدّره الله .

ورأى سَلاطِينُ الأنْدَلُس عنـد ذلك من تحامُق رعاياهم وامتناعهم من مَغارِم الإقطاع التى كانت عليهم ، مع احتياجهم إلى الإنفاق ، ما قلق به وساء الظنّ من أجْلـه : * جيشٌ يكلِّفونه كلّ عامٍ ، ومُجامَلاتٌ تلزم (١)٤٥ المُرابِطين كثيرةٌ ، وتُحَفٌ مُتَوالِيةٌ ، لو فرط منهـا فى شىء ، لانخرمَتْ عليهم الأحوال ؛ ثمّ رعايا تمتنع من تأدِيَة ما تقوم به الحالُ الموصوفة ؛ فلا حيلة إلّا بين صبرٍ يؤدى إلى ملامةٍ توجب عقوبةً ، أو امتناع يؤدى إلى استِئْصالٍ ، كالذى جرَى .

ونسمع فى هذا كلّه من أهل جهاتنا تَهدُّداً وعصياناً أنكرْناه ، لا تتمّ به تَملكةٌ ، ولا يتهيّأ معه قضاء حاجةٍ . ولقد كان القُلَيْعِيُّ المذكور فى تلك المَحَلّة يخاطِب إخوانَه بحَضْرَتنا ألاّ يعطونا شيئاً ، ويَعِدُهم بما كان ؛ فلمّا كان يأتيهم الحفزُ منّا ، يقعُدون بنا ، ونحنُ أحْوَجُ ما كُنّا إليه للإنفاق ، لا سيّما فى تلك المحلّة التى عُدّتُنا فيها الأقواتُ إلّا بالشراء كلّ يوم . فدخل علينا من ذلك ضَرَرٌ شنيعٌ .

وطالتْ تلك المَحَلّة الملعونة ؛ فكأنّما مِثْلَقٌ أبانَ الطيِّبَ من الخبيث ، وكشف العورات ؛ فلم يَزْدَد الرؤساء إلاّ تَوَحُّشاً ، ولا الرعيّة إلّا تَسَلُّطاً ، ولا الداخِلون على مِثْل هذه النصبة إلّا طمعاً ؛ وحُقّ لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم فى أسباب الغَرَق : فمن اغْتَرّ منهم طالَبَ صاحِبَه ، وهو المَطْلوب ، وشَغَلَه ذلك ممّا هو فى سبيله ؛ ومن ميّز ، انفرد ، لم يَجِد مُعِيناً حتّى تَوَغَّلَ فى اللجّة وأخذَتْه الحملة . وكانت مقدّمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسَعْدًا للمُرابِطين مُقتَبِلًا .

٥٣ — النزاع بين ابن عبّاد وبين ابن رَشِيق

وأتى ابنُ رَشِيق عند ذلك مُفْسِدًا بزَعْمه لِماَ عقده ابن عبّاد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للمُرابطين ، وسارَعَ إلى قضاء الحاجات . واصطنَعَ إلى الأمير سِير — أعزّه الله — وعوّل عليه ؛ فأكْرَمَه الإكرام الشنيع . وألْقَىٰ ابنُ عبّاد يَدَه فى قَرْور ، مُعَوِّلًا عليه فى القضيّة ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكْثِر على كلّ حال يغلب المُقِلّ ، وإن شفّ عليه باليسير . وأُعْطِيَ ابنُ رَشِيق الأمان ، وبُولِغَ له فى التأنيس ، حتى غرّه ذلك

وانبسط له ؛ وتاهَ على ابن عبّاد ، وأظهر مَعْصِيَتَه والانحياشَ منه ، قائماً فى ذلك بدعوة الأمير ومُسْنِداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخُطْبة بِمُرْسِيَة على اسْمِ أمير المسلمين دون ابن عبّاد .

والمُعْتَمِد ، *فى هذا كلّه ، يَرَى من الأمر ما يغيظه ويكربه ويتقطّع ٤٥(ب) منه حسرات ؛ وحُقَّ له ؛ فلم يَنَمْ عن القضيّة ؛ وأحْكَمَها مع الفُقَهاء ، واحتجَّ عليه بأحكام السُّنَّة ؛ وكان ممّن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْعِىّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يحلُّ به ! فقد شُوورْنا فى أمْره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فَعَلْنا به مِثْل ذلك ! » وكانت هـذه الكلمة ممّا أوْحَشَتْنا وغيّرت أنفُسَنا عليه ، مع تهدُّده تلك السفرةَ ، وضَرْبِهِ الأمثال ، وحِدَّةِ مَعانيه ، واستطالَتِه بلسانه ؛ وأميرُ المسلمين لا يشعر بشىء من ذلك ، ولا نقدر نحنُ نشكو به بلا بيِّنة ولا إقامة بُرْهان : فتكون له الحُجّةُ ، ونقَعَ نحنُ فى الخزى ، لا سيّما بما كان يَنْتَحِلُ من [أهل] العِلْم .

وإنّ أمير المسلمين ، لما رأى حالَ ابن عبّاد مع ابن رَشِيق ، واختلافَ ما بينهما ، أعمل فى ذلك عَقْلَه ، ودبّره برأيه ، وقال : « ما تنبغى لنا مُفاسَدةُ ابن عبّاد من أجْل ابن رَشِيق ، لاحتياجِنا إليه فيما نحنُ بسبيله ، ونحنُ لم نأمن أمْرَ الرُّومىّ . والأوْكَدُ علينا فى هذا الوقت مُداراةُ ابن عبّاد ، حتّى تُرِينا الأُمور وُجوهَها ! » فتعسّف على ابن رشيق فى الذى أظهر من الخِلاف على صاحبه ، وقال له : « ما كان يَجِبُ لك أن تُقَدِّمَ بدَعْوَتى القيامَ على رئيسك ، فتُوقِعَ بَيْنى وبَيْنه الشحناء ! » وقال فى نفسه : لم يفعل ذلك ابنُ رشيق إيثاراً لى ولا مَحَبّةً لجِهَتى ! أكثر من اضطرامِ

النار على صاحبِه وإشغالِه بى عن نفسه؛ ولا سيّما أنّ مَعُونته الرُّوم بلِيِّيط لم تَخْفَ على أحدٍ ؛ يعتَقِد أنّ ببقائها يثبُتُ فى مُرْسِيَة ! » فكان أبدًا يميرُهم ويقوِّيهم بما يعجزون عنه ، إبقاءً لرَمَقهم ، وخَوْفاً من الداخِلة عليه بفَقدِهم .

وصحَّ ذلك عند الأمير ، والمُعْتَمِدُ فى هذا كلِّه لا يَنَامُ عنه ، ويَسْتَفْتِى فيه الفُقَهاء ، لنفاقِه بعد دخوله فى البَيْعة له أوّلَ أخْذِهِ لمُرسِيَة . فاتَّفَقَتْ عليه الأسباب ، وصُنِعَ له مَجْلسٌ أفتَوْا فيــه بإزَاحَتِه عن المسلمين ، وإسلامِهِ لسُلْطانِه . فاستغاث عند ذلك* بالأمير ؛ فأجابَهُ : « إنّه لو كان لك ٤٦ (
عندى حقٌّ ، لوَهَبْتُهُ لك ، غيرَ أنها أحكام السُّنَّة ، لا أستطيعُ على إزاحتها عن مَرَاتِبها ! » وأمر بتَثقِيفهِ وإسْلامِهِ إلى المعتَمِد . وقُيِّد فى الحديد ، ورأى هواناً عظيماً . وأمَرَ المُعْتَمِد الراضى ابنَه أن ينزل فى مَحَلّته على المقام ؛ وكأنَّه لم يكن بالأمس . وأرْسَل الأمير إلى أهل مُرْسِيَة يأْمرُهم بالرجوع إلى صاحبِهم والطاعة له ؛ فخالف كلٌّ من فيها من ابنِه وقَرابتِه ، وثقَّفوا مدينتهم وجَفَوْا كلَّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائط كثيرةٍ تــكرّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شىء .

٥٤ — رفع الحصار عن لِيِّيط .

تفرُّق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخَت المَحَلَّة ، وطالَ مــكْثُها ، وملَّ الناسُ إلى أن ورد الخبرُ بقُدوم ألْفُونْش إليها ؛ فساءت الظنونُ من أجْل ذلك . ورأى أمير المسلمين أنّ الرجوعَ عنها والانصرافَ أوْلَى ، لطولِ مُكْثِ الناس وفشلِهم ، مع جمام القادِمين من الرُّوم ومع خِلاف مُرْسِيَة ، لئلا يسندوا إلى ميرها ومَرافِقِها

إذ أنّهم أرسلوا عن ألفُونْش وَقْتَ خِلافِهم . فأَخَذَ فى الانصراف .

ووَقَعَتْ بَيْنَ المُعْتَمِد والمُعْتَصِم ، صاحِبِ المَرِيَّة ، مُشاجَرات وتِباعات باردةٌ فى معاقل من نَظَر الجَبل وفى أمْرِ شُرْبةَ ، ما وقع فيه الشكوَى إلى الأمير . وانفَصلا على غير موافَقة : كلُّ ذلك من النحسة المَقْضِيَّة عليهما .

ومِثْلُ ذلك جَرَى لنا مع أخينا صاحِبِ مالَقَة ؛ وجعل يُكَرِّرُ فى ذلك النَّظَر الذى تَكَلَّمَ فيه سَفْرَةَ بطَلْيوْس ؛ وحَفَزَ فى ذلك بزَعمه ، وقال لى بقلّة دُرْبَتِه : « إنّما مَنع من ذلك السَّفْرةَ الأُولى ذِكْرِى له عند انفصال الأمير ، فلم يُدْرِكْ ولا أَدْرَكْنا ! والآن ، فلا بُدَّ من ذِكْرِه على سَعَةٍ ؛ وإلاّ ، فالحقُّ بَيْنى وبَيْنك ! » فلم نخَفْ لقوله ، ولا كابَرْتُه ، لِعلْمى أنَّ الأمير لا يحفل بشىء من هذا كلِّه . ولمَّا رأى أمير المسلمين كثرةَ طَلَبِه لنا ، أرْسَلَ إلينا قَرُورًا ، يقول لنا : « لا يَرِبْكَ شكوَى أخيك ؛ فإنَّ السلطان لا يَسَعُهُ أن يقول له : « اسْكُتْ عن طَلَبِك ! » ، ولا يعطيه عليك يدًا ، غَيْرَ أنّنا نُلَوِّى القِصَّةَ مَرْحَلةً * بعد مرحلة ، حتّى يَقَعَ ٤٦(ب) الانفصال . » فشكرتُهُ على ذلك . وقال : « إنَّ غرْناطة عليه آكَدُ من مالَقَة لاحتِياجِه إلى الاجتياز عليها فى غَزَوَاته ، وما أشبهَ ذلك من المَرافِق ؛ فتقدَّمْ أنت الآن ، وأعِدَّ جَهْدَك ما يجِبُ من ضيافة السلطان إذا [كان] خطورُه عليك ؛ وهو مارٌّ بك على غَرْنَاطة فى انصِرافه ! » فسرَّنى ذلك ، وتقدَّمْتُ إلى وادى آش ، وأعْدَدتُ له ما كان جَديراً به .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس ، مؤلِّف هذا الكتاب

(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لبِّيط : إجراءات دفاعيّة وسياسيّة

---

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبِّيط . مسلك قَرُور .

ولمّا وصلتُ وادى آش ، وقد ظهر إلىَّ قبلُ فى لبِّيط من جَفاء قَرُور وتخويفهِ لى ، وتهديدى على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافلٌ ، غير أنّنى حَسِبْتُ ذلك من قِبَلِهِ لِمَا رأيتُ من مكانته عنده . فأدْرَكنى من ذلك رُعْبٌ شديدٌ . وعايَنْتُ مع هذا ما حلَّ بابن رَشيق ، وسمِعتُ وعيدَ القُلَيْعِىِّ لى ، وجفاءه علىَّ ، وإزالة رقبتى عنه ، ما زادنى ذلك جَزَعاً ، لا سيَّما أنَّ الجَزْعَ والسوداء مُتَمَكِّنة من نفسى ، وأجِدُها فى طباعى ؛ كِدْتُ أن أموت غمًّا . ولم أرَ قطُّ قبل ذلك ذُلاًّ ولا كدراً ؛ فأنكرتُ الأمور كلَّها مع السلطان ، على حَسَبِ ما كان يُكْرِمُنى سَفْرَةَ بَطَلْيَوْس ، ورأيتُ ضدَّ ذلك كلِّه ؛ وقَرُورٌ يُناصِبُنى العداوة ، ويرسل المشاوَرين إلى هوانى ، ويأمُرُنى فى حال تلك الحرب بأوامر بارِدة ، يُرِيدُ بها إذلالى ، ويُظهر إلىَّ فيها التعنيف والتعسُّف .

فلمّا دخل نَظَرِى ، أرَاد إصْلاحَ ما أفسد معى . فعَلِمْتُ أنَّ ذلك ليس

لنيّةٍ صَلُحَتْ ، بل لحاجةٍ عَرَضَتْ ودَفَعَتْ إليها ضَرُورَةٌ من قِبَل الاجتياز علىّ . ولأجْلِ ذلك ، قال لى على لسان الأمير فى خَبَرِ أخى ما قال ؛ وتبيَّن لى أنه ، لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلُبْ قَرُورٌ مِنِّى عليها رشوةً . فإنّه مع ذلك لم يُخَلِّنى من مُؤْنَتِها ، وعمل لى حُجَّةً فى دَفعِ ضَرَرِ أخى عنى ، وأخَذَ مِنِّى عليها ألفَ دينارٍ مُرابِطِيَّةً ، لم أتَجَرَّأْ قطُّ على ذِكْرِها مدَّةَ حياته ، لئلاّ يطلُبَنى عند الأمير ؛ ثُمَّ لم تَنْفصِل ساعةٌ أن انصرَف ، وطَلَبَ لِرَبِيبه خمسمائة دينار ؛ فأعطيتُها له ، وكذلك كلّ ما يَطْلُبُ بإمْرةٍ وتَهدُّدٍ ، مع قلّة رَحمَته ورِفْقِه ، * وخشونة لفظه . ثمّ أعطيتُه فى غرناطة ألفَ دينار أُخْرَى ٤٧(١) باسْمِ كسوة خَيْلِه . وأمّا الذى صار إليه فى سَفْرة بَطَلْيَوْس ومُدّة كَوْنه على لِبِّيط مع الرُّسُل ، فأكْثَرُ من أن يُحصَى ؛ وهو فى ذلك كُلِّه لا يزداد إلاّ نفاراً واستكباراً . ومثل هذه الواسطة تُفْسِدُ على الرئيس كثيراً ، وتُبغض إليه جماعةً .

[أرسل فىّ] أميرُ المسلمين ، وأنا بمِكْناسَة ؛ فسألنى عمّا صار إلى قرُور من قِبَلى ، فروَيتُ الأمرَ بأحْزَم ما يمكن ، وقلتُ فى نفسى : « إن أعْلَمْتُه بذلك ، وهو على حال التمكين عنده ، فرُبّما أخرجهُ كتابى عليه . وتقرّعه به ؛ ثمّ استقرّهُ على مَرْتَبَتِه ؛ فيكون حتْفِى على يدَيه ؛ ولو أنّى نأمَن مَكْره ، لأعْلَمْتُه بالحال ؛ أوْ رُبّما يَقَع الكتابُ إلى يد قَرُور من غَير تعمُّد ، والغرَر لا يدخله إلاّ أهْوَج ؛ وكثيرٌ من الحقّ يجبُ ترْكُه ، [وفيه فائدةٌ] بصاحبه ؛ فلم يَسَعنى أن أقولَ فى جوابى للسلطان إنّه لم يَصِرْ إلىّ [بغير رشوة] ؛ فيُكذِّبُنى ؛ إذ كان يعلم بلا شكّ أننا لم نُخْلِهِ من ذلك . . . . . . الدفع التى

أعلمنى رُسُلى . وصَحَّ عندى أنَّ قَرُوراً. . . . . حيث يصدِّقُنى ، ولا يقع قَرور عنده فى . . . . (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتخاذُل ابن القُلَيْعىّ

[أمَّا أخونا تَميمٌ، صاحِبُ مالَقة،]* فإنه أرْسَلَ إلى القاضى ابن سَهْل خمسين ٤٧ (ب مِثْقالاً ، يستعطفه على القيـام علينا بالحُجَّة مَعَهُ فردَّها إليه ابنُ سَهْل المذكور ، وتـنَزَّهَ عن ذلك .

وقال لى ابنُ القُلَيْعىّ : « هذا وقتُ اقتراضك لهـذا الرجُل ، بأن تكـتُبَ إليه ، وتَعِدَه بالقضاء عند انصرافك ، وهو يسمح فى قصَّة أخيك ، على أن تجعلنى معه فى أحكامه . فإذا ألْصَقْتَنى به ، رَأيتَ عجائبَ مِنْ تأتِّى الأُمور على مرغوبك عند المُرابِطين وفى بلادك ؛ فإنَّك، لو شئْتَ أن تأْخُذَ من أحَدٍ دِرْهَماً بغير الناموس ، لَسَمُجَ عند الناس ؛ وإذا أخذتَ ألفاً على وَجْه الحقِّ ، حلَّ لك أخْذُهُ ، ولم يستَبْشِعْهُ أحَدٌ . ولا أجِدُ أحَداً [ينفع لك] مثل هذا الرجل ! » ولم يُبارِحْنى حتَّى دفعتُ إليه بخطِّ يدى رُقْـعَةً تتضمَّن له القضاء ، وما يترتَّب له عليه من مُسانَهَةٍ ومُشاهَرةٍ. ورأيتُ إجابته إلى ذلك صلاحاً بى وخطأً بأخى ، ولِماَ تُوجِبُه السياسة من مسايَرته ومُداراته على تلك الحال . [وكنتُ أظُنُّ أنَّه] قد حرص على الأمر والنَّهْى ، ولا أراه يَبْتَدِئُ إلاَّ بى ، مالم . . . . وفى هذا فسادُ مُلْـكى وخَلْعى ، ويقدِّر على ذلك . . . .(٢)

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .
(٢) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

« . . . . * وبك واثقٌ غير أنَّك قد جَعَلْتَ لى بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أُريد أن تعلمنى مِمَّن يُقْبَض ! » فإنِّى لا أكاد أن أُصَدِّقه ، لاحتياجى إلى ما تَمُنُ بسبيله من النفقات ، وإقامةِ هذا الجيش كلَّ عام .

فجعل يُسَمِّى لى أقواماً لا يعشرهم فى الخير والفضل ، وقدَّم ذِكْرَ صاحبِ الأحْبَاس ابنِ سَلْمُون ، وتسبَّب إليه برسم الأحْبَاس ، وغَيْرهم ممَّن لم يَبْلَ منهم إلَّا الطاعة والنصيحة . فقلتُ فى نفسى : « اللّٰه أكبر ! ما قصد هذا إلَّا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، إلَّا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتمكَّن بما شاء ، ولا نَجِد صديقاً نستريح إليه ، مع ما تبيَّن من إنْفاسِهِ ، وحدَّةِ مقاطِعِه ، وأغْراضِه القاتِلة ! »

والعَيْن تُبْصُر فى عَيْنَىْ مُحَدِّثِها إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعادِيها

وجعل يَطْلُب بنى السُّنَيْدىّ والـكَـتَبَة وغَيْرَهم ممَّن قد اصطَنَعْناه [ونأمَن] أمانته ؛ ثمَّ قال لى : « كلُّ ما رأيتَ من السلطان فى لِيِّيط . . . . كان متفلِّتاً أن يجعل لك مَجْلِساً ولغَيْرك تسة . . . . وأنت على سَعَةٍ ، وأفعل شيئاً تبطل به حجَّتُهُ [عليك] . . . . (١)

. . . . . . * كُنْتم عليها من التَّرَقُّب والإنذار بالعيال نفْثة حاقد . » ٤٨ (ب)

وكان هذا القُلَيْعىُّ مخمولاً فى أيَّام الشيخ جدِّنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدَعَه فى المدينة ، ويأمره بسكْنَى ضَيْعَتِهِ ، لما كان يَرَى من شرِّه وقدرته على الدواخِل . فلما ظهر أمر المُرابِطين ، اصطنع إلى مُؤَمَّل وغَيْرِه ، ووُسِمَ لى بسِمَة الخير والقدرة على الكلام ، وأنَّه لا أحَدٌ يقدر على استمالةِ المُرابِطين على ما هو عليه . فوجَّهْتُه رسولاً ، وهو فى ذلك يعمل لنفسه ،

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

ويسعى فى هلاكى فى الباطن ، وينفث بذلك ، على ماصحَّ عندى ، ويقول : « والله ! لأُبْلِغَنَّ حَفِيدَ باديس الطينةَ السوداء ، ولأُشَوِّقه إلى دِرْهَمٍ ينفقه، [وذلك] على صنيع جدِّه بى وبغيرى ! »

وأخْبَرَنى أبو بكر بن مُسَكَّن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين فى أوّل سَفَرِهِ معه ، ولقى فى الطريق خَبَر دخوله [الأندَلُس] ، وقال : « هذا على رَغْم أُنوف الفَسَقة سلاطين الأندلُس ! » فقال أبو بكر بن مُسَكَّن : « وتُخَالِطُ معهم سُلْطَانَك ؟ » فقال : « نَعَم ! وهو المُقَدَّم إن شاء الله ! . . . . مات لتَنَفُّذ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه . . . . تكلَّمَ ابن سَهْل إلى الأمير وقال له : « أنتَ على . . . .[1]

« . . . .* نحن بحال لا يرضى عنّا فيه لا رعيَّةٌ ولا جندٌ ؛ وفى هذا (٤٩ الفسادُ والقطَعُ . فقال لى القُلَيْعِيُّ : « إن تُعِنْ عليك الجندَ ، استَنْجَدْتَ من العِدوة من يغنيك عنهم . وَدَعْنى ورَأْيِى بعد إشراكى مع ابن سَهْل ، ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرأيتُ أمْراً مُعَمًّى ومستأْثراً به دونى ، مع ما كان ينطق به لسانُه أبداً من الوعيد ، والتَّهْـديد عند أصْدِقائه ومَنْ ينقل ذلك إلىَّ عنه أنَّه يقول : « واللهِ لا أُبْلِغَنَّ من حَفيد باديس ما كان يبلغ جدُّه مِنِّى ومن غيرى ! » يسرح بذلك لقلّة تحفُّظه وإرساله لسانه ، ولاحْتِقاره لنا واحتياجِنا إليه . فزاد ذلك الجُنْدَ قَلقاً ، وهمُّوا بالانتقال مُجْتَمِعين على ذلك .

فلمّا بصرتُ هذه الحالة ، قلتُ فى نفسى : « أنا بسبيل ، إن استَفْسَدتُ إلى الجنْد ، وهم جَناحَاىَ ، أن بقيتُ وحدى مع يَرُومُ خَلْعى . فالأَوْلَى على

(١) خرم نحو نصف صفحة فى الأصل .

كلَّ حال اطِّباؤُهم ، واستِصْلاحُ ما فسد من أنفُسهم ؛ وإسْخاطُ القُلَيْعيِّ وحْدَهُ واجِبٌ فى رِضَى عامَّة عبيدى وأجنادى . » فجمَعْتُهم بحضره، وأعْلَمْتُهم أنِّى راجِعٌ عن ذلك المذهب ، ورادٌّ عليهم إنْزالاتِهم . فقام الكلُّ على القُلَيْعيِّ ، وهمُّوا باختِطافِهِ من بَيْن يدىَّ لولا إمساكى لهم ؛ وخشيتُ مع هذا عليه أن يقتلوه ، فتكون شهرةً وعقوقًا ، وينجرَّ الأمر إلى غير المحمود . فقُلْتُ لهم : « أنا أكفيكم أمْرَه ! » وأمَرْتُ بثقافه على أجمل الوجوه فى بَيْتٍ بقرب من القصر ؛ وكان تحت بِرٍّ وإكرام ، وأنا فى ذلك أعْتَذِرُ إليه من قيام العامَّة ، وأعِدُهُ بالانطلاق عند إطفاء النائرة ، كالذى صنَعْتُ .

فلمَّا توطَّدت الأحوال وقرَّت قرارَها ، أمَرْتُ بإخْراجه ، وأنْهَيْتُ إليه أن يكفَّ لسانَه ، ويَدَعَ فُضولَ القَوْل والعَمَل إلَّا فيما يَعْنِيه ويُشاكِل طريقته . فقال لى : « نَعَم ! أنَا ألتزِم الرَّوابِطَ ، وأسْلُكُ سبيلَ العافية إن شاء الله ! » فلم يَكُنْ إلَّا أن انطلق ، وطار* إلى أمير المسلمين بالشكوى ، ٤٩ (ب)
وزادَ فى الطين بَلَّة . فقال لى الجُنْد : « لو أنَّك أمْسَكْتَه ، لم يُهيِّجْ عليك النار ! وستَذُمُّ عاقِبةَ انطِلاقِهِ ! »

٥٧ — سيرة الجند مع الأمير فى ذلك الحين . تشييد الحصون

وأرانى جميعُ الجُند من التأنِّى والانقياد والمُناصَحة ما حسبتُ أنَّهم يُقاتِلون عنِّى الدَّجَّال . فسروتُ بهذه الحالة ، واطمأنَنْتُ إليها ، وقلتُ : « هؤلاء أُمَّةٌ لا يَرَوْن بى بديلاً لإنْصاقى لهم ورَغْدِ عَيْشهم معى ؛ وهُمْ قد رأوا جُنْدَ العِدْوة ، وأنَّ أقلَّ عَبْدٍ لهم أغْنَى من غيرهم ، وأصْلَحُ حالةً . فلا يمكن استبدال الأدْنَى بالأفْضَل ! » ثُمَّ عَلِمْتُ قياسَ للمَغارِبة أهلِ

الحصون ، وعَلِمتُ ما هم فيه من الخير ؛ ولم نَظُنَّ قطُّ أنَّ أحَدَهم يبيع أيّامى . وإنَّما وَجَسَتْ نفسى من الرعيَّة لطمعهم فى حطِّ المَغَارِم ، وللذى شاع من الزكاة والعُشْر عند المُرابطين . فقلتُ : « إنَّ بهذه العِقْبان التى على رؤوسها ، لا تجترئ على شىء ! وإذا تثقَّفَت المَعاقِل ، كان أمْرُ الرعيَّة يسيرًا . وكَمْ عَسَى يستطيع الجَيْشُ القادِمُ على أن يَعُمَّ جميعَ البلاد ؟ ومُحاولةُ مَعقَلٍ واحِدٍ منها تطول ، وتَحْدث فى خلافه أحْوالٌ . »

فصرفتُ وَجْهَ اهْتِبالى إلى تشييد الحصون وبُنْيانِها ، وإعدادِ ما يُصْلحها لإنحصارٍ إن كان . فلم أدَعْ وَجْهًا من وجوهِ الحزم إلّا وفعلتُهُ : من إقامة الأجباب ، وإعداد المَطاحِنِ ، وأنواعِ العُدَد من التِّراس والنَّبل والرَّعادات ، وجميع الأقوات ؛ وقَلَعْتُها من القُرَى ؛ وأعْدَدتُ لكلِّ حِصْنٍ قُوتَهُ لأزْيَدَ من العام . وفعلتُ أكثرَ من ذلك فى المدينة حَضْرَتى ، ما أسْتَغْنِى عن تحديده لاشتهارِه .

وقلتُ : « ليس من المُمْكنِ أن يتعرَّض أميرُ المسلمين أحَداً من سلاطين الأنْدَلُس إلّا بعد إبْرامه لأمْرِ الرُّومىِّ ! ولا بُدَّ عند مُناظَرَتِهم من فَرَجٍ : إن غلب المُرَابِطُ ، لم يَفُتْنا الدخولُ فى طاعته ، ولا أسْدَيْنا إليه ما تُذَمُّ عاقِبَتُهُ أكثر من الاحتياط على بلادنا والمُداراة عليها ؛ « فَلاَ الحِمارُ سَقَط ، ولا الزِّقُّ انْخَرَق ! » نَحْنُ مُدْرِكُون : لا يَنْبَغِى تقديم يَدٍ سيِّئَةٍ إليهم .* وإن غلب الرومىُّ ، كنَّا منه على حَذَرٍ ، وقد نفعنا (٥٠ ما أبْرَمْناهُ من هذا البُنيان والتشييد ، واتّخاذ العُدَد ؛ فَسَيكون بذلك للمسلمين حِمايةٌ وانجرارٌ إلى غَدٍ ، إذ البُنيان من المُرابِط لا ينفع ! »

ولذلك أعْدَدْنا المُنَكَّبَ : إن تَغَلَّبَ الرُّومىُّ ، فأكون على البحر متَّصِلًا

بالمسلمين ، نُدافِع منها جُهْدَنا ، إلى أن نُضْطَرَّ إلى الجواز وطَلَب السلامة بحُشاشة أنفُسنا ونُتَفٍ من أموالنا . فشيَّدتُها لذلك ، كالذى شهر عنَّا .

والجاهِلُ لا يدرى ما أوَّلُ هذا ولا آخِره ، إلَّا ويخبط [خَبْط] عَشْواء : فكلٌّ يتكلَّم على شهوته . ولم نَعْتَقِدْ فى أمر المُرابِطين — يعلم اللهُ ذلك — صَدَّهم عن جِهادٍ ، ولا تَظافُراً مع أحَدٍ عليهم ، ولا أرَدتُ بهم شيئاً من مساءةٍ نُسِبَتْ إلينا ، أكثَرَ من أنِّى جَزِعْتُ الجزع الشديد ممَّا تقدَّم ذِكْرُهُ من تلك المعانى التى أبْصَرْتُها ، وما جرى على ابن رَشِيق ، مع هَلَعِى لذلك ، وتمكُّن السوداء مِنِّى ، وسوء الظنّ مع معايَنة اليقين . فقلت : « ما دام تَتَلقَّى الفِئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة : فتَحْصِينُها أوْلَى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فمتى دعانى أمير المسلمين إلى إعْطاءِ عسكرٍ أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك ممَّا يَجِبُ من مُشارَكتِهِ وإنجادِهِ ، لم نتأخَّرْ عنه ، فتقيمَ على نفسى الحُجَّة ؛ وتجلب إلىَّ المَضَرَّة إن فعلتُ غَيْرَه ؛ غَيْرَ أنِّى ، متى دعانى إلى الخروج إليه بنفسى ، نَعْتذِر وندافع ذلك جهدى . فعسى [أن] يتركنى ويقبل عذْرى ؛ ومتى لم يقبل لى عذْراً ، نعلم أنه يُريد إخراجَ أمْرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً علىَّ متَعَسِّفٌ لكلام الأعداء والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهْجَتِى والتحصين على نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخْراجى من السلاطين ؛ وَلِى مَعَهُ اللهُ ، إذا لم أنوِ به سوءا ، ولا واسَيْتُ عليه أحَداً ، ولا صَدَدْتُه عن جِهاده . فبأىِّ شىء يتَسَبَّب إلىَّ إلَّا إن شاء التذنيب مع القدرة ؟ فلا طاقة لى بذلك،* كالذى صنَعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعَدَّ ٥٠ (ب)
لكلامه جواباً ؛ فلمَّا خَرجَ إلى الثقاف ، سُئِلَ عن إعدادِه الجواب وزَعْمِه

أنَّ ذلك نافعٌ له ؛ فقال : « لـكلِّ كلمةٍ وجدتُ جواباً إلّا لقوْلِهِ : « خُذُوهُ ! » فلم أدْرِ ما أقول فيها ؛ فوكَّلْتُ الأمر إلى الأقدار ! »

وكُنْتُ ، أيّامى تلك ، بَيْنَ الرجاء والخوْف ، إلّا أنِّى واثِقٌ بكلِّ من معى من رجالى وخَدَمَتى أنّهم لا يغدرونى . فقَوِيَتْ نفسى لذلك بَعْضَ القوّة ، مع ما كُنْتُ أعْدَدْتُهُ .

٥٨ — معاقدة عبد الله مع ألبَرهانِش وكيل ألْفونْشُ السادس

ولما حان انصرافُنا من لِيِّيط ، كلَّمْنا أمير المسلمين فى عَسْكَرٍ يَتْرُكه عندنا بالأنْدَلُس ، خَوْفاً من الرُّومىّ أن يَكْلَبَ علينا ، ويَطْلُبنا بثأْر تلك السفرة وغيرها ؛ فلا يكون عندنا بمن نُدافعُ ؛ فقال : « أصْلِحُوا نيّاتكم ، تُكْفَوا عَدُوَّكم ! » ولم يعطِنا عسكراً . فأيْقَنَّا أنّ الرُّومىّ لا يَدَعُنا على هذه الفُرْصة دون طَلَبٍ . كالذى كان . فلم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال ، مُتَجَنِّياً على من خالَفَه أن يُفسد بلادَه . وعاقَدَ صاحِبَ سَرَقُسْطة ومن يَليهِ من الشَّرْق ؛ فدافَعوا شرَّه ودفعوا إليه ما سلف له عندهم .

وبلغنى الخبر ، وزاد ذلك فى غمِّى ، وعَلِمتُ أنِّى فيه كَراكِبِ الأسَدِ : إن أسْلَمْتُ البَلَد ، ولا عَسْكَرَ عندى ، هُتِكَ ، ولم ينجبر لى فيه دِرْهَمٌ ، ولم أُعْذَرْ مع هذا ، ولا يقرُّ المُطالبُ بأن يقول عنِّى إنِّى ضَيَّعْتُه أو سُقْتُ إليه العدوَّ ، كالذى رأيتُ وسمعتُ قَبْلُ عن ابن رَشِيق — وخسارةُ بَلَدى زائدةٌ — ولا نقيم أوَداً بذلك لـكلِّ ما نُحاوِلُه من الغزو كلَّ عام وضيافات المُرابِطين ؛ فتجتمع علىّ الخسارة من وَجْهَيْن . وإن واسيتُ القَوْمَ

وأصْلَحْتُ على نفسى ، قِيلَ : « قد عاقَدَ الرُّومِىَّ ! » ويُشَنِّعُ علىَّ ما لم أفْعَلْ ، كالذى كان . فلم أنجُ ممَّا توَقَّعتُ للقَدَرِ المُفْضِى .

وكان ألْبَرْهَانِش زَعِيمَ جِهَات غَرْنَاطَة والمَرِيَّة ؛ وكان ألفُونْش قد وكَّلَه أمْرَ الجِهَتَيْن ،* من إنفادِ أمْرِه فيها لفسادٍ على مَنْ تعذَّر له عِندَه ٥١ (١) شىءٌ ، ولقَبْضِ مالٍ وتوَسُّطِ ما ينفعه فيها . فأرسل إلىَّ أوَّلاً عن نفسه ، يُنْذِر بدخول وادى آش ، وأنَّه لا يَرُدُّه عن ذلك إلاَّ الفِداء لها . فقلتُ فى نفسى : « ومع مَنْ أتَّقِى رَأْيَهُ ؟ أىُّ مقدرةٍ بنا على مُدافعَته ؟ لا عَسْكرٌ تُرِكَ لنا نُدافعُ به ! فكَمْ يأْخُذ فى هذه النَّصْبة من أسْرَى المسلمين ! وكَمْ يفسد فيها من الأموال ! ما لا يعشر قيمة ما يُعطَى كالذى عَهَدْناهُ منهُم ! اللَّهُمَّ لو كان ، ونَفَّذَ ذلك ، ويبلغنا عن أسْرَى المسلمين عندهم ! ألَيسَ من الصلاح إفداؤهم[1] بما عزَّ ؛ فنَحْنُ جُدَراء أن نفعل ذلك قبل رِحْلَتهم دون فسادٍ فى البلد ! ونحْتَسِب ذلك لله تعالى ، وهو العالمُ بالضمائر ! فإنَّا لو فعَلْنا ذلك أشَرًا وبَطَرًا ، وعندنا بمن نُدافِع ، لكان فيه الحُجَّة علينا ! »

فاجتمع رأيُنا على إرضائه باليَسِير ، مع مُعاقَدَتِه ألَّا يقرب لنا بلداً بعد أخْذ هذه الدفعة ، فارتبط إلى ذلك . فلما حصلَتْ عنده ، قال : « ها أنا قد صَلُحَ جانبى ! والأوْكَدُ عليكم أمْرُ ألفونْش ، الذى هو على الحرَكة عليكم وإلى غيركم ؛ فمن أنْصَفَهُ نجا ، ومن حاد عنه ، فسَلِّطْنى عليه ! إنَّما أنا عَبْدُه ، لا بُدَّ من إتيان مرغوبه ، والوقوف عند أمره . ولا ينفعكم هذا الذى أعطيتُمونى إن خالَفْتُموهُ . وليس بنافِعٍ إلَّا فيما يخُصُّنى دون رئيسى

(١) أصل : « أفداهم » .

إن حدَّ لى ضِدَّه ! » فعَلِمنا أنَّ قوله حقٌّ يقبله العقل . فقُلْنا : « لا يمكن أن نوَجِّهَ نَحْنُ إليه ونبـدأه ؛ فنوُقِظه لأَكْلِنا ! ولـكِنْ ، متى أرْسلَ يأْذن بذلك ، سنَعْتَذِرُ إليه ؛ فعسى [أن] يقبل رَغْبَتَنا ، ولم نفتح له باباً فى إعطاء شىء إلاَّ يزيد طمعُه ! أَكثِرُ من تَلَوِّى القول ، عسى من هنا إلى ذلك الوقت ، [أن] يأْتى عَسكَرٌ يُـكسَرُ به ؛ فلا يعبأُ بقَوْلهِ . وإن لم يأْتِ أحَدٌ ، لم نـكُنْ نُقَدِّم إليه قبيحاً ، فنشق عند ذلك . »

ودافَعَنا الأمْرُ عند ألبَرْهَانِش ، وأنّه لا سبيل إلى أن نعطيه[1] شيئاً ، * واعتذَرْنا بالمُرابِطين وغير ذلك ممَّا لزمنا من النفقات عليهم . فسَكتَ عنّا ٥١ (ب) الخِنْزِيرُ ، وأرسل إلى صاحِبِهِ ، كالذى يلزمه من التخدُّم له ، وسأله أن يوجِّه لى رسولاً يُطلُب جِزْيَته ؛ فإن انصرف دون شىء ، كان هو المُنْتَقِمَ من جِهاتِها .

٥٩ — التزام عبد الله على أداء الجزية لألْفُونْش السادس وعقد اتِّفاق جديد معه

وتأَهَّبَ ألْفُونْش إلى الحرَكة ، وقدَّم رسولَه بين يدى حرَكته . فلمّا صحَّت عندنا ، أتانا منها المُقيمُ المُقعِدُ ، ولم نَدْرِ أين الخيرة : إن كان فى رَفْضِ البلد وترْكِهِ ليَعْبَثَ فيه ، أو مُدارَاتِهِ بما تيسَّر . ووقعت من ذلك هَيْبَةٌ فى الناس ورجَّةٌ ، حتّى بلغ من الجزع أنّنا لم نُصَدِّق أن يقبل مِنّا المالَ دون المُلازَمة لنا ، طالباً لإخْذَةِ لِيِّيط ومُعاقدة المُرابِطين .

وطَمِعْنا أن يقنعَ رسولُه باليسير ؛ فقال لى : « لم آتِ عن ذلك كلِّه ،

---

(١) الأصل ، « نعطوه » .

إلّا أن تعطيه ما فاتَهُ عنك من جِزْية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً ! لا يُنقص منها شىء ؛ وإلّا ، فما هو مُقْبِلٌ ! والذى تقدر عليه ، فأصْنَعْ ! » فرَوَّيتُ الأمرَ فى نفسى ، ورأيتُ أن التعاطِىَ حماقةٌ لا تفيد ، وقُلتُ : « إن أخذتُ هـذه من الرعيّة ، ضجَّتْ وشَـكَتْ ، ويكون مُقدَّمَتَها بمرَّوكُش[1] شاكِينَ ، يقولون : « أخَذَ أموالَنا وأعطاها للنصارى ! » ولـكِنْ لهذا الوقت يحتاج الإنسانُ ما ادَّخَرَ ليَصُونَ به بَلَدَه وعِرْضَه . وأنا جَدِيرٌ أن أعطى ذلك من بيت مالى ، بحَيْثُ يسلم البَلَدُ ، وبحَيْثُ تشكر الرعيّة بمدافَعةِ عدوِّها دون تكليفها شيئاً ، ولا تقَع الشُّنْعة ! » ففعلتُ ذلك ، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفاً ، لم أرْزأْ أحَداً فيها دِرْهَماً .

ورأيتُ مع ذلك أن أجَدِّدَ معه عَقْداً ألّا يعترض لى بَلَداً ، ولا يغدرنى بعدها ، خوْفاً أن يَقْتَلِب علىّ ؛ فأجاب إلى العَقْد . وقُلْتُ فى نفسى : « إذ لا بُدَّ من دَفْعِها ، فبالتقْدِ أوْلَى . فإن حُوِّجْنا إليه ، وجَدْناهُ ، ولم يضرَّ ؛ وإن اُسْتُغْنِىَ عنه ، كان مكانَه سُمْرُ القَنَى والبيض الرقاق ، إن تدارَكَنا* الله بعسكرٍ يدفعه ؛ والحَرْبُ خُدْعَةٌ ! » وإذا لم تَغلِبْ ، ٥٢(ب) فأخلِبْ ! »

فأجاب إلى تلك المُعاقَدة ، حِرْصاً على أخْذِ المال ، ونَحْنُ لا نشكُّ أنّه يغدر ، كالخاطِر لنفسه للضَّرُورة التى لا سبيل إلى سِوَاها . وقال لى عند ذلك رسولُه : « يقول لك ألْفُونْشُ : « إن كُنْتَ تُرِيد تُخَلِّط مع هذه

(١) كذا فى الأصل ، عوض « مراكش » ؛ وليس بتصحيف ، إذ عبارة « مروكش » كانت تستعمل دون غيرها أيام المرابطين مؤسسى هذه المدينة ؛ وهى التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة « مراكش » ؛ واسمها بالأسبانية إلى اليوم Marruecos .

للمُعاقَدة استعانةً به على شيء من بلادك التى عند ابن عَبَّاد ، فهو يجدُ لك فيها فى وجهته هذه . » فأجَبْتُهُ : « إنِّى لا أُعينُ على مُسْلِمٍ أحَدًا ! وإنَّ الذى دعانى إلى هذه المُعاقدة المُدافَعَةُ على بَلَدى وأهْلِ مِلَّتى . فإنْ وَفَّيْتُمْ بذلك ، فهو المُرادُ الذى إليه قَصَدْنا . » وكان من نيَّته أن يخلِّط الفِتْنة بَيْننا وبَيْن ابن عَبَّاد ، ليَجِدَ بذلك السبيلَ إلى بلاده ، ويقوى عليها بأموالنا ، ويتسبَّب إلى طَلَبٍ كَثيرٍ من أموالنا ، إذ كانتْ تلك الثلاثون ألفاً على وَجْه الدَّيْن للمُسالمة فقط ، وإنَّما أراد استئنافَ عَمَلٍ .

وكان مع هذا لا يَثِقُ بِقَوْلِنا[1] ، ويحسب ذلك منَّا خُدْعةً . وقُلْنا له : « إنَّا مُغرَّرُونَ فى هذه الفعلة مَعَكَ ، وستُدْرِكُنا تباعاتُها عند المُرابِطين ، ونُطالب بذلك ! » فقال ، تسهيلاً لأَخْذ ماله : « متى أدْرَكَكم فى ذلك منه طَلَبٌ ، فعَلَيَّ الذبُّ عن مدينتكم . » فأجَبْناه : « بل ، هو يرى عذرنا ؛ وقبولُه وعطْفُهُ أرْجَى عندنا من معونتكم . » .

فانفَصَلَت الحال على ذلك ، وقال [لى رَسُولُه] : « لا بُدَّ له من تدويخ سائر البلاد من نَظَر ابن عَبَّاد وغيره ، إن لم يعْطِهِ ! » فقُلْتُ : « هذا أمْرٌ لا يسألنا الله عنه يوم القيامة ! كلُّ أحَدٍ مسؤولٌ عن رعيَّته ! نَحْنُ قد احْتَلْنا على من قلَّدَنا الله أمْرَه ، وفَدَيْنا أرواحَهم وأموالَهم ! ومَن له حاجةٌ من سائرِ السلاطين يُقابِل أمْرَكم حَسَبَ مقدرته ، إن شاء بِفِداء أو قِتالٍ . لا نتكلَّم نَحْنُ فى شيء من هذا ، ولا ينبغى لنا ؛ ولا أنْتُم واقِعون تحت أوامرنا ، فنَهاكُمْ عن *ذلك . ونَحْنُ لم نتخلَّص من ٥٢(ب)
التحصين على ما يخصُّنا إلَّا بعد كَدٍّ ؛ وما كَدُّنا ، فشأْنكُمْ ! وأنا

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

بَرِئ ، لا أَغْمِسُ فى ذلك يداً ولا لساناً . »

ولم أجِد وَجْهاً نرجو به بعضَ الدفاع عن إخواننا المسلمين أكْثَر من مُخَاطَبة المُعْتَمِد ، نُعلمه بجليَّة حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاء بلاده ، ونُنْذِره بذلك ، لِكَيْ يقلع ، ويدَّرِع الحزم ، ويُقَدِّم للأمر أُهْبَته .

٦٠ — تهديد يوسف بن تاشُفِين إلى عبد الله

عبد الله يبرِّر مسلكه

ثمَّ خاطَبْنا أميرَ المسلمين ، ننصُّ عليه جميع ما وقَعَ وما دَفَعَت الضَّرُورة إليه ، وأنَّ الحاضرَ أبصَر من الغائب ، ولو الحال يقتضى بمَطْلِها ، ولو بمِقدار وصولِ الخطاب بمشورته سلامةً للمسلمين ، لم أُقَدِّمْ شيئاً فى ذلك ولا أُخَرْتُه إلَّا عن رأيه ، كالذى يلزم ؛ غَيْرَ أنَّ الخفر كان أشدَّ ، لم أرَ التغريرَ بالمسلمين ، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرَكٌ بحول الله على يديه . ولم نشكَّ فى أنَّ الجواب يَرِدُنا بالشكر على ما نَظَرْناهُ وسَدَّدْناهُ ، لا سيَّما إذ كان الفداء من عندى ولا أُكَلِّف فيها مُسْلِماً دِرْهماً . فوردنى جَوَابُه مع ما أَمْلَيَتْ نفسُه من الطَّلَب لى ، وصوَّرتْ عنده الأُمور على غير حقائقها ، بما زاد فى جزعى ، يقول : « أمَّا مُدَاهَنَتُك وقَوْلُك الباطِل ، قد عَلِمْناهُ ! وسنعلم عن قريب كيف ترضَى الرعيَّةُ ، وما تَصْنَعُ إذ زَعَمْتَ أنَّك نظرتَ لها . ولا تُسَوِّف : فإنَّ هذا قريبٌ غَيْرُ بعيد ! »

فلم أَقْنَطْ مع هذا ، وقُلْتُ ، عند الحقائق وتِبْيَانِ ما وقع ، على لسانِ رَسولٍ : « يزيلُ عن باله كلام الأعادى ! وهذا من بَغْى القَلَنيعيِّ وأبى بكر بن مُسَكَّن ! فإنَّهم لا ينقلون إلا على شهواتهم ! » وكان

أبو بكر بن مُسَكَّن قد بلغ من طغيانه عليَّ ، وسَبِّهِ لى ، ورَجائه[1] فى أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قِرْنى أو أَكْثَرَ ؛ فإنَّه انتمَى إلى بنى زِيرِى ، وجعل يهذى بذلك ويفتخر به ، لا يَرَى لأَحَدٍ عليه فضلًا ، ويسعى فى نقض ما نبرم من أحوال الدولة ما لا يتمُّ معه مُلْكٌ ولا أمْرٌ . فجعلتُ الذنب فيه سَوَاءً كما فى* القُلَيْعِىِّ ، إذ مقالتُه لا تطفى ٥٣(١) ما أشعَلَ القُلَيْعىُّ لو أراد الخيْرَ ، كما أنَّ تَرْكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجَعَلْتُ الهمَّ فيهما همًّا واحداً .

ولمَّا تشدَّدتُ عليه ، وأمرتُه بالكفِّ ، أحرق ، وهرب دون نَفْيٍ ، ومضى قاصِداً إلى المُرابِط ، يغرى فىَّ ، ويَسْعَى علىَّ ، ويكذب ، ويصوِّر الأُمور على غير وجوهها . فتكرَّرَتْ مُخاطَبتى على أمير المسلمين ، نبيِّن له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفَسَقة . وهو ، فى ذلك كلِّه ، لا يراجعنى إلَّا بالشِّدَّة ، وقبول قولهم علىَّ . فبقيتُ تلك الأيّامَ على أسوإِ حال ، لا ندرى أين الحيرة ، ولا كيف التخلُّص .

وساء ظنُّ المُعْتَمِد بى فى دخول النصرانىِّ إلى بلاده ، وكفِّه عن بلادنا ؛ واعتقد أنَّ ذلك عن اتِّفاقٍ ؛ ولو كان عن اتِّفاقٍ ، لأدَّيْتُ عليه مالًا فوق الجِزْية ! فليس لهم إلَّا بنى البِكرَى غير منطاعين لقَوْل أحَدٍ . ولم يأتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلد قد أفسد .

والله تعالى يعلم أنِّى ما واسيت فى تلك النَّصْبة ، ولا يسألنى الله عن كلمةٍ طعنتُ فيها على مُسْلِمٍ . فاتَّفقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أنِّى أُريد ذلك ، والانحياشَ إلى النصارى ، كالذى قِيلَ ، لم

(١) أصل : « رجاه » .

يَصِل المُرابِطون إلى سَبْتة إلّا ومدينة غرناطة مَمْلوّةٌ منهم ؛ وكنتُ أستطيع على ذلك ، وكانت لى فى المدّة برهةٌ وفسحةٌ طويلةٌ ؛ إلّا أنّ الأعمال بالنيّات ، وتلك القالة إنّما كانت سَبَباً للذى قُدِّرَ ؛ ولو أنّ قضيّتى تُستَوْضَح ، لَوُجِدَ فيها ما لا مطعنَ فيه ، ولا مَقالُ بيّنة ، ولا إسرار فى مَيْلٍ على مُسْلِمٍ ، ولا إدخال داخِلةٍ . وكيْفَ يصحُّ هذا قِبَلَنا ، وأوّلُ سَيْفٍ سُلَّ على الروم إنّما كان من قِبَلِنا ، وهى الوقيعة المشهورة بالنَّيبَل ، من طاعَتنا ، فى حين تطرُّق النصارى إليها على حين غَفْلةٍ ؛ ووافَقَ ذلك أوّلَ ظهور المُرابطين ووُصولَهم سَبْتَةَ ؛ ووَرَدَنا إذ ذاك* رسول ألْفُونْش ٥٣(ب)
مُعْتَذِراً من الأمر ؛ فصرفْناه عن الطريق ، قطعاً له ، وإيثاراً لأمير المسلمين .

وعند الله تجتمع الخصوم !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس ، مؤلِّف هذا الكتاب

(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

---

٦١ — ثورة يهود مدينة اليُسّانة

ولمّا كُنْتُ فى تلك الفترة ، بَدَتْ أُمورٌ وأسبابٌ دَلَّت على ما كان من الانتقال ومُقدِّماتٌ آذَنَتْ بالزوال . فأوّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِعِـلَّةٍ نذكُرُها ، وأرَقّ سببٍ لم يُوبَهْ له . وذلك أنّى ، لمّا أمرتُ بِبُنيان السُّور المتّصل بالحمراء ، ودبّرتُه على تلك التّصْبة التى أضْرَبتُ عن شرحِها لاشتهارها هيّأت السعادةُ أن وَجَدَ البَنّاؤون فى الأساس قُمْقُوماً مملوءاً ذهباً أعْلَمونى به . فلما وقفت عليه ، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مِثْقال جعفرية . فاستبشرتُ بها وتفاءلْتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرت بمن كان قبلنا . فقلتُ : « من أساسِهِ يكون بُنيانُه ! »

وكانت دارُ أبى الربيع اليهوديِّ الخـــازن للأموال فى دولة جَدّى — رحمه الله — مبنيّة على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون . فأتى ابن المرّة متنصّحاً بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم سائر دفائنه » فخاطَبْنا عنه ليَرِدَ علينا فى بعض الأمر . وكان صِهْرُه ابن ميمون ، كنّا قد قدّمناه على يهود اليُسّانة بوجه الأمانة ، وأسْدَينا إليه جميلاً

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغُرَباء ، يصول بهم على أهل مِلَّته ؛ وكان خبيثاً . فأَحَسَّ بالقِصَّة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنُّه ، وخشى أن يُعذَّب على مال أبيه .

ووَافَقَ قَبْلَ ذلك ، عند انصرافنا من لِيِّيط ، أن فَرَضْنا على أهْل اليُسَّانة ذهباً كثيرًا باسْم التَّقْوِيَة ، لم تَجْرِ عادتُهم به ، وحَمَلْنــاهم فى ذلك على الصحَّة والانطباع ؛ فَنَفَرَتْ لذلك أنفُسُهم . ووجد ابنُ مَيمون المذكور السبيلَ إلى إغْرائهم وحَمْلِهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخـلوا فى السلاح ؛ ونادَى فيهم أن : « جدُّوا ، مَعْشَرَ بنى إسْرَائيل ، فى حماية أموالكم ! » وافتضح بذلك ابن مَيمون . وسَبَقَتْ له جناية فى قتل* عاملنا ابن أبى لَوْلا ٥٤ (١) على المُسْتَخْلَص رياسةً وعدواناً . وامتَنَعَت اليُسَّانَةُ بالجملة .

فلمّا رأيتُ ذلك ، لم أجدْ بُدًّا من مُداراةِ الأمر . واشْتَرَطَ مُؤَمَّلٌ بإصلاحه ، ونهض . ثُمَّ إنِّى علت رأيِى بَعْدَه ، وعَلِمتُ أنّه لا يلتَى إلاّ أحَد وجْهَيْن : إمّا طاعةٌ على غِشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيُّهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدَّةٌ وتَرْهِيبٌ ، ليعلموا قَدْر ما جَنَوه . وخَرَجْتُ بنفسى فى أثره ، وقد اجتمعت إلىَّ الأنداب . فإذا بمُؤَمَّــل قد أَقْبَلَ مُنْصَرِفاً ، وردَّنا عن ذلك المَذْهَب ، وقال لى : « قد أَصْلَحْتُ الأمْر مع ابن مَيْمون . ونُهوضُك إليه لايزيد القوم إلاّ نفاراً ، وربَّما استعانوا بعسكر ابن عَبَّاد ، لا سيّما أنه الآن بقُرْطُبة ، وليست تُؤْخَذ بإحصار ولا قتال ! » على أنِّى قد عَلِمتُ أنَّ ابنَ عبَّاد لا يحميهم فى ذلك الوقت كلِّه ، ولا اشتهر بذلك إلّا ما كان النـاسُ يذكرونه ، وابن مَيْمون يفتخر به ويُطْمِع به أهْل اليُسّانة .

فقبلتُ قولَ ابن مُؤَمَّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ : « خُرُوجِي إلى هُنا أو وصُولي إليهم سوَاء ! إذا أردنا التَّهْيِيب ، فقد وَصَلْناهُ ! » ثمّ قلتُ لمُؤَمَّل : « صِفْ عليّ ما انفصَلْتَ ! » فقال : « إنّ ابن مَيْمون زَعِيمَها عَدَّدَ أشياء أنكَرَها من الإرْسالِ في صهره ، وهذِهِ الفرضةِ العظيمةِ ، وسائرِ ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنتُ لهم الصكوك برفْع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصّتِهِ . » وأمرتُ بعَقْدها والإرسال بها . وقرّت الجبالُ قرارها .

ووجَستْ نفسى من ابن مَيْمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ، وعَلِمْتُ أنّ هذه هُدْنَةٌ على دَخَنٍ ، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه ، وسيؤثِر أمثال هذه . فَدَبَّتْ إليّ المُداخلَة من اليهود الخمولين فى زمانه ، ووعدتُهم بالإحسان ؛ وتكرّر فى الوساطة ابن سِيبِق ، حتى أبْرَمْتُ من ذلك ما أمّلتُه . وكان أخْذُ ابنِ مَيْمون يسيراً ، لا عُصْبةَ له ، وهو غافِلٌ . وكان الواسطة أيضاً ابنُ المَرّة مع أبى العبّاس الحكيم . وكان* ذلك ممّا نقمه ٥٤ (ب مُؤَمَّلٌ لانحياشه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عادتِهم ، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاءِ من الشيوخ ، وأمرتُ أن لا زعِيم فيهم بعد اليوم إلاّ الكلُّ منهم أُمَنَاء مَنَوّه بهم ؛ فشكروا ورَضَوْا . وخاطَبْتُ عامّتَهم نُعلِمهم بما لهم فى ذلك من الصلاح . وتهدّنت الأحوال وقرّت ، إلى أن تلف الكلُّ .

٦٢ — قضيّة زناتة

وقَضيّة أُخْرى بَعْد هذه فى أمْر زناتة : إنّه ، لما أعملتُ الفكرة فى عاقبة الأمر فى هذه الفِتَن[1] العارِضة ، رأيت أنّ الاحتبال بالمَعاقل من آكَدِ ما يجبُ النظرُ فيه ، كالذى تقدّم ذِكْرُه من النظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها ، وأنّ الأوْلَى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قوّادِها . وذلك أنّه لم يكن يَلِى لنا مَعْقِلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصْفان والعَبيد ، ما خَلاَ زَنَاتَة : فإنّهم كانوا أجْنَاد الحضرة .

وكان الصِّنْفُ المذكور قد ضَعُفَ ؛ واستولى عليه النقصانُ لمُطالباتٍ جَرتْ عليهم من قِبَل وزراء الدولة كاليهودىّ وغيره ؛ فإنّهم كانوا يَروْن ألاّ ولاية تتهيّأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إيّاهم وأنَفَتِهم من توليةِ مِثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصِّنف البرّانىّ كلّه ، ولمّا جرى على اليهودىّ ما جرى منهم ، اعتقَدَها النايةُ فى نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه فى مطالبتهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شىء ، تُسُبِّب إليه وأُزيل عن يده . فأدْركهم النقصانُ والقلّةُ ، وزاد فى زنَاتَة ، وقويتْ أحوالُهم وإنْزالاتُهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جُند الأندَلُس ، والموثوق بهم فى الشجاعة والنجدة . وكان الصِّنفُ كثيراً ، لا يعدم ضِمْنَهم مَنْ له مالٌ .

فقُلتُ فى نفسى : « هؤلاء القوّاد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفُسُهم فاسِدةً ، ولا يتذكّرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمسِكون المعاقل ، أو بأىّ قلبٍ يجدّون معى ؟ وإنه لا عِوَضَ منهم فى الثقةِ

(١) أصل : « الفتون » .

(أ) ٥٥ للحصون * وإنّ زَنَاتة هؤلاء المُتأصِّلين لا ثِقَةَ فيهم للمدينةِ القُوَى ولا للحصون ، أكثر من خدمة الجُندية ، لا يَعدَمُ منهم أحدٌ . فأنا جديرٌ أن أشرِكَ مَن ضَعُف من صِنْهاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدرَكتَهم العناية ويُمسك واحدٌ منهم إنزال خمسة فُرْسانٍ وستّةٍ . ثمّ من قنع بما بيده بَقِيَ ؛ ومن لم يُرِدْ ، لم نعدَم منه العِوَضَ ! » ففعلتُ ذلك ، وأشرَكتُهم . وكان فى هذا كلِّه تحريكٌ لِلشرِّ والقال :

إذا لم يَكنْ عونٌ من الله للفتى فأكثَر ما يجنِى عليه اجتهادُه[١]

فلمّا رأى كِبارُ زَنَاتة ذلك ، قلقوا ، وساءت ظُنونُهم ؛ فكُنتُ ، متى دعوتُهم إلى خِدْمةٍ ، تجِدُهم عنها عاجزين : من أشرِكَ ومن لم يُشرَكْ ؛ فامتحنتُ على ذلك ؛ فقيل لى : « إنّ كِبارَهم يفسدون صغارَهم ! ولو أنّك تُخرِج غَوْغَتَهم[٢] من البلدة ، لصَلُح لك سائرُهم ! »

فأمَرْتُ بإخراج ثلاثة أنفس ممّن يتّهم منهم . وكان المأمورَ بذلك لَبيبٌ الخصىُّ ، صاحبُ المدينة ذلك الوقتَ ، وثقتاه لتربيتنا له . وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتّهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريقتَه السّيئة ؛ فأصاب الفرْصة للخراب ، وأرسل من قِبَلِه إلى أولئك المُخْرَجين ، وإلى من سِواهم من بنى عمِّهم ، يقول لهم : « إنّ الطلَبَ قد وقَع فيكم من مجلِس السلطان ؛ وأُمِرْتُ بإخراجِكم . فلا توهِنوا ، واُجْتهدوا فى التعصُّب عليه وترْويعِهِ ! وأنا معَكم ! فإنه ، إذا رأى جماعتَكم ، رجع إلى قوْلِكم ! » فلم يكن إلاّ بعد الأمر بساعةٍ ، وإذا بجماعة الجُند قد أقبلوا إلى باب المدينة ، يقولون : « إمّا أن يَرُدَّ شِرْكَتَنا ، وإمّا فالكلُّ راحلون عنه ، مُنتقلون إلى غيره ! » وأتى

---

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا فى الأصل ، عوضاً عن « غوغائهم » .

الفاسقُ لَبيبٌ وأصحابُهُ المُتَّفقون معه ، يقيم حُجَّتهم ، ويُعضد قولَهم ، ويخوِّف منهم . فَمَيَّزتُ الأمْرَ ، وعَلمتُ أن هذه جَعجعَةٌ لا يُرجَع فيها إلاَّ إلى رأْى ؛ فأظهرْتُ الشِّدَّة ، وقلتُ : « لستُ براجعٍ عمّا أبرمْتُ ؛ فتكون نفوسُ الذين أشرَكتُ معهم مُنْصرفة * إلى مثل نفوسهم ! فمَنْ شاء ، فَلْيَمُرَّ ، ومَنْ شاء ٥٥ (ب) فلْيبْقَ ! » فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الـكلُّ .

ومُؤَمَّلٌ ، فى هذا كلِّه ، على اتِّفاقٍ مَع لبيب ، يدخل فى رؤُوس الجُنْد ويقولون لهم : « إنَّ هذا من قِبَل غيرِنا ؛ ونَحنُ أبرياء ! » ويرونهم الشفقة من الأمر والطَّعن علىَّ . وصَحَّ ذلك عندى مع طائفةٍ من شيوخِ العبيد أصحابِ مُؤَمَّل ، وعلمتُ حسابَ زَناتة أنهم لا يَزُولون بالـكلِّ ، وأن ذلك ترْهيبٌ ، وأنّ الرجوع عمّا أمرتُ به يضريهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأْى ويكوِّن لهم الصولة والحاقة فى المعصية ، وأن انقيادَهم للأَمر واستعذارهم بعده أشْبَهُ ، وللحُجَّة عليهم أعَزُّ وأبهى .

فلمَّا كان يومٌ آخرُ ، خرجتُ بنفسى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبَطِّن علىَّ من تقدَّم ذِكْرُهُ . فأمرت بالبريح عليهم وإحضار الزمام ، لنعْلَمَ مَنْ صَحَّ مُضيُّهُ وقعودُه. فوجدتُ الـكلَّ مجتمعين ، قد انصرفوا مُتَقطِّعين ليلاً ، لم يَغِبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أُمرتُ بإخراجهم ، وجعلوا يَعتذِرون ويَتنصَّلون . فقلتُ : « اللهُ أكبر ! هٰذا أَشبَهُ وأَليَقُ بالملـكة ! » ورأيتُ مُؤَمَّلاً ولَبيباً وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعتُهم مُؤَمِّلين أن لو كانت طامَّةٌ لا ترفع .

والعَينُ تُبصِرُ فى عَيْنَى مُحدِّثِها ... إنْ كان مِن حِزْبِها أوْ مِنْ أعادِيها

٦٣ — انقلاب مؤمَّل وثورته فى لَوْشة

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه ، جاء مُؤَمَّلٌ فى إثر ذلك يقول : « إنَّ هذَا الانطباعَ منهم ليس لِرَغْبةٍ فى البقاء معك ! غير أنَّهمُ يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم ، ويتزوَّدُوا به ! فلا فائدٌ تُنْزِل عليه غَيْرَهم ، ولا رجالٌ بقوا معك ؟ » وكنتُ إذ ذاك ناظرًا منه بِعَيْنِ الثِّقة ؟ فعمل قوله فى نفسى ، وقلتُ : « لا يَخلو هذا القولُ عن وجْهَيْن : « إمَّا قد اطَّلَع على ذلك منهم ، فهى نصيحةٌ ، أو لم يطَّلِعْ ، فهو بغائلَته لا يَدَّعُهم ، ويدْخِل هذا فى رؤوسهم ، وتكون علىَّ فى ذلك الخسارة . وإن احتَجْتُ إلى العِوَض ، لم يكن لى على ما نُنْزِلُه ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله* من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١) يَأْتِنى من هذه الكلمَة نعاس . وأمرتُ بإخراج كلٍّ من فى رأسه حماقةٌ . فبلغ عِدَّتُهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفَّتْ ، ولم يَبْقَ فيها إلاَّ مَنْ ينطاع لكلِّ أمرٍ .

وعَمَلَ فى نفسى قَتْلُ لَبِيب وشيوخِ العَبيد ، وصحَّ عندى منهم وَفِيهِمْ أنَّهُم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ ؛ وكانوا أشدَّ علىَّ من كلِّ أحَدٍ . وجعل زَنَاتَةُ يَذكُرون ذلك ، ويقولون وقتَ اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنَّمَا نَحْنُ جُنْدٌ ، ولولا ثِقاتُه وعَبيدُه الذين حملونا على ذلك ، لم نجترم[1] عليه ! » وجَعَلُوهم فى وقت قيامِهم يمشون على الأسواق ، ويأْمُرون الناسَ بالقيام ، ويقولون لهم : « لم نَدْفَعْ نَحْنُ ، إلاَّ وهو يُرِيد إدخالَ النصارى ! » فلم يلتَفِت الناسُ إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنْهاجة .

(١) أصل : « نجترموا » .

ولمّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ ، أَمَرْتُ بعد ذلك بإخراجِ اثنَيْن من شيوخ العَبِيد الذَيْن صحّ عندى إشْمَالُهم لهذه القضيَّة ، وتَقَفْتُ لَبِيباً . فوافَقَ إخْرَاجُهُمْ ومُؤَمَّلٌ خارِجَ المدينة ؛ فلحقوا به ، وقالوا له : « قد أُخْرِجْنا ! وغَدا بِكَ هَكَذَا ! فانْظُرْ لنفسك ! » فخَرَجَ معهم من فَوْره ذلك ، قاصِداً إلى لَوْشة ، مع مَن اتّفق معه مِثْل ابن البَرّاء الكاتِب وغَيْرِه .

وكانت هذه تِفْقَةً قَدِيمةً بَيْنهم مع بنى مالِكٍ عُمّالِ لَوْشة ، أنّه ، متى دهمهم أمرٌ ، لَجَؤُوا إليها . فنهضوا من فَوْرِهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة ، ولحقوا بها ليلاً . ودخل المدينةَ ، ولم يمنعه أحَدٌ لِمكَانَتِهِ مِنّا ؛ وحسب القائدُ ومن فيها أنَّه رَسولٌ . فصار فى قَصَبَتِهَا ، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ ، وصرخَ فيهم بالبُكاء ، وافتعل الكذب ، وقال لهم : « لم أُخْرُجْ من غرناطة إلاَّ كما تَرَوْنَ : « بطَوْقٍ على عُنُقِي » ! وتركتُ فيها النصارى قد استحْوَذوا عليها ؛ وكُشِفَ عنّى ! فأَثبتوا معى ونُوَجِّهُ إلى كلّ سلطان : فمن أجابنا ، اعتضَدْنا به ! » وخاطَبَ بذلك حُصُونَ الغَرْب ، يأمُرُهم بالخلاف ؛ وأرسل إلى زَنَاتَةَ المُخْرَجين ، ليكونوا معه مُضَيِّقِين على* غرناطة . ٥٦ (ب)

وإنّ أهْلَ الجِهَةِ مع أهْل الحصون ، لمّا سمعوا ذلك ، دبَّرُوا رَأْيَهم . وأرسل كلُّ حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يطَّلِعُ صُورةَ الأمر ؛ فإن وَجَد خِلافَ قوله ، لم يُخربوا وجوهَهم معنا ؛ وإن أَلْفَوْه حقًّا ، نظروا لأنْفُسِهم . فأتونى أفواجًا مُعَزِّينَ ومُهنِّئِينَ على السلامة من النصارى ، ومُسْتَفْهِمِينَ جليَّةَ الحال . فأَخْبَرْتُهم بالأمر على وَجْهه ، ولم يروا شيئًا مِمّا ذكر مُؤَمَّلٌ . فطَابت أنفسُهم ، وعلِموا أنّه مُخالِفٌ مُنافِقٌ . فبادَرَ الكلُّ إلى مُنازَلَتِهِ ، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة .

وكُنْتُ ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوْشة ، قد أَبْلَيْتُ لهم عُذْراً ، وأَرْسلتُ إليهم كُتُباً ورُسُلاً تأَمِّنُهم ممَّا خافوا ، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبة فى إيثار الفتنة ، وأَنِّى مُطلِقٌ إليهم أهاليهم ، ويخرُجون عن الحصون حيث شاؤوا بأَمانٍ ووثائقَ ؛ وهم فى هذا كلِّه ، لا يزيدون إلاَّ طغياناً وتهدُّداً ، بارِزينَ على الشرِّ ، طالبين للثأر بلا ثأر . فلمّا يئستُ منهم ، مع اتِّفاق الحصون عليهم ، أَرسلتُ بالعسكر ، وقوّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجّاج ، سنذكُرُ وَجْهَ مُصاهَرتِهِ لنا بعد هذا ؛ فنهض ؛ فلم يكن إلاَّ ساعةُ وصولِه ، وجَزَعَ مَنْ معه في القَصبة ، وخَلَتْ عليهم ؛ ودخلها العسكرُ ، وأُسِرَ فِيها هو وكلٌّ من معه . وأتانا من ذلك فَتْحٌ عظِيمٌ .

وأَمَرْنا بِثِقَافها وسوقان الأَسْرَى ، وثقّفناهم مُسْتَفْتِينَ فى أمْرِهم ؛ فأَفْتَت الشُّنّة أنَّ قَتْلَهم غير جائزٍ إذ كان نفارُهم جَزْعًا ، على أنَّهمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الارض غَيْرِ لَوْشَة ، وإنَّما أرادوا الفسادَ فى الأرض ؛ وآخَرونَ يقولون بقَتْلِهم . فآثرت الألْيَقَ والأبْعَدَ من الآثام ، وأنَّ ذلك لا يفوت ؛ ومن أخلاق الكِرام التأَنِّى والعَفْوُ عند المقدرة . فأَوْجَبَت السياسة تثقيفَهم والشدَّة عليهم ، لئلاَّ تكون طرقةً لغيرهم ؛ وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أضَرِّ الأشياء ؛ فلا غَفْلةَ لملِكٍ يَقْظَانَ فيه .

وخاطَبوا ، مُدَّةَ كَوْنِهم بلَوْشة ، كلَّ رئيس بالأَنْدَلُس ، حتّى صاحب مالَقَة . فلم يجِبْهم* أحَدٌ . فلما يَئِسَ مُؤَمِّلٌ منهم ، أَرْسَلَ إلى أمير ٥٧ (١)
المسلمين ، بُزَوِّرُ عنده الأمر كلَّه ، وبكذب ، ويقول له : « لم نُؤْتَ إلَّا من إنكارى أمرَ النصارى ، والقيام بدعوتك » حُجَّةً لا تقوم على ساق . وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبِلاً مع نُعْمان ؛ فانصرف لمّا عَلِمَ بأَخْذِها .

٦٤ — وَصْفُ الثائر نُعمان وسيرتُه ضدَّ عبد الله

وكان نُعمانُ المذكور ممّن فَعَلْنا معه جميلاً ، وأحسَنّا إليه لحُرْمة القرابة والانقطاع إلينا من المُرابطين ؛ وزال عنّا بعد إعماله الدواخِل علينا فى حصوننا الغربيّة ، وعَقْدِه مع أهْلها أن يصيروا فى طاعة المُرابطين متى دُعُوا . وكان له بتلك الجهة إنْزالٌ ؛ فتمكّن من القُرْب والعَمَل بذلك ، وخرج عنّا بسَراحٍ ادَّعى من أجْلِه أنّ له بالعِدْوَة ميراثاً ومالاً يُريد اقتضاءه ؛ فأبَحنا له النهوضَ ؛ وإذا به يَسْعَى علينا . وقال للأمير : « نُفِيتُ من البَلَد من أجْل نصيحتى لك ومَحبّتى فى دولتك ! » أمْرٌ لم يكن منه حَرْفٌ ، حتّى إنّ أطْواقى ، إنْ تكلّمتْ ، لسَعَتْ علىّ ، القَدَر الذى شاءهُ اللهُ ، عسى لعاقبةٍ محمودةٍ إن شاء الله .

فعمِلَتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أمير المسلمين ، مع ما صُوِّرَتْ عنده بكثرة الأموالِ المكذوبِ عليها والمُنْتَفَقةِ فى طاعته والجهاد معه لو بَقِيَت الحال.

٦٥ — مسألة زواج الأميرتَيْن أُخْتَىْ عبد الله

وإنّا فى تلك الفترة ، رأينا من الصلاح النظَرَ لمن مَعَنا من البَنَات وتَزْويجَهُنّ قَبل أن يفجأ أمْرٌ ، فيَكُنّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيلٍ . فتخيَّرْنا لهُمَا من بنى عمِّهما شاكِلةً ، منهم مَعَدُّ بن يَعْلَى ، للذى كان عليه من النجابة والعقل والمَحبّة ؛ فصَدَّنا عن ذلك أهْلُ دولتنا ، وقالوا نصيحةً وحَسَداً : « إنْ أنت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّك ، حمَلتْهم دالّةُ القرابة مع المُصاهرَة على الظهور عليك وفساد حالك بصلاحهم . فإيّاك ! وعليك بمَنْ

هو دون قِيمَتِك ؛ فيُراعى إحسانَك ، ويَرَى هذا منك كثيراً ، ويَرَى عيالَه بَيْنَ مَوْلاة ؛ وإن هو تحرّكَ إلى شيء ، قعدَتْ به دقّةُ شأنه ؛ فلا أتباعٌ يُهاوِدونه . » فقبلْنا ذلك حذراً* على الدولة ، وقُلْنا : « من صَلَحَ من قرابتنا ، نُدْرِكُ فعل الخير فيه دون مُصاهَرةٍ تُطْغيهِ ! »

وكان من بعض خَدَمَتنا مَنْ حَضَّنا على يوسف بن حَجّاج ، لِعِلْمِه بأخلاقه مدّةَ صحبته له ؛ ووَصَفَه بصِفَاتٍ ظاهِرُها يشبه المشاكلة . وذلك أنه قال : « فى الرجل انقِباضٌ واسْتِيحاشٌ من الناس ؛ وبذلك تأْمَن من إجماعه عليك ؛ وفيه شُحٌّ كثيرٌ ، لا يُخْرِج خَيْرَهُ من منزله ؛ وفيه غيرةٌ شديدةٌ تُوافِقُ مُعاشَرَةَ العيال ؛ وبه حَرَجٌ ونَزَقٌ ، لا تَصِحُّ به ولاية ؛ وهو من نقصان البيان وعِيٍّ اللسان ما لا يطّبِى بذلك الناس لتألُّب ، إن شاءه عليك ، ولا نقض لفعالك أو مَقالك والرجلُ من أوساط الناس ومِمَّن لا ينتمى إلى مَلِكٍ ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أصلَ له فيه . فهو بين يديك كالكمأة التى إن شئتَ قَلَعْتَها ، لم تتعذّر عليك من أصلها ، أو كالصَّمْغة ، إن شئتَ فرّغْتَها ، ظَهَرَتْ ؛ وكانت لك المنّة والخيار ! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأتُك ، وابنُ وزيرِ جدِّك ، وله من بُعْد الهِمّة وكَرَمِ النفس وحُسْنِ السمت والوقار على حال الحداثة ما تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وليس بمُنْقَدٍ قدرُه . وإن أنهضتَه إلى أمرٍ ، جدَّ فيه ، وأنت آمنٌ من سوء العاقبة ، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابْنَه إلى دَرَجة تُقِرُّ عَيْنَه . والأوْلَى أن يدعُوكَ صِهْرُكَ « مَوْلاى » ، من أن يكون لك مِثْلاً ؛ فنشقى أنت ونحنُ ، إذ الغمدُ لا يحتمل سَيْفَيْنِ ، ولا ندرى مَن السلطانُ فيكم ، إلاَّ مَنْ ارتَضَيْتَه وقدمْتَه . »

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتمِّ ما يمكن ، واستعددتُ فى سائر أمْرى

بالأَحْزَم ، ووَكَّلتُ ذلك إلى الأقدار ، وقلتُ : « هذا جُهْدُ الاستطاعة ؛ ودون جُهْدِك لا تُلام . ولله أن يقضى بما شاء ! »

ولمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة ، شَرِهَتْ نفسُه إلى وزارة الدولة ، مَقْطَع من لم يميِّز المذهب . ولم نكن بعد وزارة سِماجة نستعمل لذلك أحَداً . فكأنّه وقع فى نفسه التقصيرُ به ، جهالةً من الإنسان* بقدره له مُهلِكَةٍ ، ٥٨ (١) وتَرْكِهِ صيانَةَ قدره له فاضِحةٍ .

٦٦ — حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

وكان أهلُ دولتنا على مَذْهَب جهالةٍ فى هذه الأُمور : إنَّ كلَّ أحَدٍ منهم يُريد أن يعمل برأيه ، وأن تجرى الأُمورُ على هواه ؛ فإن لم يتَّفِقْ ذلك له ، صار فى حيِّز الأعْداء ؛ ولو كان على مرغوبهم ، ما اتّفق لرئيس عملٌ ، ولا تَمَّ له شىء . وكانوا قَبْلَ أيَّامنا قد شغلهم الخَوْفُ من صولة رؤسائهم : ما كانوا يَرَوْنَ السلامةَ غَنِيمةً . ولمّا تَمَّ لهم فى أيَّامنا الأمْنُ، وأنسيتُهم ما مضى ، أدرَكَهم الأشَر والبَطَر ، إلى أن تطمح أنفُسُهم لغير ذلك . وكُنَّا نحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعداوة . وخاننا القياس ؛ وكذلك العاقِلُ المُتمَرِّن لا يَجِب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسه ، ولا يعمل حسابَه وَحده . فليس كلُّ النَّاس على مَذْهَبك ، ولا هواه مُطابِقٌ لهواك ! ولا محالة أن باختلاف الأهواء تَقَع العداوات ، وباتِّفاقنا تكون المُصاحَبة وحُسْن المُعاشرة . وأصدق الناس لك مَنْ يكابدُ معك ، ودهاه مثْل الذى دهاك ، وإن كان من الأباعِد ؛ فلا تستريح إلا إليه ؛ ولا تشْكُ هَمكَ مع من لم يعْنه ماعَنَاكَ : فإمَّا سَاهٍ عن حَدِيثك ، وقدْ أكْثرتَ

عليه ، وإمّا مُخالِفٌ لمَذهبك ، قد استَهدفْتَ إلى عَدواته ، وأحْدَثْتَ فى نفسه ما كنت غنياً عنه .

هذا طبع البَشَريَّة : فلا تسمع ممّن يُريكَ التحقيق بكلامه ؛ فإنَّ الحقَّ ثقيلٌ على النفوس ، والباطلَ إليها أسرع ، وعليها أخفُّ . ولمّا علم الشيطانُ حِيَلَ الإنسان ، لمَجْراه منه بمنزلة الدّمِ ، أتاه من قِبَلِ هواه . ولا سبيلَ أن تَلقى أحداً عَدِيمَ العَقْل : كلٌّ قد أخَذَ من التجْربة حِصَّته ، وحاز اختياره ؛ وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إليكَ عجزٌ وكلفةٌ : فإن كان رَيِّضاً ، فهو بشأنه أبصر ؛ ولعلَّ له عذراً ، وأنت تلوم ؛ فتُولِد عليه انقباضاً منك وتحَفُّظاً لئلاّ يُرِيك الخِلاف حتّى يأتى بما اعتزم عليه . وإن ألْفَيْتَهُ جاهِلاً ، فمن العناء رياضةُ الهَرِم ، لم تَزِدْه أكثَرَ من نَقْلِه* عن ودِّه ، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه . ٥٨ (ب)

كَيْفَ ما رَوَّيْتُ فى الأمْر ، أجِدُه جَهْلًا من فاعِلِه وكُلْفةً ، إذْ لا تأْدِيبَ يجمل بالمُعَلِّم ولا المُتَعَلِّم . اللَّهُمَّ إلّا من شُووِرَ فى أمْرٍ ، فعليه أن يعطى ما عنده من غير إلْحاح ، ولا يتمرَّن فى انتظار طاعةٍ ؛ فيكون الناصِح ، إن سُمِعَ منه ، تمادَى على صداقته وخُولِفَ فى غِشٍّ . فما قام خَيْرُكَ ، يا زَمان ، بِشَرِّكَ !

لو أنّى أعْلَم أنَّ بخِلافٍ يَسيرٍ على القائل يُنْتَقَل إلى حيِّز العداوة ، لم أشاوِرْهُ فى أمْرٍ أبَداً : وأكونُ قَبْل مُشاوَرَته خاطِراً حَذِراً الذى تَخْشَى منه ، أشَدَّ علىَّ من عاقبَة الأمْر المعروض عليه . فالعاقِلُ يقيسُ على هذه المعانى ويحرز بها صديقَه . فرُبَّ عداوة تتولَّد بأرَقِّ سَبَب ، أو عداوةٍ تعود إلى مُوَدَّةٍ ، عند الحاجة إلى التعاوُن أو الانخراط فى سلْكٍ واحدٍ

من عارضٍ يعمّ أو مَرْغوبٍ يُرَامُ ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاء .

ولا خَيْرَ فى عَقْل لا يتصرّف تارات ؛ وللذّهَبُ السَّرْمَدىّ راكِبٌ طريقةَ الجَهْل ، واقِعٌ فى الورطات . ومن الحقّ ما يسمج ، فلا تقوم حلاوتُه وفرضُه بما يعقب من المَشَقَّة؛ والعاقِلُ يتخيّر الأمور؛ فيتَجَنَّب معسورَها، ويتوَخّى مَيْسُورَها .

٦٧ — رجع الحديث عن زواج الأميرتَيْن أُخْتَي المؤلّف

وللقائل ، إنْ يحتجّ على هذا النّكاح : ما الذى أُرِيدَ به ؟ إن كُنَّا غالبين ، فقد استَغْنَينا عنه ؛ وإن كُنَّا مغلوبين ، لم يَفِدْ ذلك ! يعترض هذا بعد تِبْيان ما وقع !

وإنّما أردْنا اكتسابَ الحسَنة مع السِّتْر ؛ وإنّه ، متى عرض عارضٌ ، كان البعلُ مُكْتَفِياً بامرأته ، يُقِلّها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك ، وتكون لنا منهم عُدّةٌ ، ويُقِلّ طمعُ كلّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتِهما . فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأنْدَلُس رَامَ ذلك ؛ وتوَقّعْنا العاقبة إن فَعَلْنا : تنشّبنا فيما لا مَرَدّ فيه ، ولا يُنفَكّ عنه إلّا بالأموال الجسيمة التى هى أوْلَى بالبَذْل فى إقامة أود المملكة وما كُنّا بسبيله من الجهاد؛ وإن أبَيْنا ، وقع الخِلافُ والحَقْدُ من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب حسابَ ما جرَى .* ولو كُنْتُ أعلم الغيب ، لاسْتَكْثَرْتُ من الخير . وكان ٥٩ (أ)
زماناً لم نحسب فيه حسابَ خَيْرٍ خرَجَ منه مثقالُ ذرّةٍ ، ولا قِسْنا على شىء من الشرّ إلّا ولم نبلغ مِشْارَ ما يكون منه ، بل يدهى منه أمَرُّهُ وأفظَعُهُ .

ولقد قال المُطالِبون إنّ أمير المسلمين كان أحَقّ بها ، وإنما فعَلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعَّد الشَّرَفَ ، ويُدْعَى إلى ما فيه حَيَاتُه ، فيأْبَاهُ ! ولو أنّنى أشعر بشىء من ذلك ، ونَرَى أنَّ المَذْهَبَ فى هذا ، لـكنْتُ أشدَّ الناس اغتباطًا بالأمر ، وإليه مُسارَعةً ، وعليه حِرْصاً .

ولم يكن مَنْ أحَدٌ فى ذلك أكْثَر من المُعْتَصِم — رحمه الله — ؛ فبادَرْتُ إلى ما تقدَّم ذِكْرُه ، خَوْفاً من كلِّ ما ذَكَرْناهُ . وإنه ، لمَّا تواتَرَتْ على أمير المسلمين هذه الأنباء ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ما هى ، عَمِلَتْ فى نفسه .

وانقطع رَجاءُ مَؤَمَّلٍ بِلَوْشة من أن يجيبَه سلطانٌ من الأندلس ؛ وعند ذلك ، خاطَبَ أميرَ المسلمين ؛ فلم يَصِل الخطاب ، وهَيَّأَ العسكر إليها مع نُعْمان ، حتّى انقضى خَبرُها ، على ما وَصَفْناهُ .

٦٨ — تدخُّل عبد الله فى مسألة مُرْسِيَة وغضب المُعْتَمِد

واعْتَقَدَ المُعْتَمِدُ دُخولَ النصارى بَلَدَه ومُحاشاتَهم لِجَهاتى ، مع ما كان فى نفسه من أمر مُرْسِيَة . فإنَّ ابن رَشِيق قال لى مشافَهةً ، ونحنُ على لِيِّيط : « أُريدُ أن أكون صَنِيعك وأدخُلَ فى جُملتك . » وقال لى رَسُولُه بعد ثقافه : « لو أنك تقبل مَنْ تَخَلَّفَ فيها ، لأقامَ الخُطْبَةَ باسْمِك ، وكانت فى طَاعَتِك ! تَجِدُهُ ويَجِدُك ! فأَبَيْتُ هذا القول جُمْلةً ، وقلتُ فى نفسى : « هذه نَصْبَةٌ لم يَكَدْ أصحابُنا يتخلّصون منها إلّا بَعْدَ المرام الشديد والكدِّ العظيم ! رُدَّ منهم هذه المشقّات ! فلا يَعترِضها هذا الوَقتَ إلّا جاهِلٌ بالزّمان ! وليت لو سَلِمْنا من هذا كلِّه ! وإنه مَنْ أمَّلَ

أن يُبقِي بَلَدَه بيده ، فقد شرِهَ إلى كثير ، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أرَى وأُمَيِّزُ ؟

ولمّا هامت علينا اليُسّانَة ، على ما قدّمنا ذِكْرَه ، كان ابن الأحْمَر يُداخلُها ، ويَعِدُهم ويامُرُهم بالتثَبُّت ، حتّى تبدو إليهم الأحوال ؛ ويَبْلُغُنى* ٥٩ (ب) من ذلك ما يُقْلِقُ . فأردتُ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَة مَن يعقد ما ابتدأنى به رَسولُهم ابنُ يَكُّون ، المُتَصرِّف فى خِدْمَتِهِم ، ويقول لهم أن يُبَيِّنوا كيف يريدون مُحاولة هذا الأمر : إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمَّةٍ متى كانت ، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا ؛ وما فائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به ؟

ولمّا توجّه مِن ثقاتنا لذلك مَنْ أنفَذْناهُ ، اعْتَقَدَها المُعْتَمِدُ فى نفسه ؛ على أنّنا لم نكنْ نعزم على ذلك أبدًا أكثر من طلب التَّعِلّات عليه آخرَ ذلك بأنْ نسمع منه ما لا يوافق ؛ فينتقض العمَل بسَبَبه ، أو تُوقَف الحالُ إلى أمدٍ مّا ؛ كالذى يَقَعُ بين الملوك من المُداخلات والأعمال : فمنْها ما لا يتمُّ ، أو يتمادَى إلى حين .

٦٩ — إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشُفِين

بسَبْتة من قِبَل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها

وإنّ أمير المسلمين ، لمّا أتى سَبْتَةَ ، وهو قد أحشد وأعدّ ، قاصِدًا إلى جِهَتنا ، لا يريدُ غَيْرها ، أرْسَلْنا إليه رُسُلاً مقدَّمَةً ، بعد عِتاب

كبير جرى بيننا وبَيْن المُعْتمِد على خبَر مرسِيَة ، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه .

وحانَ وصول أمير المسلمين إلى سبتة ، وقدم رُسُلُنا عليه ، وهم : ابنُ سَهْل القاضى المتقدِّمُ ذِكره ، المُسْتَعْمَلُ للعملة الموصوفة ، وباديسُ بن وَارْوِى من تَلْكاتَة ، يهنُّونه على سلامته ويتلقَّوْن بالرَّحب قدومَه ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه فى جهادِه ، وما أَشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلمانى أن أمير المسلمين قابلٌ لكلّ ما ذَكَرْناه ؛ قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول ما لا شكّ فى مَحَبته . فسرَّنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لستُ ممن يكلِّف أحدًا إلّا طاقتَهُ ! » فكان ذلك منه دهاء وحِذْقًا ، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ ، من قِبَل ابن سَهْل بالمُخاطبة وغَيْرِه ، أنّ نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكتْبة الواردة من عنده ، وأنّ المُداراةَ بالقول أوْلَى ، حتّى يُظْهِر ما شاء ويمهِّد لعَمَله بذلك .

وإنّ ابن سَهْل* . لما رأى من خِلاف الجُنْد ، واطّلع عليه من أنفُس ٦٠ (١)
أهل البَلَد ما اطلع ، قدّم لنفسه ، ورأى ألّا يُخَلِّي من عَمَل يقرِّبه فيمن تقرّب . وأعْلَمه أنّ البلدة ليس عليه فيها مُخْتَلِفٌ ، ونفث بذلك باديسَ المذكورَ . وصحّ عندى وقْتَ انصرافهما أنّ ابنَ وَارُوِى قال : « أرْسَلْنا للخِدْمة له فى زعمـه ، ولم نَصْنَعْ غير أنّى كَتَّفْتُه ، والقاضى ضرب عُنُقَه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن بُلُقّين بن باديس ، مؤلِّف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المُرابطى . سجنه .
إخراجه من الأندلُس ونفيُه

---

٧٠ — عبور يوسف بن تاشُفين إلى الأندلُس
وبدءُ مقاتلته إيّاه

[وعند وصوله قُرْطُبة ،] اجتمع [أميرُ المسلمين] بالمُعْتَمِد ، وسأله عمّا لَهِجَ الناسُ به من مُداخَلة الرومىّ ؛ فشهد بذلك ، للذى كان فى نفسه من كلّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبَلْ إلينا ، ولا تتأخَّر ساعةً واحِدةً ! »

فرابَنى ذلك ، وهو موضعُ الانقِباض ، لِمَا تقدّم من الطَّلب ، وأنّ بمَحْضَره جميعُ أعدائنا ، وإلْحاحُهُ علينا فى الوصول . واعتذرتُ إليه بتوجِيه رُسُلٍ : أحَدُهما وَلَدُ حَجّاج ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةَ وصولِهما ، قرَّعَهُما بكلّ ما نُقِل إليه ، وأمر بثقافهما فى الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إنّى غَزَوْتُه كما نَغزو ألفُونْشَ ! والذى يقدر عليه ، فلْيَصْنَع ! » وأتانى بعضُ الفُرْسان الناهِضين مع الرُّسل على أسْوإ حالةٍ ، مضروبين

ملهوفين ، أطْلَقَهم قُرُورٌ ليُعْلِمونى بالقِصّة ، ويقول : « بالله ! أنْ أطْلَقَهما الأميرُ حتّى ينطلق مؤمَّلٌ وأصحابُه ! » فدهمنى من هذا الأمر ما لا مَرْفع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُه أن يجرى على هذه الرتبة .

وأرْسَلَ على القام كُتُبًا إلى اليُسّانة — فأوّل ما طاعَتْ له — وإلى جميع حصون الغَرْب ، على يدى نُعْمان المذكور ، الساعى فى مُداخَلَتِها قديمًا . وكان من كُتُبه إليهم : « أمّا بَعْدُ ، فقد ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا[1] ﴾ . إنْ لم تُطَوِّعُونا ، ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ[2] ﴾ . وإنَّ خِطابَه لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ منها إلّا وألْقَى بيَدِهِ ، وقام أهْلُه على إخراج قائدهم ، حتّى تناثَرَت المَعاقِلُ كلُّها كانْتِثار العِقْد ؛ إلى أن وصل الأمير إلى بَلِيلُّش ؛ ومن امتنَعَ منها ، قاتَلَتْهُ الرعيّةُ معهم ، حتّى يلقى بيده .

فلم نَدْرِ ما* نصنع ، « واتّسع الخَرْقُ على الراقِع » ؛ وقلتُ : ٦٠
« لا طاقة لى بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ! فبِمَنْ نُمَسِّك الحضْرة ؟ ليس فيها خلقٌ من غير جِنْسٍ ممّن كان فى المَعاقِل . « ولا يَتَمَكّن للخِباء أن يَقِفَ دونَ أوْتاد ! » ولا فى الأمر من مُداراةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أكْثَرَ من رَغْبته فى خَلْعِنا ! ولا ثَمّ غَيْرُهُ يُسْتَنَد إليه ، فنستريحَ فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامّة الكُبْرَى ! ولا فى المُمْكِن أن نوَجِّهَ إلى الرومىّ ، فيكون ذلك فساداً فى الدين ، واستعجالا للمَكْرُوه ؟ وإن شعر بذلك أهْلُ حَضْرَتِنا ، كانوا أوّلَ من يقاتِلُنا قبل

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرابِطين ! ما دام السترُ بَيْننا وبَيْنهم ، فيكشفون لنا القِناع على بصيرةٍ ! » فما عَهِدْنا أيّاماً وليالى كانت أفْجَعَ لقلوبنا ، وأدْهَى لنفوسنا من تلك الأيّام .

٧١ — وصول الجيش المُرابطى قبالة غرناطة

وقدّم أمير المسلمين عَسْكَراً إلى غرناطة ، ما دامَ مُحاوَلَتُهُ للحصون ، يحرسونها من دخول عَسْكَرٍ بَرّانِيٍّ ، إلى أن يَرِدَ عليها بنفسه . وأرسل القوّادُ إلينا أن نُبيحَ لهم القُوت والعلف بالمدينة ؛ فأجَبْناهم ، لئلاّ يَقعَ مِنّا شيءٌ من الخِلاف ، يتسبَّبُ به إلى ما هو أكْثَرُ .

وأرسلتُ آخَرين من الفُقَهاء إلى أمير المسلمين بمالٍ ، ويُعْلِمونه أنّى ابْنُهُ ، وغيرُ مُخالِفٍ عليه ، والطاعةُ مِنّا له على مرغوبه ، دون أن يحوج إلى هذا التعب كلِّه . فأرسل إلينا الفقيهَ ابنَ سَعْدُون ، يقولُ لنا : « لا طاعةَ ولا صُلْحَ إلّا بالخروج إليه ! وهذا أمانُه : كِتابٌ بخطِّ يَدِه ، يتضمّن الأمان فى النفس والأهل دون المال . » فأيْقَنْتُ بالغَرَض . وكان فى آخر كتابه لنا : « إن كنتَ استوحشتَ من النزول إلينا ، فتَخَيَّرْ من بلادك مَوْضِعاً تصيرُ فيه ؛ وَلْتَكُنْ غير غَرْنَاطة ، لِنَرَى فيها رأيَنا ! عُدَّةٌ فاترةٌ لا تَتِمُّ ! »

فروَّيْتُ هذا الأمر ، وعَلِمْتُ أنّى بحالٍ ومكانٍ لا اختيارَ لى فيه ، وأنّ المَذْهَب فىَّ إلاّ أَلِىَ مَعْقِلًا ، وأنّه لا مَهْرَبَ من بين يديه . فقُلتُ : « من السُّخْف يكون أن أقولَ : « قد اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كذا ! » فإن كان لها كارِهاً ، لم ألْبَثْ أن أُرَدَّ منه بتعَلُّلٍ وحُجّةٍ للقوىّ على الضعيف ! وإن كان فى نفسه العِوَضُ ، فَبِخُروجى إليه يُرْبَى ما يعْتَقِده* من إحسان . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والترامى عليه ؛ فإن كان قد أجمل وقبل ، فله الفضلُ ، وعلىّ الشكرُ آخرَ الدّهر . وإن كان قد غدر ، كُنّا واثقين بالقَدَر ، وأبلَيْنا عند الله وعند الناس العذْرَ ! »

٧٢ — الحالة داخل حضرة غرناطة

ولما التفَتْنا إلى أهل مدينتنا ومَذاهِبهم وحَرَكاتِهم ، اطّلعْنا على أمورٍ دليلةٍ على الانتقال ، موذِنةٍ بالزوال ؛ وقسّمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ، مع المُعايَنة لما عَمِيَ قَبلُ ، وإظهارِ ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صَوْلة تتقَى . أمّا الجُندُ من البَرْبر ، فكانوا مُغتَبِطين بهم ، طامعين فى الزِّيادة على أيديهم للجِنْسيّة . واتّفق رأيُهم على ألّا يلقوه بحَجَرٍ ، وقدّموا كُتُبَهم بالطاعة ؛ وراجَعَهم عليها ، يَعِدُهم بأن يُبْقِيَهم فى أماكنهم على أفضَل ما كانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقَ ، تقلّع إلى السُّفْلَى بأهله وماله ، وبقى هو بنسْمَتِه مُنفرداً متأهِّباً للشرّ ، إمّا بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرُّؤ[1] منّا .

ومن كان من التجّار وأهل البلد ، فكانوا على نيّةٍ أنّهم مع مَنْ سَبَقَ ، ولا طاقةَ لهم بالحرب ، ولا هُمْ أهلُهُ ؛ وأكْثرُهم خرج من البلدة يقول : « لأىِّ وَجْهٍ نحتمل الحِصار ؟ تاجِرٌ هُنا وصانعٌ كما فى غَيْرِها ! » وأمّا الرعيّة ، فبَخٍ بَخٍ ذلك ما كانت تبغى ، طمعاً منها فى الحُرِّيّة ، وأنّها لا يُلزِمها غير الزكاة والعُشر .

وأمّا الرّقّاصة من المَغَارِبة ، الذين كانوا عِماد الحضرة ، وبهم كُنّا

---

[1] أصل : « التبرى » .

نُمْسِك الحصون ، فهم أوّلُ من طاع ، وأعْيَنُ مَنْ بالحضرة إليهم يقولون : « ما الذى خالَفَ بنا عن صنيع بنى عمِّنا ؟ » فلم تَجِدْ فى صِنْفٍ منها راحةً يُرْتَجَىْ معونتُها !

وأمّا العَبِيد والصّقالِبة ، فالعبيدُ الأعْلاجُ ، أوّلُ من عصا ، كما ذَكَرْنا ، بلَوْشة ، رَجَوْا أن يكونوا عنده فى أعْلَى مرتبة ، ولم يفكروا فى عاقبةِ أن يخطؤوا عنده ، فيقول : « ما نصحوا مولاهم رَبَّ الإحسان إليهم ! فكيف غيرُه ؟ » إلاّ أنّ كلّ واحد بشَهْوَته بين عينَيْه ، للذى شاءه اللهُ — لا رادّ لأمرِه ولا مُعَقِّب لحُكمِه !

حتّى الخَدَم من النساءِ والخِصْيان : كلٌّ طامعٌ فى إقبال الدُّنيا عليه ، والخروجِ عن ثقاف القصر إلى راحة* التسريح ، والاستهْتارِ بالرجال ، وما ٦١(ب) أشبه ذلك . فجَعْفرٌ الخصىُّ منهم ولَبِيبٌ كانا زَعِيمَى المُداخَلة ورأسَ الفتك ، يقولان : « نحن لا وَلَد لنا ولا تَلِد ! فعلى أىّ شىء نصبر على القتال ؟ وما عَسَى نطْمَع أن نَصِيرَ إليه : هل يجمل بنا سَلْطَنَةٌ أو قيادةٌ أو قضاء أو فِقهٌ ؟ إنّما نحن بمنزلة العيال : من سَبَقَ استَمْتَع بنا ، وكُنّا عنده من جملة الفَىْءِ ، نُرْزَق كسائر الكَسْب ، فلا نضيعَ ! تعالوا بنا ! نُقَدِّم لأنفُسنا ! » فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القويّة ، والمثاقيل ، والمَراتب العالية ، يَعِدهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامِهم لنا ، حتى اتّفقت من كلّ جهة .

٧٣ — لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم

ولما اتّسَقَ له ما أمّلَ ، وعَلِمَ بما معه فى البلدة ، بعد تَقْدِمة عَسْكَرِه ،

كما ذَكَرْنا ، إلى فَحْص غَرْناطة ، وكان أهلُ البلد يتقلّعون من المدينة إلى البادية ، ويخرجون منها(١) أفواجاً ، رأينا إمارة الشرّ وعلامة السوء . فإذا بأمير المسلمين فى أثَر ذلك العسكر مُقْبِلاً إلى الحضرة . فهاج الناسُ وجزعوا . واتّفَقَ رأيى ، مع مَنْ نصحنى ، أنّ الخروجَ إليه أوْلَى ، والتزامى عليه أنجأ من هذه النار الموقَدة . فلعَلّهُ ، إذا رأى براءتنا ممّا نقله العدوُّ ، ولم يَجِدْ فى المدينة نصارى كما قيل ، فلا بُدّ له من وَجْهَيْن : إمّا صَرْفُنا إلى أوْطانِنا ، وإمّا إخراجُنا . فَلَنْ نعدم معه جميلاً ، إذ لم نُهِجْ عليه حَرْباً ، ولا أتعبْنَاهُ فى أمرٍ .

وكَمْ عَسَاَ العَيْشُ فى هذه الدُّنْيا ! والنجاة بالنفس فى دار الدُّنْيا وتخليصُها من الأوزار فى الآخرة ، لا يُبالِغ ذلك شىءٌ ولا يعدله ! فاستَعْمَلْنا العَقْل الذى جعله الله أميراً على كلّ شىء ؛ وكلُّ قُوّةٍ لا يتأنّسها العَقْلُ ضُعْفٌ وسُكْرٌ ، مع سوءِ العاقبة . ولا سيّما أنّنا بحال لا بُدّ من إسخاط الرُّوم بإرْضاءِ المسلمين ، أو إسخاط المسلمين بإرضاءِ الرُّوم ! فالآن يَرِثُها المسلمون أوْلَىٰ وأجْمَل للعاقبة ، إذ هى نُشْبةٌ لا مَلْجأ منها إلّا بما ذكرنا .

اللّهُمّ إنّه لو امتَسَكْنا فيها بنفقة الأموال ، ولا يمكن استِبْدادٌ دون انتظار قوّةٍ من النصارى ، ثُمّ أتَى الرومىُّ ، فينحاش عَسْكَرُ المسلمين إلى الجزيرة أو إلى قُرْطُبة ، *مُرْتَقِباً لما يكون منه ، فيقول لى الرُّومىُّ : « قد ٦٢ (١)
أقْلَعْتُ عنك من أرادَكَ ! هاتِ من الأموال ما نستَحِقُّ من المكافأة ! » فلو قلتُ له : « اترُكْ عَسْكراً معى ، وابْقَ أنتَ لئَلّا يُعاوِدَنا ! » ما كان يفعل ، ويخشى على عسكره البوارَ بين أهْل البلدة والعسكر الخارج .

---

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترُكَ قُوّةً ، فساعةَ انصرافِه وإقبالِ المُرابِطين ، لم ترتقد لهم ساعةٌ ، وينقطع الرجاء عن معونةٍ أُخرى : فهُنَاكَ النكالُ الأكبرُ ، وصَحّ لهم قتلُنا بالكتاب والسُّنّة .

ولو أن عند إقبال الرُّومىّ ، يقول لنا : « إن كنتَ تتّقى من المُرابِطين ، ولا يمكننا السُّكْنَى معك من أجْلِهم ؛ فتخلَّ لنا عنها ، وتصيرُ إلى كلّ ما تحبّه مع النجاة بنفسِك وحَشَمِك وذخائرك ، كالذى صنعتُ بحفيد ابن ذى النُّون ، إذ عاوضتُه ببَلَنْسِيَةَ ؛ وإلاّ ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تفيدنا بالبلاد ، وما يغنى بخروجك إلينا وتركك لِمَدينتك مطيبةً للمُرابِطين ؛ فيدخل علينا الحزم منها . » فلو أطعناه ، لارتكبْنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلعننا الله عليه والناس أجمعون ، وكُنّا نترك غرناطة حَبْساً للرُّوم ، يُضِرُّون منها المسلمين ؛ فلا دماء تُسْفَك منها ، ولا داخلة تُدخَل إلّا وكانت فى صحائفنا . ولا خيرَ فى أثرة الدُّنيا على الآخرة!

ولو أن يتربَّص المُرابِط عند إقبال الرُّومىّ ، ولا ينحاش له ، كما وصفْنا ، ويبقى على لقائه[1] ، فلو التقت الفِئتان ، فلا بُدّ من أن يكون للطائفة الواحدة على الأُخرى ؛ فلو أنّها على الرُّومىّ ، ففى إثْر ذلك ، لم يقدّم على قتلِنا شيئاً بالحجّة أننا أجلبْناه ؛ ولو أنّ الرُّومىّ يغلب ، فنبقى بعد ذلك فى المُلك ماشاء الله ، لم يطِبْ لنا مُلك ، ولاستحينا من الله والناس أن يكون ذلك ببَوَارِ المسلمين وهلاكهم ! ثمّ إنه لا يصحّ لنا ثبوتٌ معه ، وأىّ شىء كان يحجره عنّا ، ولا شىء نرتجى به نزع أنفُسنا منه ، ولا عن ننتصر لو همّ بأخذ الكلّ .

---

(١) أصل : « لقاه » .

كَيْفَ مارَوَّيْتُ فى هذه الوجوه ، لا خيْرَ فيها لمن تَعَقَّبَ الأمر وتَدَبَّرَهُ ، إلا ما صَنَعْناه مع حكمه* الأقدار التى لا تجرى على إهال ! فخَرَجْنا ٦٢(ب) إلى الرَّجُل ، كأنَّما نُساق إلى الموت ، لا نَدْرى ما نَلْقى ، إلاَّ كالخاطِرِ بنفسه ، متوَكِّلين على القَدَر .

٧٤ — تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

ولمّا لقيناهُ ، سُرَّ بذلك ، وأقسم لنا على الأمان فى أنْفُسنا وأهْلنا ، ولَنَا منه المُراعاة والكرامة ما بَقِىَ . ثُمَّ أشار على قرُور بالترقيب علينا ، إلى أن يُثَبِّتَ خبرَنا ، ويَقِفَ على أموالنا .

فانتدب [قَبْل ذلك] أهلُ دولتنا ، يطلب كلٌّ واحدٍ منهم أن نُودِعَ عنده شيئاً ؛ فلم نَفْعَلْ ، وقلتُ فى نفسى : « هؤلاء يَطْلُبون ما يتزوَّدُونَ به ؛ وليس ذلك شفقةً منهم علىَّ ! وليس يُخْلِي من دفع ذلك إليهم من وَجْهَيْن : إمّا فاسِقٌ يستأثر به دونى ، فتكون حسرتُها فى نفسى ، ولا نَقيْتُ بها عن وجهى ؛ وإمّا مُتَبَشِّلُ بِبُعْضِهِ ، يحمله إلى الأمير ليتَهَنَّى به ما يبقى له ؛ وعند ذلك نَفْتَضِح عنده ، ولا يقبل لى صَرْفاً ولا عَدْلاً ؛ ورُبَّما يحنق علىَّ ؛ فيؤذِّينى بعد الأمان ، مع حُبِّهم فى المال . وإنه لاشىء نرجو به بعد الله التَقَرُّبَ إليهم إلّا بالأموال ؛ ولو أمكننى أن أزيدَ فيها ، فتملأُ أعْيُنُهم ! وأنا لا أبتغى إلاَّ العيش لخاصَّة نفسى وأهْلى . وقد خَفَّفَ اللهُ عنِّى بِقِلَّةِ العيال ؛ ولا خير فى الغَرَر بمالٍ لا أدرى إن بَقِىَ معى ، مع اختلاطِه وكثرةِ شُبُهاتهِ : وكثرة المال إنَّما يحتاج للمَمْلكة والأجناد . فالآن قد أزاح الله ذلك عنِّى ، ولم يَبْقَ إلّا طَلَبُ السلامة بحُشاشة النفس ،

وهى غنيمةٌ فى مِثْل هذا الوقت الحادِّ !

فخَرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القَصْر ؛ ولا خَوْفَ عليه ذلك الوَقْتَ ، إذ كان النـاسُ بَيْن يأسٍ وطمعٍ فى الرجوع ؛ فلا جرْأة من أحد فى اعتراض شىء من ساقَتِنا . ولمَّا أُنْزِلْتُ بتولِّى قَرُور للأمر ، جعل الحَرَس على الخِباء ، وأمر بطَرْد الداخل والخارج ؛ وحِيلَ بَيْننا وبَيْن عَبِيـدنا وصنائعنا : كلٌّ يُفتَّش عليه ويُبْحَث على ما لَدَيْه من مالٍ كسبه فى ولايَتِنا.

ثُمَّ أتانا الفقيهُ ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين ، يقول : « أحْضِر الأموال والأزِمَّة بها ! فإن مُؤَمَّلاً قد أخبره أنَّه ليس عندك دِرْهَمٌ إلاَّ بزمامٍ وذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَم ! كان* ذلك ، قد تَرَكْتُه فى دارى ؛ ٦٣(١) فإن أباح لى المسيرَ بنفسى لاستخراج الـكُلِّ ؛ وإلَّا ، فهذه أُمِّى ، تتولَّى ذلك مع ثِقاتِهِ حتَّى لا يُغادِرَكم منه خيطٌ ! »

وكان ، عند خروجى ، قد وقع فى نفسى من خوف الثقاف ما خشيتُ الفرقةَ منها إن تَرَكْتُها فى القَصر ؛ فخرجتُ معها ، ولم ألْتَفِتْ إلى ما سِوَاها. وأنا مع ذلك فى حيرةٍ لا أدرى لما يصير أمرى ؛ قد أُشرب قلبى من الخوف والجزع ما لم أعْهَدْهُ قطُّ ، ولا كان فيه عزاء . فإن الأُمور التى ينبغى لها الاستثباتُ والصبرُ ما كان من أمر دون أمر ؛ وإن جلَّ خَطْبٌ ، يُرْجى فى غيره الراحة ؛ وبعضُ الشرِّ أهْوَنُ من بعضٍ ؛ وإنَّما هذه النصبة لم يكن لها عزاء ولا استراحة إلى أمَلٍ ورجاءٍ لَيُسْرٍ ، إلَّا بحيث يُحْتَسَب . فأذْهَلَنى ذلك عن كلِّ مالى فيه صلاحٌ من تَقْدِمَة النَّظَر فى مالٍ أو غيره ؛ بل ، كانت نفسى آكَدَ علىَّ ، لم تعمل حسابَ مَنْ يعيش ، لا سيَّما من لم تَجْرِ عليه قبل ذلك مِحنةٌ ، ولا أُكْرِبَه الدهرُ برزيَّةٍ . فجاءتْ جُمْلةً ،

أَبْهَتَتْ وخانتْ القياس ، وحادَتْ عن سبيل المعهود .

وقد كان أرسل إلىَّ قَرُور يطلُب خطَّ يدى بإسلام المدينة وإخراج من لى فيها من الحَشَم . فبادرْتُ على المقام ، إذ الالْتِواء عن ذلك ممَّا لا ينفع ؛ ولو فعلتُ ، لكان ذلك زيادةً فى الهوان ، ولم يَفِدْ شيئاً ، وأنا قد حَصَلْتُ فى القبضة .

وكنتُ أخْرَجْتُ مع نفسى أسباباً منها سَفَطُ ذَهَبٍ فيه عشرة عُقود من أنفس الجوْهَر ، وذَهَباً مَبْلَغُهُ ستَّة عشر ألف دينار مُرابِطيّة ، وخَوَاتِمَ ؛ وتأوَّلتُ فى إخراجها معى أنْ قُلْتُ : « إن كان الأمْر يبدو من الأمير بشقاق ، فهذه حاصِلةٌ لا تنفع ، تُجْعَلْ كَسِوَاها ؛ وإن لم يكن ، وربَّما تأخَّرَ فى الأمر بعد قضاء غزوته ، دارَيْتُ منها وأعْدَدتُها لِمَا ينوب على العَسْكَر ومُتَاحفة المُرابِطين . »

ولم يُتْرَكْ لنا خادمٌ إلاَّ حِيلَ بَيْننا وبَيْنها . وفُتِّش عليهم ألاَّ تكنْ فى أوْساطِهم خبيئةٌ . وجعل قَرُور يقول لى ولأُمِّى : « اكشفا لى عن ثيابكما . * فقد أُخْبِرَ السلطانُ أنَّ خيرةَ الجوْهَر على أوْسَاطِكُما . » فتبرأْنا ٦٣(ب)
له عن ذلك ، ونزعتُ له عن الثياب . ثمَّ جعل ينفض المخدَّات عن الصوف ، ويفتِّش بينها ، ويُقلِّب التوابيت على وجوهها ، ويحلُّ طىَّ الثياب ، فَتْشًا لم يُعْهَد مِثْلُه قطُّ . ثمَّ أمر بحفر الأرض التى عليها الخِباء ، خوْفاً من أن ندفن فيه شيئاً ؛ وهو فى ذلك كلِّه يقول لى : « إن سلمتَ بروحك ، فما فى الأرْض أوْجَه منك ! »

وصار الكلُّ فَيْئاً من خادِمٍ وغُلامٍ ، ما خلاَنى وأُمِّى . وكنت وقت خروجى قد أخْرَجْتُ مع أُمِّى صَبِيَّةً طمعتُ أن أنجو بها ، فلا يُوبَه لها ،

ألاَّ أنفَرِدَ دون أحدٍ من أهلي ، لتكونَ لي عُدَّةً لما بَعْد ذلك ؛ فأتى قَرُور ، وألْقى يَدَه فيها ، وأخْرَجَها ، وفَتش ثيابَها على المقام ، وتحمَّلها . ثمَّ أتى إلى أثاث الخِباء كلِّه وفتَّشه ظاهراً وباطِناً ، فكلُّ ثوبٍ أو حاجةٍ استَحْسَنها ، أخَذها لنفسه . وكاد أن يُعَرِّيني من الكلِّ . وأصاب الدنانير المذكورة ؛ فقال لي : « ما أردتَ بإخراجها ؟ » قلتُ : « لأتاحِفَ بها الأمير ! » فهدَّدني وأدخلني تحت وَعِيد ؛ ثمّ أمر بانتقالها على المقام ، وأخذ السَّفَطَ بما فيه من الجَوْهَر وَالخواتِم : هو من جِهةٍ ، ورَبِيبُهُ من أُخْرَى ؛ وأنا في هذا كلِّه لا أرجو شيئاً إلاَّ السلامة في الروح ، ولم نَشُكَّ إلّا أنّه لا يكون بعد هذا إلّا القتل .

ثمّ إنه أمر والِدَتي بالطلوع إلى القَصْر لاستخراج الأموال . فتكدَّرْتُ لذلك أيّاماً ، ما منها يَوْمٌ إلّا ونظُنُّ أنّها لا ترجع إليّ ، حتى دَفَعَتْ إليهم الكلَّ بالأزِمّة ، لم يُغادِرْهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ ، حتى أنّ الحاجة اليسيرة رُبَّما كانت عندي في الخِباء ، فيُشَدَّدُ فيها على الوالدة ، فتأتي عنها وتحملها إليهم .

ولم يَتَبَيَّنْ لي خِلَافُ أهل بَلَدي ، إلّا والأمْرُ قد فات ، من النَظَر في الزمامِ أو غَيْرِهِ . ولم يتقدَّمْني أحَدٌ إلى مِثْل هذا ، فنأخُذَ حِذْري ونتأهّبَ له ؛ ولم يكن إلّا ما شاء اللهُ ، إذا أعطى ، فلا مانِع ، كما أنه لا يتهيَّأُ ، مع ما سُلِبَ وضَاعَ ، ثُبُوتٌ ولا بَقاء ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء .

فلمّا تقَصَّوْا* الجميعَ ، وتبيّن الحقُّ ، جاءني قَرُور بوصيّة السلطان ، مع ٦٤ (١) أبي بكر بن مُسَكَّن ، وهو في ذلك عليّ مُنْتَقِمٌ شانيء ، وهو يقول لي : « الأميرُ يُنْهِي إليك أن لا يَبْقى لك عند أحدٍ وَديعةٌ ؛ وإنّ ما في قَصْرِكَ قد تنزّلْتَ عنه بالأزِمّةِ ؛ وما في خِبائك قد صار إلينا وفتّشْناهُ ؛ وَبَقِيَ لنا

أن تَدْرى مالَكَ مودُوعاً ؛ وإذاً ، لا عَهْد بَيْننا وبَيْنك ، إن خُرِّج قِبَلك دِرْهَمٌ عنـد أحدٍ ؛ ولا تكون عُقْباك فى ذلك إلّا أن يجعلَك فى الصَّحْراء بحيث لا تريح ذلك المال ، ويبقى عند من أوْدَعْتَهُ . » فرجعت إلى نفسى أن نعلم لها عند أحدٍ دِرْهماً وديعةً ؛ فلم أجِـدْ . وَأَقْسَمْتُ له على حقٍّ .

ورجعتُ إلى الوالِدة ، أعِظُها ، وأقول لها : « أسألُكِ بالله ! ألّا ما أشْفَقْتِ عليّ ؟ فرُبّما قد أخْرَجْتُنّ شيئاً لا أعْـلَمهُ ؛ فيظهر بعـدى ، ويكون فيه هلاكى ، وهلاكُكِ ! والدُّنْيا أقلُّ من هذا كلِّه ! والقومُ ، كما تَرَيْنَ ، متعلّقون بشعرةٍ ، يطلقون معنا أرَقَّ سَبَبٍ ! فإيّاكِ أن تشمتى بى ! وإذا تبرّأنا له ، لا يمكن له تَضْيِيعُنا . وليس يُدّخَرُ المال إلّا لثلاثٍ : سلطانٌ يجور ، أو فِتْنةٌ تدوم ، أو عُمْرٌ يطول . ونحن فى نفرٍ يسيرٍ ! »

فلمّا سَمِعَتْ ذلك ، بَكَت وقالت : « نخشى أن نبقى فُقَراء ! وللموتُ أهْوَنُ من الفَقْر ! » فسَهّلْتُ عليها الأمر ؛ وَقالت : « إنّ الله لا يُضيع مَنْ خَلَقَ ! » فكتبَتْ تَسْمِيَةً بما أوْدَعَتْ من مَتاعِها ، تلك الليلةَ التى حان خروجى فى غَدِها : ذَكَرَتْ أنّ لها عند لَذّة خادِمِ ابن أبى خَيْثَمَة كاتِبِنا سُبَيْبات لبعض جواريها ، ولها عنـد ابن الزَّيْتُونىّ القَرَوىّ أربعة آلاف مِثْقال ، وحَلْياً أرْسَلَتْ فيه على المقام : نحو خمسـة عشر عِقْداً ؛ فأمّا الحَلْيُ ، فأتاها وأعْطَتْهُ لقَرُور ، ولم تؤخِّرْ به ساعة ؛ وأمّا الذهب ، فإنها ، لمّا جلبَتْه من ابن الزّيْتونىّ ، بادَرَ به إلى السلطان وتحمَّلَه لنفسه .

وكذلك فَعَلَتْ خادِمُ ابن أبى خَيْثَمَة ، وأتتْ إلى قَرُور بتلك الأسباب* ؛ ٦٤ (ب) فوقع إلينا الخبرُ ، وزادنا ذلك همّاً أن بدروا به للشَّرْط الذى اشْتَرطَ علينا ؛

فأخذتُ على المقام تلك التَّسمِيَةَ ، وأرسلتُها إلى قَرُور ، قبل أن يبدأ بنا ؛ فقال : « قد أخرَجُوه لنا . فإيَّاكم أن يبقى لكم شيء عند غيرهم ! » فاستَفْهَمْتُ والِدَتى ثانيةً ، وَبَكيتُ لها ؛ فقالت : « ما لى شيء عند أحدٍ أكْثرُ ! » فأخَذْنا المَصاحِفَ ، وحَلَفْنا فيها لقَرُور أنه ما لنا شيء أكْثَرُ ، لا مُودَعٌ ولا مَرْفُوعٌ . » فأعلمَ السلطانَ بما أقْسَمْنا به ، وجعل مع هذا يبحث ويَسْتَقْصَى . فما وَجَد لنا أكْثَرَ كما قالت الوالِدة .

ولمّا لم يجِدْ شيئاً ، أتانا قَرُور ثانيةً ، وقال : « أنه قد ظهر أنه لا وديعة لكم أكْثَرَ . ولكِن أيّاكَ ان يكون لكم مالٌ مدفونٌ ! » فقُلْتُ : « ما عَلِمْنا قطُّ بدَفْنٍ ، ولا حسبْنا هذا الحساب ؛ ولا كان الدفْنُ شأننا ! وغَيْرُ مُتَعَذِّرٍ على الأمير أن يحفر القصر كلّه ، حتّى يَرَى ! » فقال لى : « إيّاك بالمُنَكَّب ! » فقلت : « ما لى بالمُنَكب إلاّ شيء من الأثاث عَدَّدْتُه لنزولى فيها : جميع ذلك بزمامٍ بخطٍّ يدى . يُرْسِل فيه الأمير ويأخُذ به ! » فقال لى : « هاتِ خطَّ يَدَك بإخلاء المُنَكَّب ! » فبادرتُ على المقام . وأصاب الزِّمام بالمُنَكَّب على الصِّفة التى وَصَفْتُ . وكان الجُنْدُ بها قد تَرَبَّصُوا ، وقامت الرعيّة ؛ فطلب خطَّ يدى بالإخلاء .

ولمّا صحّ عنده براءتُنا من جميع الأشياء، أتانا قَرُور لتحصيل ما بقى. والعَجَبُ منه فى تلك المُدّة أنّه أتانى بسِفْرٍ كبيرٍ ، وقال لى : « أقْرَأْه ! فإنّ فيه جميع الأعلام التى رأى الناسُ لنا بمُلك الأندَلُس ، وفيه عباراتُها ! » ولا أدرى ما أقْرأ ، [ولا أسمع] ، أكثر من قوله لى بهذا اللفظ : « ليس كذا هو ؟ خَبِيتَ الأموال ، لا [بقى لك] منها شىء ! » ولمّا وقف على جميع ما فى الخباء من وطاء وثيابٍ ، رفع بذلك كتاباً إلى الأمير ، وأعاد الفَتّشَ ؛ يَجِدْ غَيْرَ ما رآه* أوّلاً .

٧٥ — نفيُ الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلمّا خُبِر بما فى التّسْمِيَة أنّه لا غِنًى للإنسان عنه ، سَوّغَهُ لنا مع ثلاثمائة دينارٍ وثلاث خَدَمٍ ، أمرَ لنا بها ، وأعَارَنا دَوَابّ[1] خمسةً لنقلانِ الأثاث كلّه ، وأمَرَنا بالنهوض إلى الجزيرة الخضراء ، وقال : « تَنْتَظِروا بها السلطانَ حتى يَرِدَ عليكم . » وأعطانا من المُرابِطين مُشَيِّعين مَنْ يُؤنِّسُنا ويتكَفّل أمورَنا . فشكرنا له ذلك ، وتحرّكْنا على المقام ، إذ كان الحفزُ منه فى ذلك شديداً .

وكُنّا طولَ طريقنا جازعين ، لا ندرى ما يذهب إليه بنا ، ولا ما الإشارة فينا . ولقد كنتُ أرى المُرابِطين ينزلون بمَنْزِلٍ ، أو يَحتلّون فى موضعٍ ، فأقول : « إنّ ذلك لشىء أُمِرُوا به ! » فكنتُ طريقى ذلك تحت جزعٍ وهلعٍ ، أسألُ اللهَ أن يُكفّرَ بها السيئات ، ويجعلَها آخرَ مصايبنا بعزّته ؛ إلى أن وَصَلْنا الجزيرة .

فأُرْسِلْنا إلى سَبْتة ؛ وَدَخَلْنا البَحْرَ فى يومٍ عاصِفٍ ، أدْرَكَتْنا فيه أهوالٌ لم نَكَدْ نسلم منها إلّا بالأجَل الذى لم يحضر ؛ حتى خَرَجْنا إلى سَبْتة ، بعد أن قيل لنا : « فيها تنتظروا الأمير ! » كما قيل عن الجزيرة . فزادَنا ذلك قَلَقاً .

ثُمّ نُقِلْنا إلى مِكْناسة الزّيْتُون . وتَلَقّانا الأميرُ سِيرُ ، وأنّسنا ، وأخْبَرَنا أن مُقامَنا عنده إلى أن يَرِدَ السلطانُ من الأندلُس . وأرْسَلَ إلينا مائةَ دينار . وعند حُلولِنا بها ، أيقنّا بالمُقام فيها . وبقينا على تلك الحال ، قد

(١) أصل : دوابّاً .

فُقِدَ ما كان بأيدينا ، وأحْوَجْنا إلى بيع ثيابنا التى تُرِكَتْ لنا بعد أن استَحْوذ قَرورٌ وحاشِيَتُه على أكثرها (فكلٌّ يَدٍ وما انْهَبَت !) ، لم يتركوا لنا إلّا مالا نَظَرَ له على نَزارة ما أُبْقِيَ . والسلطانُ — أيّدَهُ الله ! — غافِلٌ عن ذلك ، لم يمكن الشكوى إليه ، إذ كان قَرورٌ واسِطةً ، وما كنت أتشَقَّى من ذلك أكْثَرَ .

ومن أعْجَب الأشياء أنَّه ، عند حلولى بمكناسة ، [كتب الىَّ] يقول لى : « أخبِرْني عن الخاتم الذى خَرَجْتَ به ! » [وقد كنتُ] أخْرَجْتُه من إصبعى وبِعْتُهُ بعشرة دنانير ؛ فراجَعْتُه نعلمه* بحاجتى إلى ثَمَنه . وإنَّما ٦٥ (ب)
أراد أخْذَه لئلّا يُبْقِى لنا شيئاً ، ويتقصَّى الجميع ؛ وعَلِمَ أنّه لم يَبْقَ لى غَيْرُه .

ثمَّ إنَّه وافانى من عند السلطان ثلاثمائة دينار أُخْرَى ، وأنا بِمكْنَاسَة ؛ وخاطَبَنى بكتاب يَعِدُنى بكلِّ جميل ، ويقول لى : « لا أنْسَاكَ ما بقيتُ ! » فسرَّنى ذلك — أحْسَن الله جَزاءهُ ! — ؛ فلقد كان أرْفَقَ بى بَعْدَ الله من كلِّ أحَدٍ . وأعْلَمَنى أنَّه ، إذا وَرَدَ مَرّوكُش[1] ، أكونُ معه حيثُ ما كان ، إكراماً لنا وإيثاراً . فعَلِمْتُ أنّى منتقلٌ عن مِكْناسة ، إلاَّ أن الروعَ كان أفْتَرَ ، إذ لم يمكن أن تُؤَخَّرَ العقوبة إلى ذلك الأمد . وقَرُورٌ ، مع هذا ، لايَدَعُ طَلَبى عند السلطان ، على إحسانى إليه ، جِبِلَّةً قد جبله الله على بُغضى ، مع قِلّةِ رحمتِه ، وقساوةِ قلبِه ، ودنأته ولُوْمِه .

---

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ — عزل الأمير تَمِيم صاحب مالَقَة وأخى عبد الله. نفيُه

وبَلَغَنا فى طَرِيقِنا ذلك ما كان من ثقاف أخينا تَمِيم بَعْدَنا ، وأنَّه ، لمَّا كان فى مدَّة كَوْننا بغَرْناطة لإخراج الأموال ، ونَحْنُ على تلك الحال مُرَقَّبين فى الخباء ، كان تَمِيمٌ المذكور يزورنا ، ويتكدَّر عَلَيْنا للذى يلزم من حُبِّ القرابة وصِلَةِ الرَّحِم . وكان قَرُورٌ ، فى هذا كلِّه ، يرمقه ببَصَرِه ، ويعتقد فى نفسه لذلك شَرًّا ؛ وصوَّر عند السلطان أن مالا أخْرَجْناهُ مِنَ المالِ مَوْدُوعٌ عنده ، ليَسْلَم لنا بسَلامَتِهِ ، مع ما زِيدَ فيه من الطَّلب ، أن قيلَ للسلطان : « ثَقَفْتَ صاحِبَ غَرْناطة ؛ وأخوهُ منه ! وإن تركْتَه ينصرف إلى بلده ، طلَبَكَ بالثار ، وأفسَدَ عليك ما ترجو صلاحه ، مع شرَّته وحدَّته ! فهو بذلك مَرْسُومٌ مَعْروفٌ ! فعاجِلْ بثقافه ، يُصْفَى لك ما تؤمِّل ! »

وكان قبل ذلك ، على ما أعْلمنى أخى المذكور ، قد أنَّسَهُ السلطان ، ووَعَدَهُ بصَرْف بلاده إليه التى صارت إلىَّ ، وقال له : « لَسْتَ من أخيك [بالمسؤول ؛ وأنتَ أظهرْتَ لى] الطاعة ، وأجملتَ المُعاشَرة ، وإنَّك أوَّلُ مَنْ ضرَبَ الدَّراهِمِ [المُرابِطِيَّة] . والآن تستحمد عاقِبةَ رأيك ، ونجعل لك بتلك المَزِيَّة على أقرانك ! » فطمع الصبىُّ بذلك ، وشرِهَ إليه : كلُّ ذلك خِذلانٌ [اغترَّ به] * ملوكُ الأندلس ، وأسعد من أجْله المُرابِطون ؛ ٦٦(ا فعَمِيَت البصائر ، وقويَت الشهوات ، وامتدَّت الآمال بحَيْثُ يَنْبَغى لها أن تقصر .

فلمَّا هَمَّ به ، أُخِذَ فُجأَةً لئلاَّ يشعر ، فيغيب المال الذى اتُّهِمَ به ، ويَفِرّ . ونال من قَرُور هوانًا كثيرًا ؛ ولم يترُك له سَقَطًا ؛ وبيعتْ أسبابُه

فى موضع مَحَلّته : قِيمَ لها ثَمَّ سُوقٌ . وأُلقى فى الحَديد ، وأُمِرَ به إلى السُّوس . ولمّا كان طَريقُه على مِكْناسة ، لَقَيْناهُ ؛ فأَخبرَ بهَوْل ما قاسى ، وبَصُرْنا به ، وهو على تلك الحال قد شقى بالكَبْل لعِظَمه ، لا يقدر أن يتحرّك به . فأوجب ذلك ما وُسِمَ به من الشرّ ؛ وأنّ أهْلَ مالَقة رفعوا إليه حينئذٍ أفعالاً قبيحةً ، وأباذِىَ سيِّئةً أسْداها إليهم ، على ما ذُكِرَ ؛ فاتّفقَت الأسبابُ . فلم يُرِد الأميرُ أخذَه إلاّ ببيِّنةٍ ؛ إلى أن وصل السُّوسَ ، ووصَّى به أميرُ المسلمين إلى بَزْلَف ، وبالَغَ فى إكرامه . وكان معه فى عافيةٍ ورَغدٍ من العيش . وفوّض أمْرَه إلى وُلاةِ السوس بعد بَزْلَف .

الفصل الحادى عشر

عزل بقيّة ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

---

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوة ، بعد أن أكْمَل ما شاءه من أمر بنى عَبَّاد وصاحِبِ المَرِيّة :

ونحنُ ذاكِرون منها ما بَلَغَنَا منها ، مِمّا يقبله العقلُ ، لا بتخليط الناس ؛ ونَخْتَصِر من الوصف ما يُغْنِى عنه الإكثار : فإنها أمورٌ لم نُشاهِدْها ، فنُخبِرَ عن يقينٍ وإطناب ؛ ولا غابت عنّا كلَّ الغياب ، فنجهَل مَصْدَرَها ومَوْرِدَها ، أنّ الذى كُنْتُ فيه أشْغَلُ وأكْرَبُ من الْتِفاتٍ ما حدث بَعْدَنا لقلَّة المبالاة بما لا يغنينا منها ، ولشُغْلِ خواطِرنا بما دَهَيْنا به ، على أنّ ذِكْرَ ما سُمِعَ ، ونحْنُ قد أمِنّا من المَوْتِ ، أيْسَرُ من ذِكْرِ ما عايَنّاه ، ونَحْنُ جازعونَ منه . فحقّ لنا أن نذهل عن عِلْمِ جليّته بالمعاينة ، وعن وَصْفِه بعد الأمان ؛ فإنه من ذكَرَ الهَوْلَ ، فكأنّه فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ مَجِيئِهِ إلى غرناطة ، قد وعد المُعْتَمِدَ بها . ، وقال له : « أنا رجلٌ مَغْرِبِىٌّ ؛ وليس قَدَمَى أخْذُ مالٍ ولا

بلادٍ !* وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتتوقّع عليها من الرومىّ. وليس ٦٦(ب) غَرَضى أكثَرَ من تخليصها؛ فإذا صارتْ فى يدى، ولا يُمكِنُنى إمساكُها لِبَيْنِ بلاد الأندلُس من العِدْوة، وضَعْتُها عند ذلك فى يَدِك: فتكونُ أعْلَمَ بما تَصْنَعُ بها، وأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين. »

فلَمْ يَشُكَّ المُعْتمِدُ أنّ ذلك منه كائنٌ؛ وَعَمِلَ حساباً آخرَ أن قال فى نفسه: « إنْ لم يتهَيّأ له أَخْذُها بقعود صاحِبها عن الخروج إليه، فَلَيْسَت مِمّا تُؤخَذُ من وقفةٍ واحدةٍ! ستنجرُّ الحالُ من أجْلِها، وتشيخُ عليها المحَلّات، كما صُنِعَ بلِيِّيط؛ وتدخل الشتوة، فيحتاجُ إلى الانصراف، وتبقى هذه المَعاقِل التى طاعت للأمير أكُونُ زعِيمَها. وفى خلال ما يتلوّى أمْرُ غرناطة، احْتِيجَ إلىّ، وكان لى بذلك الصولةُ على الفريقَيْن، ولا نَخْلَى من بَرَكَتِها! »

وكان الحبيبُ إليه أن تَبْقى على ما ذَكرناه، إذ لا يعلم، عند حصوله عليها، ما تكون قَرْعَتُهُ معه، كالذى كان. وسكت عَنّى فى الأمْر؛ ولم يُرِ الانكشاف بسرِّه إلى رَئيسٍ يفشى عليه، غيْر رُموزات، إذ ذاك لا تنفع. ولو قال لى: « امْتَسِكْ! » فأنا أحْوطُ على حالى، أو: « اخرُجْ! » لم أُطِعْهُ ما تهمه؛ ولا يمكن أن يعطينى تَقْوِيَةً، فيفتضحَ عند المُرابِط. إنّما كان صَنْعُ الأمير أن يَطّلِع وَيرَى، عسى يتهيّأ له فى النصبة شىء، أو يَسْلَمَ من معرّتِهِ؛ قد تنشّبَ، ولم يَجِدْ مَحِيصاً غير ما كان بسبيله.

وكذلك ابنُ الأفْطَس معه على تلك الحال. وَصاحِبُ المَرِيّةِ فى المَرِيّة لم يتحرّك: كلُّ أحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمْرِ غرناطة؛ قد أبْهَتَهم أمْرُها، وأقْلَقَهم.

ولمّا بصرتُ تألُّبَهم عليّ مع الأمير، خاطَبْتُ كلّ واحدٍ منهم بكِتابٍ أقولُ لهم : « هذا الأمرُ مُنْجرٌ إليكم ! واليوْمَ بي وغَـداً بكم ! » فلم يمكنهم قِراءةُ الكُتُب دُونَه ، وعرضوها عليه . فخنق عليّ ؛ وكُتِبَت الأجْوِبة بإملائه ، يقولون : « إنّما تُريد أن تَلْطَخْنا بأفعالك ،* ونحن قد ٦٧ (أ) برّأنا اللهُ منها ! » وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب : فِعْلُ من قد وَجِلَ ، ولم يقدر على أكثَر ما قدّمْنا ذِكرَه ، مع الطمع وعَمَى البصائر ، كما وَصَفْنا قَبْل :

وكان رُسلُهم إليّ قبلَ ذلك يحضّونى على الامْتِساك والتجَلُّد . وقال ابن الأفْطَس : « انا أعتذِرُ عنه ! » ولم يَرَوا كَتْبَ كِتابٍ خَوْفاً من أن يكون ظهيراً عليهم ، غيْرَ إهداء ذلك على الألْسِنَة . فعلمتُ أنهم قَوْمٌ قد أسْلَموني إلى طاقَتي ؛ فإن كانت لي ، لم تَدْخُل عليهم داخلةٌ ؛ وإن كانت عليّ ، لم يُفْسِدوا وجُوهَهم مع المُرابِط ؛ وحسْبُه اجتهادُهم معه بأنفُسهم ورجالهم .

فرأيتُ حالي في هذا كلِّه تالِفةً ، وعَلِمْتُ أنه ، طُولَ مدّة امتساكي لو امْتَسَكْتُ ، لكان سلاطينُ الأندلُس أجمع متألِّبين على فِتْنَتي مع رَعِيّتي ، لِمَا يلزمهم من الطاعة للمُرابِط والطمعِ ، عسى يحْصُل لأحَدٍ مزيدٌ في بلاده ، ولا تمكن لأحَدٍ منهم مَعُونتي ولا الاسْتِفْساد من أجْلي . فنَحْنُ لم يُعِنْ بَعْضُنا بَعْضًا على الرُّوميّ ! فكَيْفَ على المُسْلِم ، مع حَرْب الكانون وقِيام أهل البيت ! هذا ما لا طاقةَ به لمن عقل ! ولم نظنّ نحن أنّ الأمْرَ ينفتق إلى هذا كلِّه ، ولا نُعاجل هذه المُعاجَلة . ولو عَلِمْنا ذلك ، لم يكن أحدٌ يتقدّمني إلى الخروج إليه ، إذ ما سوَى ذلك على هذه الرتبة لا ينفع .

وإنَّما طَمَعْنا بما قَصَصْناهُ قَبْلُ ، وحَسْبُك !

وإنه، لمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجْرَ على قياس، خَرَجْنا إليه، ولم نَلْتَوِ ساعة .

٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

ولم يُقدِّم أميرُ المسلمين شيئاً ، وَقْتَ خروجي إليه ، على إرسال جَيْشٍ إلى صاحب المَرِيَّة ، قَبْل ابن عَبَّاد ، إذ كان بتَخَلُّفِهِ مَوْسُوماً بالنفاق ، ولأنَّه مُعاقِدي على ذلك ، وأنَّ تَخلُّفَه لا يكون إلا عن اتِّفاقٍ .

فلم يُحَرِّك منها مَوْضِعاً إلاَّ وأجابَ . وتناثَرَتْ مَعاقِلهُ أجمع ، حتى بلغ العسكرُ إلى باب المَرِيَّة . وكان الرَّجُلُ — رحمه اللهُ — ساعةَ ورود الخبرَ عليه بخرُوجنا ، انطبق له ، واعتلَّ لما رأى من هَوْله وسوء عاقبته . وقضى عليه وصول العسكر إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأَفْرَعَ لها وماتَ .

*وَلِيَ بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة ، الناهِضُ إلى قَلعة حَمَّاد على ما نَصِفُه بعد هذا . ٦٧ (ب)

وقد كان ، لِمَا رأى من طَلَبِ [المُرابط لبلاده] ، قد وجَّه إليه ابنه الآخر ، يَعِظُه ويُعلمه بوَجْه الحقِّ فيه ، إذ كان ينْتَحِلُ فِقهاً ؛ وذلك مما ذَكَرْنا من قلَّة المَيْز بالأحوال ، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتعلةً ، ويطمع إطفاءها بالوعظ ! فساعةَ وصوله ، أمر الأمير بثقافه على المقام فى الحديد . وتحيَّل أبوه فى انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارًّا من المُرابِط : اخْتَلَسَهُ من مَوْضِعه رَجُلٌ له شَبَّاك ، قذف به فى البحر حتى سَلِمَ إلى والده .

وفتر الطلَبُ على المريَّة للشغل بما حدث بأمر ابن عبَّاد ، وأنَّه أوكَد الأشياء . وإنَّ ابن صُمَادِح ، لما حضرته الوفاة ، وصَّى ابنه هذا المستَخْلف ، وقال له : « أمْنَسِكْ فى هذه القصَبة طولَ مقام ابن عبَّاد فى مُلْـكِهِ

بإشْبِيلِيَة ما استَطعْتَ ! فإن رأيتَ ابن عبَّاد قد خرج ، فلا تتربَّص ساعةً واحِدةً ، وَأَنْجُ بنفسِك إلى القلعة ، وأَدْخل البَحْرَ بما قدرته عليه من ذخائرك ، إذْ لا مَطْمَعَ لك فى البقاء بَعْدَه ! »

فحفِظ وصيَّةَ أبيه ؛ وساعةَ ما انقضى فى إشبيلية ما انقضى ، تَخَيَّرَ قِطعةً أشْحَنَ فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره ، وكتم أمْرَه ، وخرج باسم أنَّه ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهديَّةٍ لِيُهَدِّنَ بذلك أهل المرية ؛ فسُرُّوا بفعله ، وقالوا : « هذا هو الصواب ، قبل أن يحلَّ بك ما حلَّ بغيرك ! » حتى توسَّط البَحْرَ ، وأعْطى للنَّواتِيَّة مالاً جسيماً ، وأخبرهم غرَضَه . وخرجَ بالجزائر ، وأكْرَمَه صاحبُ القلعة ، وأمَّنَهُ فى ذخائرِهِ ، وأكرَمَ ضِيافَته ، وخيَّرَه حيث يحبُّ السُّكْنَى ؛ فاختارَ تَدَلَّس ، لأنَّها على البَحر ، وليغيبَ عن عين السلطان ، خَوْفًا من الطلَب . وانْخَمَلَ فى ذاتِهِ ، وأخَذَ لنفسه بالأرْجَح فى أكثر أحْواله .

٧٩ — توتُّر العلاقات بين الأمير المُرابطى والمعتَمِد

وإنَّ المُعْتَمِد بن عَبَّاد ، لمَّا بصر بدخول الأمير غَرْناطة ، واستنجز وَعْدَه ، فَلَمْ يُلْتَفَتْ ، ورأى ثقافَها بالمُرابطين وإخراجَ من فيها من الحَشَم وكلَّ من طمع بالبقاء على حالِهِ ، جزع جزعاً شديدًا ، وخاف أن يثنَّى به ، إذ رأى الأميرُ مَذْهَبَه فى البلاد واستصراخَه . * ولم يمكن للأمير أن يأخذَه بغير ذنب : ٦٨ (ب) فيقبح ذكره . وأشار إليه المُرابطون بثقافه ؛ فأبَىَ حتى يلوحَ قِبَلَهُ ذَنْب يؤخَذ به . ثُمَّ إنه ، بعد أن نهضَ واتبعَه قَرُور يقول له : « الأميرُ يحتاجُ إلى تذكارك ببعض الأمْر ! » فأبى ، ومضى لوجْهَته ، فارًّا بنفسه ؛ وأطوَى المَراحِل ، حتَّى وصل قُرْطُبَةَ . وقال فى طريقة إلى ابن الأفْطَس : « انْجُ

بَنفْسِك ! فقد تَرَى ما حلَّ بصاحِبِ غَرْناطة ، وغَدًا بنا ! »

ثمّ إنّه ، بعد أن ظَهَر للأمير نُفُورُه ، وَجَّهَ إليه يأمُرُه بالقدوم عليه ، ويقول له : « نُرِيدُ الاجْتِمَاعَ بك فيما نحنُ بسبيله . » : ليقولَ : « لا ! » فيَجِدَ السبيلَ ، كما فعَل . فراجَعَهُ ابنُ عَبَّاد : « إنَّ ذلك كان وَقْتَ كُنْتَ ضَيفاً ، وتُريدُ الغَزْوَ ؛ فلزِمَتْنِى معونتُك بنفسى وجميع أموالى ! والآن إنّما أَنْت لى جارٌ مِثل بادِيس وحفِيدِهِ ؛ وأنْتَ أَقْدَرُ مِنِّى على الشرِّ بجُنُودِك ! فلا يُمْكِنُنِى التغريرُ بنفسى ، عسى أنك تُرِيد أَخْذَ بَلَدِى ، إذ لا تصحُّ لك غَرْناطةُ إلاّ بما يضاف إليها من الأنْدَلُس ! » فشرط عليه أميرُ المسلمين أن يلتزم الرِّباط ، ويقطع القبَالات ؛ وتحامُلاً كثيراً عَلِمَ أنه لا يفعله ؛ وفى تركِهِ أوْ فعله قطعُه . فامْتنعَ ابنُ عبّاد جَهْدَه ، وبَقِى على الشرّ .

وبدأ [المُرابطُ] بمُداخَلة مَعاقِله ؛ فانْتَثَرَتْ ، كما جرى لغيرها ؛ وقامت عليه الرعايا بكلِّ قطرٍ . فأرسل إذ ذاك إلى الرومىّ ، يستغيث به ؛ فقعد عنه ، خِيفَةً من التغرير ، وهى حُجَّةُ أمير المسلمين على ابن عبّاد ، أن قال له : « ظَفِرْتُ بكُتبِك إلى الرُّومىّ وإرسالِك عنه ! » فقال المُعْتَمِد : « لو فَعَلْتُه قَبْلَ أنْ تُؤْخَذَ بلادى بَطَرًا وأَشَرًا ، كُنْتُ أُلام ! وأمّا بعدَ أن رأيتُ طَلَبِى فى الروح ، اضطرّتْني الضَّرُورةُ إلى ذلك للمُدافَعة ، ولو يومًا واحِداً ! »

وهى كانت عِلّةَ الجميع ؛ وبذلك هلك ابنُ الأَفْطَس ، ومِنهُ أُتِىَ .

٨٠ — الاستيلاء على قُرْطُبة وإشبيلية ونَفىُ ابن عبّاد

فلمّا تبيّن للأمير خِلافُه وقُعودُه عنه ، شاوَرَ الفُقهاء فى أمْرِه ؛ فأشارُوا عليه بغَزْوِه . فكان غَزْوُهُ بعد إبلاء عُذْرٍ ؛ ولهذا ما أخّر(1) به لِيُهلِكَ

(١) أصل : « وخر » .

من هلك عن بَيِّنةٍ ولتكونَ له الحُجّة على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرَ سِير * بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونحنُ بمِكْناسة . ونازلَهُ مُدّةً طويلةً ؛ ومَعاقِلُه قد ذهب أكْثَرُها بالطاعة . ٦٨ (ب)

واقتتح الأميرُ بخلال هذا مدينةَ قُرْطُبة ، واستُشْهِدَ فيها ابنُه المأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْر — رحمهم الله — بمُداخَلةٍ من أهْلِ البَلَد ، مع انخراق المدينة ، وأنّه لم يَمكن ضَبْطُها إلّا بأَهْلِها . وكان المُعْتَمِد حَذِراً على قُرْطُبة ، يرجو بَقاء حاله بثُبوتها ، ويُوصى ابنَه بالصبر ، ويقول له : « لا تجزع ! فالموتُ أهْوَنُ من الذّلّ ! ولَيْسَ السُّلطانُ إلّا من القَصْر إلى القَبْر ! »

فلمّا أُخِذَتْ قُرْطُبة ، انقطع الرجاء . وضاقَتْ إشْبِيلِيَة ؛ ونفد ما كان بيده من أجْل النفقات ، إلى أن دخلها الأميرُ سِير عُنْوةً بمُداخَلةٍ من بَعْض أهلها . وهلك فيها عالَمٌ ، وانكشف الحُرَمُ ، إذْ للجَيْش مَعَرّةٌ لا تُملَك بَعْدَ صَبْرِهم على مَلِكِهم . وظهر لِسِير من اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك ، وقال : « لو أنّى أقصد[1] مدينةَ الشِّرْك ، لم تَمْتَنِعْ هذا الامْتِناع ! »

وكان دخولها من ناحية الوادى ، وهو أسْهَلُ الأماكن . ولولا صَبْر أهْلها وكَثْرة أقارب ابنِ عبّاد ، لم يستطِع [المُعْتَمِدُ] على شىء ؛ فكأنّهُ غُلِبَ بالثِّقَاتِ الذين كانت الأبوابُ بأيديهم ، ووَكّلَهم بمَنْ سِوَاهم ، إلى أن لم يَكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ . وكان دُخولها يوم الأحد فى [٢٢] رَجَب [سنة ٤٨٤] ، فى التأريخ الذى دُخِلَتْ فيه غَرْناطة بَعْدَها بعامٍ كامِلٍ .

---

(١) أصل : « نقصد » .

ودُخِلَتْ قَبْلَها قَرْمُونَة ؛ ومات فيها عالَمٌ كثيرٌ . ثُمَّ الْتَوَىٰ أمْرُ رُنْدَة ؛ ونازَلَهَا قَرُور ، إلى أن ظفر بالراضِى ، وخَدَعَهُ ، وحصل على أمواله ؛ ثمَّ قَتَلَه ، خَوْفاً من أن تفتضِحَ تلك الأموالُ ؛ وقيلَ إنَّ ذلك لم يكن عن رأى السلطان . وأمَرَ بقَتْلِ كلِّ من ظفر به فى رُنْدَة المذكورة من الأحرار والجند المُقاتِلين . وقُتِل فيها رَجُلٌ من العَرَب يُعرف بأبى الصِّمْصَام ، جرْأةً على الله ، ليأْخُذَ بِنْتَهُ ؛ ونكحها من بعده ، وحصل على مالِهِ . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾(١) . وامْتَسَكَ بالعَبِيد ، وصيَّرَهم إلى السلطان .

ولمَّا ظفر بابن عَبَّاد ، فَيَّأَ الأميرُ سِيرُ خدَمَهُ وعَبِيدَهُ ، حاشَىٰ أمَّهات الأولاد . وأمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه . فقدم إلينا بِمِكْنَاسة مع دَخْلَتِهِ ؛ * وبَقِيَ فيها إلى أن سِيقَ معنا إلى أغْمَات . ٦٩ (١)

٨١ — قفول يوسف بن تاشفين إلى مرَّاكش

وإنَّ أمير المسلمين ، لمَّا فتح الله له فى هذا كلِّه ، أخَذَ فى الانصراف إلى مَرَّوكُش ؛ وقد بلغ من آماله غايتَها ، وامْتَلَأتْ يَداهُ بالأموال ؛ وقسم على أجناده بعض من الفَيْءِ ، وأهْدَىٰ إلى الصَّحْراوِيِّ عَمَّةً من تلك الذخائر .

وأمَرَنا أن نَسْتَوْطِنَ أغْمَات ؛ فأتَيْناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل ، وأنزَلَنا بداره الصُّغْرَىٰ فى الحريم ، ولم يَزَلْ يَتَفَقَّدُنا من إنعامه ، كَيْفَ ما هَيَّأَ الله على يديه ، ووَجَدْناهُ بعد الله أرفَقَ بنا ، وأحْسَنَ مَذهَبٍ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه مِنَّا إحسانٌ .

(١) سورة هود : ١٢٣ = سورة النمل : ٩٣ .

٨٢ — عزلُ المتوكِّل بن الأَفْطَس صاحِب بَطَلْيَوْس ومهلكه

وَبَقِيَ ابنُ الأَفْطَس يتخدَّم أمْرَه؛ وكان يُدَارِى ابن الأَحْسَن، وينفَعِلُ له فى كلٍّ ما أراد، طمعاً منه فى البقاء لحَيْنِه؛ وهو، فى ذلك كلِّه، يُنْهِشُ، ويرى آيَات تَدُلُّ على الشرِّ، وأنَّ المذهب فى أَخْذِهِ. ودَاخَلَ عليه ابن الأَحْسَن فى بلده؛ فشعر بذلك، وتيقَّظ له، واستوحش من المُرابطين، وداخل الرُّومِيَّ؛ فحقَّتْ عليه المُطالَبة؛ وسُعِيَ عليه جَهْراً، بعد السَّعْى سرًّا؛ وهو، فى ذلك كلِّه، مِثْل السَّمَكة العاجزة المَوْصُوفة فى «كتاب دِمْنَة»: لم تَزَلْ فى تَقَلُّبٍ وتَرَدُّدٍ، حتَّى أخذَها الصَّيَّادُ؛ وهو كذلك يُرِيدُ أن يُخَلِّطَ: يُخَاطِبُ الأميرَ بإظهار الطاعة والمُشارَكة فى أمر الرُّومِيِّ، ويُخاطِب أَلْفُونش ليستعينَ به على مُلِمَّةٍ، إن دَهَتْهُ من المُرابِطين. وكان ابنُه المنصورُ داهِيَةً بالأمور، قد أُشْرِبَ قَلْبُه الحِذْرَ والخَوْفَ، وقد رأى طريقةَ ابنِ الأَحْسَن، وسَعْيَه على أبيه؛ وهو رَجُلٌ سِجِلْمَاسِيٌّ فَقِيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فى أُمور الأمير، استَوْطَنَ بَطَلْيَوْسَ، واكتسب فيها مالًا؛ يَرَىٰ أنَّ كَوْنَه فى الثَّغرِ لِمَا ينفع المسلمين، وهو يعمل فى خَلْعِ صاحِبِها.

وكان ابنُ الأفطَس الشيخُ مُتَّبِعاً لهَوَاهُ؛ لو سألَهُ روحَهُ ما لا يَحِلُّ عليه، [عمل] به، مُتَوَقِّياً لشرِّهِ. وكلُّ شيء يحذرُه الإنسانُ ويكرهُه بقلبه، ولا يكون عليه بالخيار، فهو مُتَوَرِّطٌ لا مَحالة، فيه؛ فإن المُدَاراة فيه ممَّا لا تنفع، والاسْتِمالُ مُنقَطِعٌ؛ ولا خَيْرَ فى مُجاوَرةِ عدوِّك عند

*الحاجة إليه ، إلّا أن تَدَرّى عند ذمِّ العاقبةِ معه أنَّكَ مُسْتَغْنٍ عنه بغَيْرِه ؛ ٦٩ (ب)
وإلّا ، فأنتَ له طُعْمةٌ .

فقال له ابنُه المنصورُ : « هذا التَرَدُّدَ لا يجزئُك ، ولا يغنى عنك ما تُرِى من إظهارِ الطاعة للمُرابط ! ولا طاعةَ أهْلِ بَلَدِكَ لَكَ ومَحَبَّتهم التى كانوا يعرضون عليك ! فلو أنَّهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ فى عزيمةٍ ، لَماَ أبقَوا عليك ؛ كالذى رأيتَ صُنِـعَ بغَيْرِكَ ! فإمّا أن تُصْـفِيَ للمُرابِطِ ، فلَنْ تَبْلُغَ رِضاته إلّا بالانخلاع له ووَضْعِ البَلَد فى يديه ؛ ونَقْنَعْ بأن تـكونَ مُتَحَرِّيًا ، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة ؛ فعاجِلْ ذلك ، تَجِدُ عنده الأمانَ ! وإن نفَرَتْ نفسُك عنه ، فلا تتأخَّرْ عن الفِرار منه بنفْسِك وأهْلِك وجميعِ أموالِكَ ! يجعلك الرُّومىُّ فى أىِّ بلدةٍ شئْتَ ؛ ورُبَّما سَوَّغَها لك ، كما فَعَلَ بابن ذى النُّون فى بَلَنْسِيَة ؛ وتَترُكُ مدينة بَطَلْيَوْس ، لا تدخل على المسلمين داخلةٌ ؛ فيحصل لك النجاةُ بمُهْجَتِك ، وسـلامةُ البَلَد للمسلمين ! » فقال له أبوه ، وسَفَّهَ رَأْيَه : « لا أترُكُ مَوْضِعِى ! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ ! » فخرج عنها ابنُه ، ونَجَا بمالِه وأهلِه ، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه . وبَقِىَ الشيخ لحَيْنِه ، حتى نفذ أمرُ الله فيه .

وإنَّ الأمير سِيرَ ، لِمَا أراد من التخدُّم لأمْرِ بَطَلْيَوْس والحيلةِ فيها ، لم يَثِقْ بنفسه فى ذلك ، لحدوثِ ولايتِهِ الأندلُس ، ورأى أنَّ الداء لا يُعانَى إلّا بدَوَائِه ، ولا يُلقَى أحَـدٌ إلّا بحَجَره ؛ فتخيَّرَ لذلك ابن رشِيق ، لأنّه أنْدَلُسىٌّ ، عالِمٌ بالمكايد فى الفتون ، مع ما كان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِّيط ، وأنَّ ثقافَه ذلك الوقتَ لم يكن إلّا على رغْمٍ منه بمُضَادَّةِ قَرُور

له . فانتهز الفُرْصةَ فى إطلاقه ، والمُكافأةِ له على صَنِيعهِ بما يأمرهُ من أمْرِ بَطَلْيَوْس .

وخاطَبَ السلطانَ فى أمره ، بعد أن أطْنَبَ فى صِفَةِ حاجته إليه . فقبل قَوْلَه ، وأمَرَ بإرساله ، وألْطَفَ له القَوْل ، واعتذر إليه مِمَّا جرَى ، وأمر له بمالٍ جسيمٍ . ونَهَضَ ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامِرِ سِير ، وأنَّه مُسْتَحْيِيه ؛ فضَى . وفجِئَ الناس من انطلاقه* ما تعَجَّبوا منه وخلَّطوا القول ٧٠ (ا) فى ذلك ، كلٌّ أحَدٍ على مِقْدار عَقْلِه أو شَهْوَتهِ .

فلمَّا وصل ، تَخَدَّمَ أمْرَ بَطَلْيَوس بكلِّ وَجْه من المُداخَلة لأهْلِ البلد ومن معه فى القَصَبة من الحرس وغيرِهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقَها لَيْلاً ، ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاوَلُوهُ ، وتعلَّقوا بالسُّورِ عند الإمارة التى كانت مع من دَاخِلَه . وتُقُبِّضَ على الشَّيخ وابْنَيْهِ الفَضْلِ والعَبَّاسِ ، واحْتُوِى له على أموالٍ جسيمةٍ . وَأمَرَ سِيرُ بإخراجه للقَتْل ، بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشدَّهُ على المال ، ونقم عليه ما كان من عَمَلِه مع النصارى والمَعاقِل التى أعطاهم ؛ فأمَرَ بقَتْلِه مع ابنَيْه الفَضْل والعباس — رحمهم الله — .

وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للمُرابِطين ، كأنَّه لم يكن قطُّ لغَيرِهم . وفِئَ أهْلُه وبناتهُ ، وجميعُ ما ترَكَه . ثمَّ صار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّوم ، حنَقاً لما جرَى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرَّق معهم بلاد المسلمين .

٨٣ — نشاط المُرابطين ضدّ النصارى.

استيلاء « السيد » لُذَريق على بَلَنْسِيَة

وصرف المُرابطون وجُوهَهم إلى فِتنة الرُّوم ومُقاصَاتِها ، بعد إكْمالِهم لأخْذِ سلاطين الأندلُس ؛ يقولون : « إنَّه لا ينبغى لنا قتالُ الروم ، وتَترُك وراءنا[1] الأعْداء ، مِمَّن يُوَاسِى عَلَيْنا مَعَهم ! » فكلُّها تهيَّأت بلا مَشَقَّةٍ غير إشْبِيلِيَة ؛ فوقع فيها بعض التعَذُّر ، كما قدَّمْنا ذِكْرَه . فسُبْحان المقدر الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نَصُّ ما كان ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشُّعَراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَهُ   وَلٰكنّنى عَنْ عِلْمِ ما فى غَدٍ عَمِ

ثم نشأ بعد ذلك من أمْرِ بَلَنْسِيَة ما لم يَنْبَلِجْ بها ما يوصَف ؛ فإنَّ الحديث لا يَحْسُن ذِكْرُه إلّا بَعْدَ تَقضِّى آخِرِه ؛ والقَوْسُ لا تَكبَّد إلّا بقَبْضِ طَرَفَيها ؛ فإذا استكمل الخبرَ ، طابَ إيرادُه وحَسُنَ مَوْقِعُه ، ونُمِّق بَعْضُه ببَعْضٍ . ولو أنَّنا نَدَعُ هذا التأليف إلى مُدّةٍ يتمُّ فيها خَبَرَ بَلَنْسية ، لأتينا به بَعْدَ أن يكون الظهرُ للمسلمين ، وتُرِكَ* هذا الدِّيوان مَخْرُوماً ، ٧٠ (ب) انتظاراً لِما يكون فيه أمَلٌ بعيدٌ .

واسْتِئنافُ تأريخ له فصولٌ لا يُغْنى ، لا سيَّما أنّنا أخَذْنا أنفُسَنا فى حيِّز تمامه بما يليق بالزمان ، ورُضْناها بما تستمرُّ عليه من تَرْكِ الشَّرَهِ والتَّنَزُّه عمّا فات ، وإعمال قَطْع اليأس عمّا قيل ؛ واليأس عمّا فات يُعقِّب راحةً ؛ وَلَرُبَّ مُطْمَعَةٍ تعود ذُبَاحاً .

(١) أصل : « ونتركوا ورانا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأوّل ما يَجِبُ أخذُ أنفُسِنا به إخلاصُ النِّيَّة لأمير المسلمين — أيّدهُ الله ! — وتَمَنِّى الخير له ، لأنّ صلاحَ المسلمين بصلاحه . ومن الديانة اعتِقاد ذلك ، لِمَا أُمِرَ به من طاعةِ الأيمّة والنّصح لكلّ مُسْلِم ، لا سيّما أنّه مُحْسِنٌ إلينا . ثمّ اقْتَصَرْنا على النظر فيما يخصُّنا وأنزَلْنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطّ إلّا على هذه الحالة ، واعتَبرْنا بمن كان قَبْلنا ، ونَظَرْنا لمن هو دوننا .

٨٤ — تأمُّلات فى تقلُّب الأقدار

وما حلّ بابن الأفطَس ، فشكرنا الله على ما نَجّانا منه ، وصرّفْنا وَجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وغَلّبْنا النفسَ الناطِقةَ على الحَيَوانِيّة ؛ فإنّها تحمل على الفضائل والإنصافِ ، ومَعْرِفةِ حقائق الأشياء ، كما أنّ الحَيَوانيّة تحمل على الغلبةِ ، وإيثارِ الشهوات ، والحيدةِ عن سُبُلِ المَعْرِفَة .

ورأَيْنا أنّ شُغْل البال بما مَضَى لا يَرُدُّ شيئاً غير الهمّ والكرب اللّذيْن يُنحِلان الجِسْمَ ويُذْهِبانِ اللُّبّ ، وأنّ الحَرَجَ على ما لا يكون تعبٌ للبَدَن ومَشَقّةٌ للإنسان ؛ لإنّ تقولُ الفلاسفة : لا يُلْتَذُّ بما مَضَى ، ولا يُدْرَى ما يكون فيما بَقِيَ ؛ وإنّما له لذّةُ ساعَتِه التى هو فيها ، أو عَمَلُه الذى يَجِدُه لِمَعادِهِ . فإن أعْقَبَ اللهُ بخير ، فَلَنْ نَخْسَر ما سَلَفَ من أيّامنا ، فَنَهْرَمَ قَبْلَ أوان الهَرَم ؛ وإن كان الذى يأتى أشَدّ من هـذا ، فيحقُّ اغتِنامُ ما نحنُ فيه ، ونعُدُّها أعياداً ، ونُحْدِثُ لله عَمَلاً يَرْضاهُ ؛ وإن كُنّا أبَدًا على هذه الرقبةِ بِلا انتقالٍ (وغَيْر مُتَمَكِّنٍ من ذلك) ؛ فتَوْطِينُ النفس على ما نَعْلَمُ أنّها عليه دائمةٌ ، أحْرَى وأرْوَحُ للبالِ .

ثمّ إنّى اعتبرْتُ جميع ما فى الدُّنْيا ، التى إليها يَسْعَى الناسُ ؛ فوجدتُ نفسى مُبْلِغةً منها كلّ أَمَلٍ ؛* وإن انقَطَعَتْ ، فلم نصحبْها ، ونحنُ منها ٧١ (١) على يقينٍ بتَخْلِيدِها . بل ، لكلٍّ شىء مُدّةٌ ، ولا بُدّ من تَرْكِها . والخروجُ منها فى مُدّة العُمْر خيرٌ من مَيْتَةٍ على فِتْنةٍ أو غَرْقٍ ، عَسَى بذلك أن يُعْظِمَ اللهُ الأجْرَ ، ويُكَفِّر السيِّئات . ويكون ذلك للإنسان زاجراً عن الآثام ، ويعتبرُ فَقْدَ مالِهِ كأنّه لم يكتَسِبْه برَزِيّةٍ نفسه إذ حان حينُه ، فيُقَدِّم لها النظرَ ، بتوفيق الله تعالى ، قبل الموت وحلول الفوت . والله المُسْتَعان ! لا شَرِيك له !

سُئِلَ النبىُّ — عليه السلام — عن عَلامَةِ انشِراحِ القَلْب للإسلام ؛ فقال : « هو التجافِى عن دار الغرور ، والإنابةُ إلى دار الخلود ، والاسْتِعْدادُ بالموت قبل لقاء الفوت . »

الفصل الثاني عشر

تأمّلات أخيرة بعد النفى

---

٨٥ — المؤلّف والشعر

وإذْ قد أتَيْنا على وَصْفِ بعضِ الحادثات بالأندَلُس ، ورتبةِ دَوْلَتِنا ، وما انتهَتْ إليه فيها أحكامُنا ، حسبما ساعدَتْنا عليه أذهانُنا ، ونالَتْهُ مَقْدُرَتُنا ، إلى انصرامِ الأمَد ، فَلْنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلّق بذلك من شِعْرٍ نَظَمْناهُ وَقْتَ فراغ البال وجمامِ النفس ، مع ما أعان على ذلك من النَّظَر إلى كلِّ مُسْتَحْسَنٍ ، والسُّرُورِ بطيبِ كلِّ خَبَرٍ .

على أنّنى لم أنْتَحِلْهُ قَبْلُ ، ولا كان من شأنى الأخْذُ به ، إلّا على سبيل الاستطراف والإطناب فى وَصْفِ شيء أُريدُ نَعْتَهُ . فَرُبَّما صَنَعْتُ فى البَيْتِ أو البَيْتَيْنِ أيّاماً ، أُحْضِرُ لها ذِهْنى ، وأحدُّ فِكْرى ؛ فتصدع بعد كَدٍّ ، وما أكادُ ، كالشيء المُسْتَغْرَبِ من غَيْرِ مَعْدِنِهِ . فيُنْشِدُها الكَتَبَةُ فى مجالِسِ الاحتفال للراحات ، نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشُّغْل ، كالذى يأخُذُ به الملوكُ أنفُسَهُمْ فى ساعات الدَّعَة ؛ ونُضِيفُ معها لُمَعاً من آدابٍ وسِيَرٍ تَحْضِرُنى ، ممّا يختلج فى الخاطِرِ ويُجْرِيها الإنسانُ بصُحْبَة الزمان وتَنَقُّلِهِ فى الحالات . وقيلَ لرَجُلٍ : « من أين لك هذا العِلْمُ ؟ » فقال : « قَلْباً عقولًا ، ولساناً سَؤُولًا ! »

٨٦ — استطراد المؤلِّف إلى الكلام عن طالِعه ومصيره

وكُلُّ شىء إنَّما يَنْطَبِعُ فى النشأة وحِينِ المَوْلِد . ولقد طالَعْتُ من مَوْلِدِى أشياء مَيَّزْتُها من طبائعى وأخلاقى ، على أنَّ واضِعِيهِ أَلْفَوْهُ ونَحْنُ فى حالِ الطفولَّيّة ،* لم يُوصَل إذ ذاكَ إلى معرِفة شىء من أحوالى . وكَتَمَهُ ٧١(ب)
عنّى سِمَاجَةُ مُدَّةً ، حتَّى وقع السِّفْر إلى يدى على غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فشَقَّ ذلك عليه ، خَوْفاً علىَّ من العُجْب بما كان فيه مَنْصُوصاً من السعادة . فطالَعْتُ منه عجائبَ وغَرائبَ ، إذْ كان المَوْلِدُ رَصْدِى ؛ وكان الطالِعُ الحوتَ بأرْبَع دَرَجٍ ، وصاحِبُه المُشْتَرِى فى الحادِى عَشَر مع الزُّهَرَة ؛ وسَقَطَتْ الشمسُ فى الدَّلْوِ مع عُطارِد ؛ واتَّفَقَت النَّحْسَانِ فى الثَّوْرِ بَيْتَ الأُخُوَّة والقَرَابة ؛ وصار القَمَرُ هَيْلَاجاً إذْ كان فى السابع من البُرُوج ، فصَلَحَ لذلك لأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَوْبَة ؛ والزُّهَرةُ كَدْخُدَاهُ ، دُلَّتْ بمَكانِها — واللهُ أعْلَمَ — على قَوْلِهِم ، على سِنِيها الوُسْطَى خَمْسٌ وأربعونَ سَنَةً يزيدُها المُشْتَرِى سِنِيهِ الصُّغْرَى اثْنَىْ عَشَرَ عاماً ؛ فجميعُ ذلك سبعةٌ وخمسون عاماً . واللهُ بغَيْبِهِ أعْلَمُ !

وتَكَلَّمَ (الطالِعُ) على أرْبابِ مُثَلَّثاتِ النَّيِّرِ الدالَّةِ على تقسيمِ السعادة للمَوْلودِ ؛ فكانَ رَبُّ المُثَلَّثَةِ الأُولَى زُحَلَ ، ومَعَهُ المِرِّيخ فى بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فدَلَّ على أنَّ الثُّلُثَ الأَوَّلَ فيه بَعْضُ التَّقْدِيرِ والتَّنْغِيصِ والتَكْدِيرِ ؛ ومِثْلَهُ الثُّلُثُ الثانى الذى لعُطارِد ، إذْ كان فى بَيْتِ الشَّقَاء والهُمُومِ ، مَحْسُوراً بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فدلَّ على مِثْلِ ذلك وأشَدَّ ، كالذى تَبَيَّنَ الآنَ ؛ والقسمةُ الثالثةُ للمُشْتَرِى ، وهو فى بيت الرَّجاء

والسَّعادةِ ؛ فَدَلَّ على ضِـدِّ ذلك كُلِّه ، وأطْنَبَ فى وَصْفِ السعادةِ فيه ، لا أدْرِى كيف هو ، إذْ هو بعيدٌ فى القِيـاس ، قريبٌ فى قدرة الله .

ثمَّ وَصَفَ خَبَرَ الأمراضِ ؛ فدَلَّ على الأمراض النَّفْسَانيَّة من السَّوْداء وحِدْثانِ النفس بأشياء مُخَوِّفةٍ .

وذكَرَ خَبَرَ البَنين ؛ فقال : بحيث شَهِدَ شاهِدٌ ، يكونُ الوَلَدُ ؛ وشَهِدَ آخرُ بأنَّ لا وَلَد . ودَلَّ على القِلَّةِ ، إلَّا أنَّه لا بُدَّ من كَوْنهم ، وإنْ كان ما ذَكَرْناهُ دليلًا على قِلَّتهم ؛ ورُبَّما كان ذلك فى نِصْفِ العُمْرِ . فظَهَرَ ذلك بنَشْأَتهم الآنَ .

وذَكَرَ خَبَرَ الزهادة فى الحرام كُلِّه ؛ وحَقٌّ ذلك لكُلِّ أحَدٍ ، غَيْرَ أنَّ الذى يَتَهَيَّأُ فى نَصْبَةِ المَوْلدِ أغْلَبُ على الطَّبْعِ ؛ ثمَّ نَظَرَ فى وجْهِ التَّعَفُّف ، والبَحْث على ما أوْجَبَ ذلك ، وأنَّ تلك الزَّهادة من تِلْقَاء نَفْسِهِ مع سلامةِ المُعْتَقَد ؛ فإنَّ الزُّهَرَةَ ، إذْ كانت فى أحد بيوتِ زُحَل ، ظَهَرَ على المَوْلُودِ قُبْحُ ذلك الشَّرَهِ ؛ فَتَعَفَّفَ . وقال إنَّ حِكْمتَهُ فى يدَيْه أكْثَرَ منها فى لِسانِهِ .

ورأى صاحِبَ بَيْتِ العُرْسِ ، وهو عُطارِد ، فى بيت زُحَل ؛ فدَلَّ على المَيْلِ إلى الصِّغارِ ذوى الطبائع العُطارِدِيَّةِ ، مع مُنافَرَةٍ لا تُبيحهُ الشَّرِيعةُ ، إذْ لم يَكُنْ بَيْنَ صاحِبِ العُرْسِ وصاحِبِ الطالِعِ مُواصَلَةٌ ولا مُشَاكَلَةٌ .

كُلُّ هـذا قد عَلِمْناهُ من أنْفُسِنا ، كأنَّهُ حاضِرٌ معنا ، ومُطَّلِعٌ

علينا . فلم نَشُكَّ فى صحَّتِه بإذْن الله ، فسُبْحانَ مُصَرِّفُ الأَيَّام ومُجْرِى الأَفْلَاك !

(الفَلَكُ ما استدار من الأَشياء ؛ وهو قولُهُ تعالى : « كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون »[1] . وسَمَّاها سَمَاء ؛ فإنَّ العَرَبَ تدعو كلَّ ما ارتفع سَمَاء ؛ فهى ، لارْتِفاعها علينا ، سماء ؛ وهَيْئَتُها : فَلَكٌ ، لا سَماء .)

٨٧ — آراء المؤلِّف فى التنجيم

ولا يَعْلَمَ الغيْب إلَّا الله ، غَيْرَ أنَّ أهل العَقْل منهم يقولون إنَّما هى دلائلُ على الخيْر والشرِّ ، ولا يُعْلَمُ بها الجَلِيَّةُ ، كالغَيْثِ المنْزَل دَليلٌ على نبات الزرع به ، أو كالنار المشتعِلة بمكان عَلَمٌ أنَّها مُحْرِقةٌ . ويحْتَجُّون بحديث الرسول — عليه السلام — فى قوله : أَقْبَلَتْ بحريةٌ ، فتشاءمت ، فتلك عينٌ غديقةٌ . ومُعاناةُ الحكيم الماهِر دَليلٌ على بُرْئِه ، يرجى له ذلك إن أخَّرَتْه المُدَّة . وجيء بطبيبٍ عالِمٍ إلى أحد العُظماء من بلاد الهِنْد ، فلمّا شكا المريضُ إليه ، قال له الحكيم : « قد بريتَ بحول الله ! » فلما أعْلَمه التُّرْجُمانُ بقوله ، قال العَلِيلُ : « إن شاء الله ! » ، فأجابَه الحكيمُ : « إنَّ الله قد شاء : لم يسُقْنى إليك من أرضِ الهِنْد إلَّا وقد قضى بصحَّتك ! »

وقد أغْلَى[2] أهْلُ الهِنْد فى هذا العِلْم ؛ ومنهم مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعاً ، حتَّى

---

(١) سورة الأنبياء : ٣٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يوَلِّى مَمْلَكَتهم إلّا مَنْ شاكَلَ طالِعُه طالِعَ الدولة ؛ وهم يزعمون أنَّ طالِعَ المَلِك ، إن لم يكن وَتَدًا من أوْتادِ المَمْلَكة ، أو كان منها ثانى عَشَرَ أو سادِساً ، وأمْكِنَةُ الكواكبِ غيرُ مُتَّفِقةٍ* ٧٢ (١)
لذلك ، فإنّهُ ينحِسُها ، ولو بلغ الجهْدُ من الاحتياطِ عليها : إمّا تُهْلِكُهُ ، أو يُهْلِكها ، ضَرورةً تسوقُه الأقدارُ إليها . فكانوا يتخيّرون الطوالع قبل اختيار العقول والمذاهب ، يَرَوْنَ أنَّ القَدَرَ أغْلبُ من الرأى ، ويقولون : « لك سعادةُ الدولة ومُساعَدةُ الأقدار ! هَيَّأَتْ لنا هَـذِهِ الآراء لطولِ المُدَد . »

ثمّ إنّهم يزعمون أنَّ العُمُرَ الطبيعىَّ مائة وعشرون عاماً ، وأنّ القواطِعَ التى تكون قَبْلَهُ إنّما هى من أحداثٍ داخِلةٍ على الإنسان ، عَرَضيّةً ، إمّا من فساد المزاج ؛ فتخورُ الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التى فى الإنسان قوامَهُ كأركانِ البَيْت ، فمَتَى فسدَتْ منها طبيعةٌ ، اعتَلَّ الجِسْم ؛ وإن تغيّرَتْ كلُّها ، مات . وجعلوها مُشاكِلةً للأزْمِنة : فالدَّمُ رَبيعِىٌّ ، والبَلْغَمُ شِتْوِىٌّ ، والصَّفْراء صَيْفِيَّةٌ ، والسَّوْداء خَرِيفِيَّةٌ ؛ فمَنْ عالَجَ كلَّ زمانٍ منها بضدِّه من الأغْذِية والأدْوِية ، فقد أصاب . ولا باقى مع الله !

و[لمّا] احْتجَّ عليهم بالذى يموت فجأةً ، أو فى زَحْمَةٍ ، أو بأرَقِّ سَبَبٍ ، وهو يظهر صحيح الجِسْمِ ، أضافوا إلى الطِّبِّ من عِلْمِ النجوم ، واتَّفق رأيُهم أن لا فَلْسَفة تتمُّ حتَّى يجمعُها ، وأنَّ لا قوامَ لأحدِ العِلْمَيْن دون الآخَرِ ؛ قالوا : إنّما ذلك من الهَيالِيج الساقِطة ؛ فإنَّ المَوْلودَ ، إذا كانت هَيالِيجُهُ ساهرةً ، صحَّ ارتباطُ نفسه بجسمه ؛ فلا تخرجُ إلّا عنْ

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المُدَّة التى تدلُّ عليها العَطِيَّة . وإن كانت هَيَالِيجُهُ ساقِطةً كلّها ، عرض للموت بأَرَقِّ سببٍ . فإن لم يكن له هَيْلاج ، سُيِّرت المَطْلَعِيَّة وعُدَّ لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تمامِها ، وقد يكون فى تحاويلِ السِّنينَ ؛ وإن تمّ العَطِيَّة عند انتهاء صاحبِ حدِّ الدَّرجَة إلى موضعِ نحسٍ ، قطعٌ أو شبه القَطْع ، إن لم تُساعِدْه النجومُ السعيدةُ . وسمّوْهُ الجَانُ بَخْتان ، وهو دليلُ الحياة بإذن الله .

ومنهم من رأى ذلك قوّةً لنفسه* ، ورضِيَ بما قسم له البارئُ — عزَّ ٧٢ (ب) وجَلَّ — ؛ فلا ينقد على نفسه ، ويعيش طيب العَيْش ، يدرى أن لا قاطِعَ يقطع به فى تلك المُدَّة ، ويُشَجِّع لقول علىٍّ — رضى الله عنه — لرجُلٍ قد أسَنَّ : «أيّة شجاعة قد فاتَتْكَ ! » يعنى : لو أنّكَ قبل اليوم تدرى أنّ هذا يكون عُمُرَكَ لم تُبالِ .

وأمّا أنا ، فأقول إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المُدَّة ، وزيادةٌ فى ألَمِ المَنِيَّة إذا اقْتَرَبَتْ . ولا يكون الطِّبُّ إلّا ليُصِحَّ البَدَن مُدّة الحياة لكراهيَّة العَيْشِ فى نكدٍ . وأمّا لِدَفْعِ أجَلٍ ، فلا ينفع شىءٌ .

٨٨ — آراء طِبِّيَّة فى الأغذية والنبيذ

قال بعض الحُكَماء : « الناس يعيشوا[١] ليأكُلوا ، ونَحْنُ نأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فتأمّلْ مَعْناهُ .

وجمع أحَدُ الملوك أطِبَّاءهُ ، فقال لهم : « أعْلِمونى بالدواء الذى لا داء معه ! » فكلّهم تكلّم على الأدْوِية والمُعاناةِ بها ، غَيْرَ واحدٍ منهم كان

(١) كذا فى الأصل .

أكبرهم سنًّا ؛ فردَّ عليهم أن : « ليس عن هذا سألكم الأميرُ ! ولكنَّهُ يأذنُ لى فى الكلام ؟ » قال : « قُلْ ! فأنتُمُ مَعْدِنُ الحكمة والفلسَفَة ! » فقال « أيُّها الأمير ! إنَّ الدواء الذى لا داء معه أن تكونَ ، عِنْدَ أخْذِكَ للغذاء ، تَتْرُكُ منه بقَدْرِ ما تتمُّ به الشبعة ، ولو لُقْمَتَيْنِ ، ولا تتملأ ! فذاك دواء لا يحتاجُ معه إلى طبيبٍ ! »

وذُكِرَ هذا عن الرَّشيد ، إنَّه قُدِّمَ بين يديه قَصْعَةٌ بطعامٍ ؛ فلما أكل قال : « هذا غذاء ودواء ! فما زِيدَ عليه كان داء ! » وعلى أنَّه لكلِّ امْرِئٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ .

وقال النبيُّ — عليه السلام — : « أصْلُ كلِّ داء البُرودة ، وأصْلُ كلِّ دواء الحِمْيَة ! » وقيلَ : « أقْلِلْ طعاماً ، تَحمَد مناماً ! » وقالت الحُكماء : « إنَّ الكثرة والقلَّة عَدُوَّا الطبيعة . »

قد نَرَى[1] فى الخمْرِ ما ، إذا اعتدل مزاجُه منه بالكثير ، لم يجب أن يُقال له : « قَلِّلْ ! » ولا من شارِبٍ وافَقَهُ القليلُ ، أن يُقال له : « ازْدَدْ ! » غيرَ أنَّ العاقِل يَرَى ذلك بحسِّه ، ويعلم ما لم يُوافِق طَبْعَه ؛ فلا يزيد عليه شيئاً .

وسُئِل حكيمٌ عن الخمْر ؛ فأعابَها ، إلَّا أنَّه قال : « إذا أخذتَ كَيْفَ يَنْبَغِى ومع من يَنْبَغِى ، فلا بأسَ بها : تفرح النفس ، وتذهب بالهموم ، وتشجِّع ، وتحمل على الفضائل . والتزيُّدُ منها شرٌّ كثيرٌ ، كما أنَّ التقليل منها خيرٌ كثيرٌ ! »

---

(١) أصل : « قروا » .

وشبَّهوا كثيرَها فى الأبدان مثل التُّرْمُوس الذى إذا أُكْثِرَ عليه بالماء وطال مَكْثُه ، استحال وذهب نورُه .

وقِيل فيها :

سَأَلتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا ... وبقْرَاطٌ له عَقْلُ
فَفضْلٌ ما لَهُ شِبْهٌ ... وطِبٌّ ما لَهُ مِثْلُ
فقُلْتُ : الخمرُ تعجِبُنِى ! ... فقال : كثيرها قَتْلُ !
فقُلْتُ : كَمْ تقدِّرُ لى ! ... فقالَ ، وقَوْلُه فصلُ :
وَجَدتُ من طبائع ... أرْبعَةً هِيَ الأصْـلُ
فأَربعــةٌ لأَربعَــةٍ ... لـكلٍّ طبيعة رِطْلُ

هذا ما قالَهُ الناسُ . ولا خيْرَ فيما لا تبيحُهُ الشريعة . ولا بأسَ بعِلْمِ الشىء عند الحاجة إلى وضْعِه ؛ وبعْضُ الشرِّ أهْوَنُ من بَعْضِهِ لمن ابتلِىَ بها أن يأْخُذَها على حقِّها .

وقالوا إنه ممّا يُوَلِّد فرحَ النفس الشربُ بآنية الذهب وشمُّ النَّرْجِس ، كما أنَّ الشربَ بآنية القزْدِير وشمَّ البَنَفْسَج ممّا يُوَلِّد الحزْنَ .

وقالوا إنَّها من أكبر أدْوِيَة السّوداء فى تلك الساعة ؛ وتعقِّبُ سَوْدَاء أشرَّ من الأُولَى إن أُكْثِرَ منها . والعِلَّة فى ذلك أنَّه لا خيرَ فيها إلّا ما رقَّ منها ، وحَالَ عليها الحوْلُ ، وعطرَت رائحتُه ، وهى حارَّةٌ يابِسَةٌ ، ثمَّ تستحيلُ إلى البرد عن شرب الماء للضرورة ، وتَجِدُ الرطبة منها ، كَبِدِيَّةَ اللَّوْن ، غليظةَ الرَّوْنَق ، مُوَلِّدَةً للدَّمِ والنَّوْمِ ؛ وهى الموافِقةُ لزمان الشتاء . ولْيَتَّخِذْ منها لـكلٍّ زمان ما يوافِقُ طَبِيعَته ، ويخالف هَواهُ .

ورأوا أنَّ أخْذَها بعد الغَدَاء بساعةٍ ، ليَنامَ الإنسانُ قَبلَها ويُرْوَى

من الماء أنْجَعُ له وأنْفَعُ . وكذلك الجماع أنفَعُ أن يكون بَعْدَ سكونِ الأعْضاء وتودُّعِها بالنوم بعد الطعام ، فى صبيحة تلك الليلة ، عند تملى الأعْضاء ، واحتياجِها إلى إخراج الفضول ، ونشاطِها . ولا يكون ذلك عن ‎*تكلُّفٍ ، حتّى تميلَ الطبيعةُ إليه ، لا سيّما إن ساعَدَتْها النفسُ ؛ ويوافِقَ ٧٣(ب) ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إذ النفسُ والجِسْمُ شَكلان مُرْتَبطان : متى اعتلّ أحدُهما ، تَضعْضَعَ الآخَرُ ؛ ومتى صَحَّا جميعًا ، قَوِيَتْ المُنّة وتكاملت الصحّة . ويكون ذلك أسرَعَ فى البَاهِ ، كما أنّ المَعِدَةَ متى اشتهَتْ شيئاً ، فقد ضمنَتْ هَضمَه .

قال جَالِينُوس : « إنّ المريض الذى يشتهى أرْجَى مِنّى للصحيح الذى لا يشتهى ! » ألا تَرَى أن الطبيب الماهر ، إذا عانى العليلَ ، وقاسَ بين دَوَائَيْن يكونُ نجعُهما واحِداً ، قَصَدَ إلى الذى يعلم أنّ النفسَ عليه أقْبَلُ فى حال الصحّة ؛ فيَعتمِده . ألا تَرَى أنّ شراب السَّفَرْجَل وشراب السَّكَنْجَبِين فِعْلُهما واحِدٌ ؛ غير أنّ شراب السَّفَرْجَل أَلْيَقُ بالنفس ، وهى إليه أشْوَقُ ؛ فيرى الحكيمُ تَوَقانَه إليه زائداً على فى الدواء ، وينجح فيه بالشهوة .

ولم يَرَوْا لشرْب الخمْرِ عند العطش شيئاً أنْفَعَ من شَرْب الماء ، للتَّوَقانِ وإطْفاء الحرارة وقَمْع الأبْخِرة .

وليَسْتَعْمِلِ من الطعام ما خَفَّ ، ولو عاوَدَهُ فى النهار مرّات ؛ فهو أسرَعُ لهَضمِهِ ، وأشْهَى لمَعِدَتِهِ ، وأخَفّ على جَوَارِحِه . قال بعضُ الحُكَماء : لأنْ أتملأَ شراباً أحَبُّ علىّ من أن أتملأَ طعاماً ! فإن التُّخمَةَ ، إن تعقّدَتْ ، قتلَتْ ؛ وإن تحلّلَتْ، أسقمَتْ . » قال بعضُ

الفَلاسِفَة : « خفِّفوا هذه الأَنفس من أوقار الشهوات ، لتصعَدَ إلى عالَمِها الأَكْبَرِ ؛ فتأْتيكم بعجائبِ ماهُنالِكَ ! »

وقالوا فى الشراب إنه يُسَلِّى الهموم . وأنا أقولُ إنَّها تُهَيِّجُ الهموم ، إنما هو ما نزل عليه : إن أَلِفَتْ سرُوراً ، حَرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه ؛ وإن أَلِفَتْ هُموماً ، ذَكَّرَتْ بما هو فيه وأشدَّ منه ، وفتَقَتْ إلى طُرُق السوء . والهَمُّ إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء ؛ فذلك الذى لايُسْلِيهِ عنه شىء ، ولا يأْتيه منه نعاسٌ ؛ والغمُّ إنما يكون بما مَضَى ؛ فرُبَّما سلَت الخمْرُ عن بعض ذلك . ولا شىء يولِّد النوم مثل الغمِّ بتذكارِ ما خلَفَ ، أو النَّظَرِ فى كتاب لا ينبغى منه تعَلُّماً أكْثرَ* من مطالَعة ما مَضَى . ٧٤(١)

ومن الجُهَّالِ مَنْ يَعتقِدُ أن العَشاء قريب المنام يُولِّد الرقادَ من أجْل التمَلِّىء ؛ وأنا أقولُ إنَّه يمنعه ؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبْخِرة وكلٌّ حارٍّ مانِعٌ للنوم ، كما أنَّ البرد فى الدماغ مُوَلِّدُهُ . ألا ترَى أنَّ الأدمِغَة الباردة كثيرةُ النزلات من الرطوبات ، وتوَلُّد النسيان ؟ والسريعُ الحفظِ قد يكون فى دماغه مَرَارةٌ ويُبُوسةٌ ؟ وقلَّ ما تَرَاهُ يَنزَلُ ، وإن كان ، فلا يدومُ ذلك به ؛ فإنها من فَضَلات الدماغ . وكذلك الجاحِظُ العَيْنَيْن يُعرض عن ذلك ، وَقَلَّما يَسْلَمَ من الأمراض والتعَرُّق . والغائرُ العَيْنَيْن عِنْدَهم أصَحُّ بَصراً ، مع أنَّها من صفات الجمال ، إذا قالوا : « هو الغائرُ العَيْنَيْن ، الأسيلُ الخدَّيْن ، المُشْرِفُ الحاجِبَيْن »

كذلك قَوْلى ، وإنه لا يتمُّ لأحَدٍ جمالٌ إن خشُنَتْ أطرافُه وامتلأَتْ خدَّاه . وكانت العرَب تمدح فى الإنسان كِبَرَ رأْسِه ، وتقول إنَّه عَلامةُ

السُّؤْدُد . ويَمْدَح الغُلامَ الأَبْلَهَ العقُول .

وقيل : الجمال فى اللسان ، ما كان ناطِقاً بالصَّواب ، ولا خيْرَ فى التَّهوُّر والإِكثارِ بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلا فيما رثى به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى المقابِرُ مِنْ شَرِيكٍ ... كَثِيرَ تَحَلُّمٍ وقَلِيلَ عَابِ
صَمُوتاً فى المَجَالِسِ غَيْرَ عَيٍّ ... جَدِيراً حينَ يَنْطِقُ بالصَّوابِ

٨٩ — رجع الكلام إلى التنجيم

ومِمَّا وَصَفْناه من عِلْمِ التنجيم ، احْتَجَجْتُ يوماً بِبَعْضَ المنجِّمين أتّهم على غير شىء ؛ فقال : إن كُنْتَ تَقِمتَ بأنّنا نزعم أنّ الكواكبَ فاعِلَةٌ أو يَعْلَمَ أحَدٌ الغَيْب ، فَمُحَال ذلك ، لا يدّعِيهِ أحَدٌ ، غَيْرَ أنَّا نقولُ بأنَّها مُصرِّفَةٌ . ألستَ تقول فى الشمس إنّ الله خلَقَها ضِياء ؟ فكذلك أقول فى النجم السعيد أو النحيس إنّ الله خلَقه لذلك ؛ ثمّ لا يَعْلَمَ كَيْفِيّةَ هذه السعادة وصورتَها غير الحمَلة ؛ والله أعْلَمُ بما يَتَهَيَّأُ منها .

« وليسَ منها شىء إلّا مُوافِقٌ للشرائع إذِ النَّصْبَةُ كلُّها مخلوقةٌ من مُدَبِّرٍ واحِد ، لا إله غَيْرَه ؛ فمتى كان فى العالَمِ دَوْلَةٌ أو مِلَّةٌ ، لم تدلّ النجوم على غَيْرِها ، إِذِ الحُكْم مِنْ لَدُن الواحِد* . فأوّلُ ما نَبْتَدِئكَ به أنّه ٧٤ (ما من طالِعِ القِران مِلّةٍ ومَوْلِدِ نبيٍّ إلّا وقد شاكَلَ ، واتفقَتْ له من السعادة فى الهيئة ما خرج به من القوّة إلى الفِعْل .

« وأخْرَى . ألَيْسَ تقولُ اليَهُودُ إنهم زُحَليُّون ؟ لا شَكَّ فى ذلك ! ألا تَرَى اتّخاذَهم السَّبْتَ عِيداً ؛ وهو لزُحَل ، وأخلاقَهم كلّها مُطابقةٌ لِما

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخْل ، والقَذَارة ، والخُبْث ، والمَكْر ، والخَديعة؟ ثُمَّ الرُّومُ من بَعْدِهم شَمْسِيُّون ، لا امْتِراءَ فى ذلك ! ألَا تَرَى أنَّ يومَ الأحَد جُعِلَ لهم عِيداً ، وهو يومٌ شَمْسِيٌّ ، وطباعُهم موافِقةٌ للشمس ، وصُوَرُهم فيها : البَيَاض والحُمْرة والشُّقْرة ، والرَّهْبانيَّة فى عُبَّادِهم لِعُقْم الشمس ؟ ثُمَّ المسلمون : أليْسَ هم زُهَرِيِّين ؟ والزُّهَرة دالَّة على الدين ، والنظافة ، والمُروءة ، والضوء ، والطهر من الجنابة ، وإباحة النكاح ، والإماء ، والطيب والزينة ؟ ثم أُمِرْنا باتِّخاذ الجُمُعة عِيداً ، وهو يوم الزُّهَرة !

« ثُمَّ انْظُرْ إلى بُرُوج الفلك . تقولُ إنَّ السابِعَ بَيْتُ العُرْسِ . وأكْثَر ما يَسْتَعمِل الناسُ النِّكاحَ فى شهر رَجَب ، وهو السابع من أشْهُر العام المؤرَّخ به ، الذى أوَّله المُحَرَّم ؛ والثامِن من البروج بَيْت الموت والمواريثُ ، وشهرُ شَعْبان الثامن من الأشْهُر الذى تُنْسَخ فيه الآجال ؛ والتاسع من البُروج بَيْت الدين والسَّفَر ، وشهرُ رَمضان المُعَظَّم ، تاسعُ أشْهُر العام . وجب فيه الصوم ومُحافَظَةُ الشَّرع ؛ والعاشِر بَيْت المُلْك والسُّلطان . واتُّخِذَ العاشِر من الأشْهُر عيداً يَظْهَرُ فيه بهاء الدين وعِزُّه .

« وقد قال الله تعالى : ﴿ والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[١] . وأقْسَمَ ﴿ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾[٢] وهىَ الكواكِبُ السيَّارة . ويزعمونَ أنَّ زُحَل هو النجم الثاقِب . لأنَّه يفتق بضوئِه سبع سَموات . وأنَّه أعْظَم من الأرض ستَّة وتسعون مرَّة ؛ وغَيْرُه من الكواكِب قد وصفوا قسمَتَها من العظم على الأرض . غير القمَر وعُطارِد ، فإنَّهما أصْغَر من الأرض . وأنَّ

---

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التكوير : ١٥ – ١٦ .

الشمس أعْظَمُ من الدُّنيا مائة وثمانون ضِعْفاً . ولـكلِّ كَوْكبٍ منها مُدَّةٌ *يقطع فيها الفلكَ . ورُتْبةٌ هَيَّأها له بارِئُه — عزَّ وجلَّ — ؛ وإنَّ العالَمَ ٧٥ (ا السُّفْلِىَّ مُتعَلِّقٌ بالعُلْوىِّ . مؤثِّرٌ به بإِذْنِ رَبِّه . »

ومنهم من قال : لأَىِّ شىء تُنْسَبُ إلينا الزَّنْدَقة ؟ ولم نُنْـكِرِ الخالِقَ ؛ وإنما تـكلَّمْنا فى المخلوقات ؛ فيُوصَف كلُّ مخلوقٍ بما يُدْرِكه عِلْمُ الإنسان . كواصِف رَجُلٍ أو شَجَر أو جَبَل ! »

وذُكِرَ عن حَكيم أنَّه رُئِى بالمُصْحَف عن يمينه . والأَسْطُرْلاب عن شماله ؛ فسُئِلَ ما الذى أوجب جَمْعَها لدَيْه ؛ فقال : « أتْلو فى المُصْحَف كلامَ الله . وأعْتَـبِرُ فى الأَسْطُرْلاب خَلْقَ الله ؛ وعلم الهَيْئَة عِبادةٌ ! »

وإنه لمَّا نُصَّ علىَّ هذه المقالة ؛ كان جوابِى عنها : « كلُّ ما تقول يشبه يكون من موافقة أهل السُّنَّة بما احْتَجَجْتُمْ به ؛ غَيْر أنكم خالَفْتُمُ القرآنَ فى قولـكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول[1] ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِى ٱلسَّمَوَاتِ والْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللهُ . ﴾ فقالوا : « لَسْنا نقطع عن الأمر أنَّه يكون ؛ ولا نقول إلَّا أنَّه يدُلُّ . ونأْتى بحُجَّةٍ إلَّا يتمُّ شَرْحُها . اللَّهُمَّ ! إذ قُلْنا : هذا مَوْلِدٌ سعيدٌ ، هل نقدر على شرح تلك السعادة والـكائن فيها . ومِنَّا مَن يتحرَّى ، فيعدل ولا يتكلَّم على شىء . وقَوْلُنا هذا كقَوْل من رأى سحَاباً ثقالاً ؛ فيقول : « هذه تدُلُّ على الماء الـكثير » . هَلْ قائلٌ ذلك مُلْحِدٌ ؟ ثمَّ الله يفعل ما يشاء .

وهذا أيضاً ممَّا قدَّمْنا ذِكْرَه صَدْرَ الـكتاب أنَّ كلَّ مفتونٍ مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ ؛ والله يقول[2] : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْء جَدَلًا ﴾ ؛ على أنَّ الحقَّ

---

(١) سورة النمل : ٦٥ . (٢) سورة الكهف : ٥٤ .

عليه نورٌ لا يخفى ؛ تقول العَرَب : « الحقُّ أبْلَج ، والباطِل لَجْلَج . » .

قال المأمون : « لم أغْتَبِطْ بأيَّام السرور مُذ عَلِمْتَ التنجيم ، ولا استمريتُ الطعام مُذ عَلِمْتُ الطّبَّ ، ولا طابَ لى النوم مُذ عَلِمْتُ عبارة الرؤْيا ! »

٩٠ — مسائل فَلَكيَّة

ويزعمون أنَّ الليل ظِلُّ الأرض ، ولا ضياء غير الشمس ؛ فبإشْراقِها على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع الظِّلُّ طالعاً ، فأظْلَمَ الليل .

وبَعْضُهم من قرأ أن الشمس تجرى ، لا مُسْتَقَرَّ لها ، إذ يقولون إنَّ الشمس لا تستَقِرُّ* بمكان ، إذ لا يصحُّ أن يكون المكان إلَّا أعظم من ٧٥(ب) الذى تَحِلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إلَّا الفلك ، والفلكُ دَوَّارٌ .

وقالوا فى الكسوف إنَّ الكلام فيه ما يمكن إلَّا بالوقوف على صورة الهَيْئَة ، ولو لا ذلك ، لم يَجِد القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف الذى حُدَّ أمْرُهُ وَقْتَ انجلائِهِ ومَبْلَغِ المُنْكَسَف منه ؛ وإن الشمس فى ذاتها لا يعرضها شىء غير أنَّ جرم القَمَر يحول بَيْنها وبَيْن الأرض متى قابلَها ؛ وكُسوف القمر من مُقابَلة الأرض .

وزعموا أنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وأنَّها أجْرامٌ شفَّافةٌ تكْتسِى النور من النَّيِّر الأعظم ؛ فيبدو ضوءها بغَيْبِها ، ويطمس عليها طلوعها . وهو قول الشاعر فى ذلك :

لِأنَّكَ شَمْسٌ والمُلوكُ كَواكِبُ   إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكبُ

٩١ — تحديد العلوم الطبيعيّة والطبّ

وقال أَهْلُ الطبيعة : إنّ لا حَيَوان إلّا بالحرارة والرطوبة ، فأَيْنَ ما كان الماء والشمس تولّد فيه الحَيَوان ، وقد يكون من غير نسلٍ . ونَرَى حَيَواناً يكون فى جوف صَخْرةٍ صَمّاء مُلَمْلَمَةٍ ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى[١] : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وذُكِرَ عن الحجّاج أنّهُ رُئى فى المنام على حالةٍ حسنةٍ ؛ فسُئِلَ عن ذلك ، على ما كان من جوره ؛ فقال : « رَحِمَنى رَبِّى بكَلِمةٍ قُلْتُها : مَرَرْتُ يوماً على زرعٍ ؛ فقُلْتُ : لو شاء الله ، لأَنْبتَهُ فى النار واليَفَاع ! » (أى فى الصحارى التى لا ماء فيها) وقال تعالى[٢] : ﴿ ويَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولم يبلغ الإنسان بعِلْمِهِ أكْثَر من معرفة الطبيعة : علاجُ ضعيفٍ لا يرفع قدراً أكْثَر من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فعالجوا الأبدان بما أدركَتْهُ عقولُهم ، وجرّبوه بأعمارهم ، وتركوه سلفاً فى الأواخر . فكلٌّ يُعَانى على مقدار تَجْرِبَتِهِ....[٣] ولا يوافقُ القِراءةَ خَطّاً حسناً ومَعْرِفةً بهذا الشأن ، فقد أَخْطأَ وتكلَّفَ . * وقالوا إنّ الدواء المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ٧٦ (١) يُنقّيه ويحلقه ؛ فاستعمالُه فى زمان الخريف أَوْلَى فى سُلطان السَّوْداء فيه ، كما أنّ استعمالَ الفَصْد فى زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أخرج فيه الدم . وإنّ أَشْبَهَ شىء الأغْذية بمزاج الإنسان : فالخُبْزُ النَّقِىُّ واللحم الثَّنىُّ والشراب

(١) سورة الواقعة : ٦٠ — ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .
(٣) بياض نحو كلمة فى الأصل .

الحَوْلِيُّ؛ فمَن اقتصر على هذه دون تخليط لم يزل صحيحَ الجسم، قويَّ البِنْيَة.

وقيل لجالينوس الحكيم، وكان فى زمان المسيح — عليه السلام —: « إنَّ الله أرسل نبيًّا يبرئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ! » فقال: « وأنا أعالِجُ الأكْمَهَ والأبرَص! » فلمّا قيل: « يُحْيِى الموتَى » لم يُصَدِّق ذلك حتى رَآه مُعايَنَةً حقًّا.

٩٢ — نقض قول من ينكر أن الجنّ تتكلّم

وتُنْكِرُ الحُكَماءُ ما يزعم الناسُ من رُؤْيَة الجِنّ، وتُكَذِّب من يقول بسماع نُطقِهِم أو كلامِهِم على ألْسِنة البشر، وتقول إنّه لا يتكلّمُ إلا من له لِسانٌ وآلةٌ تُعينه، وإلّا، فكيْفَ تنطق رِيحٌ تهبُّ؟ إنّما هو بِرْسامٌ يعرض فى دماغ مَن يدَّعى ذلك؛ فيتصوَّر فى دماغه أمْرٌ ما يخيَّل له بفساده أنه يتكلّم ويسمع، ما ليس منه شىءٌ على حقيقةٍ؛ فيَهْذِى هذيانًا، ضَرْبًا من الروحانية التى يكون الإنسان، مُفَكِّرًا فى بلدةٍ أو شَخْصٍ أو صورةٍ من الصُّوَر: إذا حَدَّثتْهُ نَفْسُه بها، صار كالناظِر إليها، وإن سدَّ عَيْنَيْهِ، أو كالنائِم يَرَى ما تُحَدِّثُه به نفسه، أو كالناظِر فى المِرْآة يَرَى ما ليس بِمَوْجود.

هذا، لعمرى مَذْهَبٌ خُولِفَ به طريقُ السُّنّة. والله يقول[1]: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وقَوْلُه[2]: ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾؛ وهذا دَلِيلٌ على أنّه لا يكون النطقُ إلّا بِلِسانٍ، ولا الروِيّةُ إلّا ببَصَرٍ ليس على خِلْقة الإنس، كلٌّ على جِبِلّةٍ، يَرَى ويسمع ويعقل.

ولو لا ذلك لم تَدِنْ، ولا سبَّحَتْ، ولا اهْتَدَتْ لِماَ يُسِّرَتْ له.

(١) سورة النمل: ٣٩. (٢) سورة الأعراف: ٢٧.

إنَّ الطَّيرَ التى هى عندنا لا تعقل وَصَفَها الله بمعرفَتِهِ ، فقال[1] : ﴿ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وقال تعـالى[2] ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . ووَصَفَ بالسجودِ النجمَ* والشجرَ والدوابَّ (٧٦ التى هى عنـدنا جَوَامِدُ . فـكَيْفَ أحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذَيْنِ بَشَّرَا بالثواب ، وأنذَرا بالعِقاب ، وخُوطِبا بما خُوطِبَ به الإنْسُ . وقال تعالى[3] : ﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .

فمن لا يؤمنُ بأنَّهم لا يتكلَّمون ويعقلون ، فلا يؤمن بالملائكة ، ويحتاج أن يكون قولُه هذا نسقاً فى كلِّ من ليس له لسانٌ وجَوارِحُ أنَّه لا يتكلَّمُ بجَوارِحِ الإنسان ؛ فالملائكة لا توصَف بيَـدٍ ولا لِسانٍ ؛ وهُم المنَزَّلون بالوَحْى على الأنبياء والمُخاطِبون لهم بالـكُتُب والسُّنَّة : فلا يؤمن بالرسالة مَنْ يَتمَذْهَبُ بهذا .

٩٣ — حديث عن المسرَّة وعن هموم الهوى والشباب

وقالوا إنَّ الجِماع من أكْبَرِ أدْوِيَةِ السَّوْداء لسرورِ تلك الساعة ؛ ودُخول الحَمَّام ، لمـا يعرض الإنسان من الانطراب فيـه . مَنْ سرَّه أن تقرَّ عينُه حيـاتَه ، فَلْيتمتَّعْ ما وَجَدَ سهولةَ شَهْوَتِهِ ؛ ومَنِ اغْتَنَمَ سـاعةَ لذَّتِهِ ؛ فقد غَنِمَ ؛ ومن أخَّرَها ، فقد عَدِمَ ! فإن الإنسانَ ابنُ الآن !

وقالوا فى الجلوس على المِيَاه والرَّيَاحِين ممَّا يُسْلِى العاشق ويتداوى من أحزانه به . وأمَّا أنا ، فأقولُ إنَّ ذلك يزيد فى تَذْكارِهِ ؛ ونقيم البُرْهانَ على ذلك أنَّ النفسَ لا تولع إلَّا بما استَحْسَنَتْ ؛ فـكلُّ مُسْتَحْسَنٍ تَرَاهُ

---

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخرِجُها إلى ذكر الأسْنى فى خاطِرِها ، وكلُّ حَدِيثٍ إنما يسوقه إليه ؛ وكلُّ ما زِيدَ تَذْكاراً زاد شَوْقاً ، فأعْقَبَهُ سَهَراً وقَلَقاً . والشىء لا يُعانَى إلَّا بضدّه : فكَيْفَ يشغف بحُسْنٍ ويُسْلِيه حُسْنٌ ؟ بل يُوقِظه ويَشْغَله ! ألَّا تَرَى أنَّ المكروبَ يتفرَّج بالسُّرور ، والسُّرورَ ، يَضْمَحِلُّ بالكَدَرِ ؟ وليس لعاشِقٍ مُرَزَّإٍ بمالٍ ولا أهْلٍ ، فيتسلَّى بما يُذْهِب غُمومَه ؛ بل هو من شأنه فى لَذَّةٍ حلاوتُها مَشوبَةٌ بحرارةٍ : وهو حُكْمُ الحلو كلِّه فى المُذَاقَة ، لا يكون إلَّا مائلًا إلى الحَرارَة ؟ وكذلك فى المُشْتَهات : كلُّ ما تَمَّتْ حَرارَتُه ، طابَ رِيحُهُ .

وإذا قاس حالَ أزْمِنتِهِ التى كانت تَسُرُّه على ضروب من حالات الصبوة ، لم يَجِدْ فيها مدَّةً كانت عنده أفْضَلَ ، وأبْلَغَ فى السرور ، وأهَشَّ للنفس وألْيَق* بالحِسِّ وأذْكَى للقلب ، وأصْفَى مشرباً ، وأهْنَأَ طَعْماً ، من ٧٧ (١)
تلك المُدَّة ، وإنْ كان فيها بعضُ جَوًى ؛ فإنَّه « لا بُدَّ بعد الشُّهْدِ من إبَرِ النَّحْلِ » ، ودَواؤُهُ ، ما لا يَرْضاهُ ، ولا يختاره بدلًا ممَّا هو فيه ؛ إن يَشْغَلْه من ذلك خَطْبٌ كبيرٌ ، ينسى به ما كان عليه ، والذى هو بسبيله عنده أوْلَى .

٩٤ — تأمُّلات نظرية وأمثلة يضربها المؤلِّف

من قصَّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

والصَّبْوة تُحْدِث للإنسان هَيَجاناً وهُمُوماً : كالمُهْتَمِّ بالنظر فى ماله ، أو المُشْتَغِب بِمُحاوَلةِ ما يُصْلِحُه ؛ فليس كلُّ شغب ضارًّا ، بل يؤلم منه مُكابَدة الأعداء ومقاساة طَلَب العيش ، الذى ، إن فتر عنه شَقِيَ ، لا طَلَب

الزيادة فى الرزق . فإن ذلك يَسْعَى كالبَطِرِ الذى هو بالخيار فى الكدّ والراحة .

والنفسُ توّاقةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبة ، تاقَتْ إلى ما فوقها ؛ فالعاقِلُ يَرَى أنَّ كُلَّ كَدٍّ وطَلَبٍ دون السَّعْى فى طَلَبِ ما لا بُدَّ منه من قِوام العيش فَخْرٌ وأشَرٌ ورَغْبةٌ وحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عن كلِّ شىء مَسْؤولٌ ، إلّا عن ثلاثة : طعامٌ يسدُّ جوعَه ، وثوبٌ يستر عورَته ؛ وبَيْتٌ يكنُّه من الشمس . ولو أنَّ له الدُّنيا أجْمَع ، لم يكن له منها زائداً إلّا حظُّ العَيْن الذى يستوى به فيه مع غَيْره من الناظرين ، فسلم من تعباته ، وتورَّط هو فى حِسابه وأوزاره ، وما كان إلى انقِطاعٍ ونفادٍ . فحقيقٌ على اللبيب أن يزهد فيه ؛ لو آلَتْ حالُه إلى السلامة بعد ذهابه ، لا عَلَيْه ولا لَهُ ؛ فكَيْفَ ، وهو قد أيْقَنَ بالفَناء وبَعْدَه الحسابُ والجَنَّةُ أو النارُ ؟ وقال المَسيح — عليه السلام — : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فاعْبُروها ولا تَعْمُروها ! »

على أنّه لا يُوجَد أحَدٌ يزهد فى حالٍ كلَّ الزهادة ، حتّى يبلغ منه أمَلَه أو بَعْضه ؛ فإن الزهادة الطبيعيَّة إنما تكون فيما تَكْرَهُ النفسُ ، ولا بُدَّ من مَيْلِها إلى ما فيه أدْنَى سُرورٍ . والله يقول فى الإنسان ، لعِلْمِه به[1] : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ؛ فكأنَّ الشىء ، إذا أُدْرِكَ ، انصرفت عنه النفسُ لبلُوغ نَهْمتها ؛ ومتى تمنَّع* عليها ، كانت به أشَدَّ كلَفاً . ٧٧(ب)

ولقد بَلَوْتُ من نفسى بَعْضَ ذلك ، اذ الطبعُ البَشَرىُّ واحِدٌ ، لا يكاد يَخْتَلِف إلّا فى الأقَلِّ ؛ ولذلك أُمِرَ الإنسانُ أن يحبَّ لأبناء

(١) سورة العاديات : ٨ .

جنسه ما يحبُّ لنفسه ، حَظًّا على العَدْل والإنصاف .

وأجِدُنى فى كثرة المـال ، بَعْدَ تَمَلُّـكى عليه مع ذهابه ، أزْهَدَ مِـنِّى فيـه قَبْل اكْتِسَابِه ، مع شُفوفِ الحال إذ ذاك على ما هى عليه الآنَ . وكذلك شأنى كلُّه فى كلٍّ ما أدرَكْتُهُ قَبْلُ من الأمْرِ والنَّهْى ؛ واكتسابِ الذخائر ، والتأنُّقِ فى المَطاعِمِ والملابِس والمراكِب والمبانى ، وما شاكَلَ من الأحوال الرفيعة التى نشأْنا عليها ، حتَّى إنَّه لم يَبْقَ من ذلك ما تَتمنَّاهُ النفسُ ، وما لا تظنُّه ، إلَّا وقد بَلَغْنا منه الغاية ، وتجاوَزْنا فيه النهاية ؛ ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكاً ، فتطول عليه الحسرةُ ، ويُعَدُّ من جملة الأحلام ! بل ، تمادَى برهةً من عِشْرين عاماً ؛ وما كان قَبْلَهُ يكاد أن يؤازِيه ؛ إذ رُبِّينا فى حِجْرِهِ .

ووَجَدْتـنِى ، بعد فَقْد هذا كلِّه ، على الوَلَدِ أحْرَصَ مِنِّى على ما سِواهُ من كلِّ ما وَصَفْنا ، لعُدْمِهِ ذلك الوقت ؛ وقلتُ فى نفسى : « الغايةُ التى إليها يَسْعَى الناسُ من أمْرِ دُنْياهم ، قد أدْرَكناها ، وشُهِرْنا بها فى الآفاق ؛ ولا بُدَّ من فَقْدِها ، باكِراً كان أو مُؤَخَّراً ، بحياةٍ أو موتٍ ! فنحسب هذه العشرين عاماً هى مائة عامٍ ، إذا تمَّت ؛ سَوَاء ، وكأن لم تَغْنَ بالأمْسِ ! ونَحْنُ الآنَ جُدَراء بالنظر فيما نَبْتَغِيهِ . ولله أن يَقْضِى ما شاء ! »

وقِيلَ لرَجُلٍ حَرَّاثٍ : « هَلْ زرَعْتُمْ ؟ » فقال : حرَثْنا . واللهُ الزارِعُ ! » وكذلك ذُكِرَ أنَّه لم يَبْقَ من المُتَوَكِّلين على الله غَيْرُ المُزارِعين ؛ فإنَّهم يدفنون فى الأرض أقواتَهم ويطلبون فَضْلَ الله وبَرَكتَه .

٩٥ — يتحدَّث المؤلِّف عن أولاده

وكان تدبيرُنا هذا إلهاماً لينفذ القَدَر ، بكَوْنِ مَنْ نشأ لنا من الوَلَدِ . لم يتبعَّد وقته ، ولا كان فى غير مكانه .

(وذكر* الفَلاَسِفةُ أنَّ الوَحْيَ يتجزَّأ على ثلاث : كلامٌ وإلْهامٌ ، ٧٨ (١)
ومَنامٌ ؛ وهو قَوْلُه تعالى[١] : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ . وقِيلَ فى قوله[٢] — عزَّ وجلَّ — ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ إنَّما كان وَحْيَ إلْهَامٍ . وكان النبىُّ — عليه السلام — يقول فى بعض أقسامه : « لا ! ومُقَلِّبِ القلوبِ ! » فإنَّهـا بين يدى الرحمن يُقَلِّبُها كيف شاء ليَنَفِّذَ فيه أحكامَهَ وتجرى عليها أقدارُهُ .)

فما بَقِيَ لنا من الآمال غَيْرُ مالٍ حَلالٍ للمعاش ، يغنى عن السؤال ، وعَمَلٍ صالحٍ للمَعاد ، يُنْجِى من العِقابِ ويوجب الثواب .

وقد كان سُقْرَاط الحكيم يَكْرَه الوطأ مدَّة عُمُره ، يَعْتَقِدُ بذلك أنَّه مُهْرِمٌ للجسم ومُسْرِعٌ إلى الفناء ، فقد قيل إنَّ فاعِلَ ذلك مُقْتَبِسٌ من حَياتِهِ ؛ فمن شاء ، فَلْيُقلِّلْ ، ومن شاء فَلْيُكْثِرْ ! ولهذا أرجح الجاحِظُ فى « كتاب الحَيَوان » بأَنَّ الخصىَّ إنَّما طال عُمُره من أنَّه لا يُجامِع .

وأمَّا أنا أقول إنَّ تلك الساعة التى يستحيل فيها عن الإنْسانيَّة بقَطْعِه إلى الـ . . . . .[٣] أشَدُّ استِفْراغاً ، وأذْهَبُ لجَوْهَرِيَّته ، وأقطع لعُروقِهِ من أن لو جامَعَ كلَّ يوم فى عُمُره عشر مرَّات ؛ لأَنَّ المُجامِعَ مُخْرِجٌ

---

(١) سورة النحل : ٦٨ . (٢) سورة القصص : ٧ .

(٣) بياض كلمة فى الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهـذا خُرِّج منه الجَوْهَرُ ، وفُرِّغَتْ عروقُه ، ولُيِّنَتْ لحمُهُ ، وأُضعِفَتْ عُصُبُهُ ، وأُرْخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولمّا كَبِرَ سِنُّ سُقْراط ، وعَلِمَ أنّه ليسَ بعد الكِبَرَ إلّا الموت ، جَامَعَ مَرَّةً من عُمُرِهِ ، آخِرَ زمانِهِ ، وتأوَّلَ فى ذلك إتْماماً لحكمة البارئ — عزَّ وجلَّ — ؛ وقال : « لم تكن حِكْمةُ النسل إلّا بهذا الفعل ؛ وإنْ أنا مُتُّ تارِكاً له أصْلاً ، كُنْتُ كالساخِط أو المُعَنِّت لِمَا رتَّبَه الرَّبُّ ، وعَسَى بذلك نستوجب عقابَه ! » ثمّ قال ، إذا حضره الموت : « ما أظُنُّ عيباً علىَّ إلّا مُجامَعَة تلك الساعة ! »

وكان من نِعمة الله علىَّ إن رزَقَنى بِكْرَ أولادى ابنةً ، لم يَزَلْ قَبيلُنا كلُّه يتبرَّكُ بها ، ويَكْرَه أن يكون بِكْرُهُ ابناً ذَكَراً . وقد رأينا فى سَيْف الدولة أبينا — رحمه الله — أن لم تَمَّ له فرحتُهُ بِذلك ؛ على أنّ هذا* ليس ٧٨ (ب) على العموم ؛ وإنّما ذَكَرْناه للتفاؤل ، إذ قال نَبِيُّنا — عليه السلام — : « تَفَاءلُوا ولا تَطَيَّرُوا ! » فنَحْنُ قد تَفاءلْنا ، لا سيَّما بِمـا شهر عند أهالينا وقالوهُ قديماً ؛ ولو كان ضِدَّهُ ، ما ذَكَرْناهُ ، للنهى عنه .

ثمّ رزَقَنا بعد هـذا ابنَيْنِ ؛ فلم نُبَشَّرْ بالاثْنَيْن ، كَيْ لا يجتمع علينا حزنُ ذلك مع ما نَحْنُ فى سبيله ، لُطفاً من الوهّاب وإنعاماً وإحساناً . فتَعْدادُ نِعَمِ الله شُكْرٌ لها ، والإعلانُ على وَجْهِ الشكر والتقوى ، لا على الفَخْرِ والخُيَلاء ، من أوْجَبِ ما يأخذ به الإنسانُ نَفْسَه . قال النبىُّ — عليـه السلام — : « أنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، ولا فَخْر ؛ وأنَا أفْصَحُ العَرَبِ ، ولا فَخْر ! »

٩٦ — توجُّه المؤلِّف الحديث إلى قُرَّائه ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثمَّ انصرف وَجْهُ اهتبالِنا إلى وَضْع هذا الكتاب ، وهو لَعَمرى بمنزلة الابْنِ الذى يُبْقِي ذِكْرَ أبيه فى العالَمَ ، لنُبَيِّن به عن أنفُسنا ما أشكل على الجاهِلِ من مقالةِ سوء [فى دَوْلَةٍ ،] زَعَمَ الحاسِدون أنَّ منها كان سقوطُنا . ولن نعدم مع هذا بَرَكَتَها لِمَا نرجوه من ثوابنا ، وحَسَناتِه لبُعْدِنا منها ونزَاهتنا عنها . وإنَّما وَضَعْنا هذا الكتاب لمن أشكل عليه الأَمْرُ من أهل الفضل والحقّ ، المُحِبِّين[1] لله فينا ، الوادِّين[2] الخَيْرَ لنا ؛ ولا يزيد البُغاةُ إلَّا طغياناً وتَعْنِيتاً .

فنُرِدُّ على أهْلِ الإنصاف وذوى الأَلباب :

« إنَّكم أنتُم المخاطَبُون من الله ورسوله ! فَعَلَيْكم اعْتِمادُنا ، وإيَّاكم خاطَبْنا ، ولكُم ما تكلَّفْنا ! فلا عَمِيَ بكم عن المعرفة تَحِيدُّكم عن المِنْهاج ؛ ولا شَنَآن لِتِرَةٍ سَلَفَتْ تُحرِّفكم إلى نفثات الحاقدين ! والله يجعلنا فى الجَنَّةِ إخواناً ، كما جَعَلَنا على الخَيْرِ أعواناً ! »

ونَرُدُّ على من اعْتَرَضَ جَهْلاً أو حِقْداً :

« اخسأْ بِجَهْلِك ، ومُتْ بغَيْظِك ! فلَيْسَت الأقدارُ جاريةً على اختيارك ، ولا أنت المُخاطَبِ ! بل تأْخُذ بأدَبِ الله تعالى لنبيِّه — عليه السلام — فى قوله[3] : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ

---

(١) أصل : « المحبون » . (٢) أصل : « الوادون » .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ . وهل تنقم ، أيُّها الطاعِنِ لنا ، أن ورِثْنا مُلْكاً عن آباء كِرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمُرِك كلِّه ؟ إذ قالت* العُلَماءِ إنَّه من عاش ٧٩ (١) ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمْرُهُ ، طويلُ العُمُرِ ، مع أنَّه كان فى طاعةٍ لم تُوصَف مقدماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا طغيانٍ ، ولا سَفَكْنا دَماً ، ولا غَصَبْنا مالاً . وكانت مُدَّتُنا فيه نحو من عشرين عاماً خَيْراً من سِنِينَ ، إذ لَيْلة القَدْر خَيْرٌ من ألفِ شهرٍ . وتمامُ المدد على قديم الدَّهْر عادةٌ لا تُستَغْرَب لنا خاصَّةً . ولا بُدَّ من الفراقِ ! فللّه الحمدُ إذ لم نفقدها بفَقْد عقولِنا ولا أديانِنا ، ولا تَمّتْ بنفادِ أعمارِنا : فَيومٌ من عُمُرِ الإنسانِ يذكر الله فيه خَيْرٌ من تَمامِ عَمَله ؛ ومَنِيَّةٌ على بلاء وتذكارٍ خَيْرٌ من مَنِيَّةٍ على فِتْنةٍ غَفْلَةٌ .

٩٧ — يدفع المؤلِّف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصَّة .

ثمَّ أضْرَبْتُ عن وَصْف كلِّ جميلٍ فَعَلْناهُ ، وحَزْمٍ اسْتَشْعَرْناهُ ، وخِدْمةٍ للدولة تكلَّفْناها .

وطَلَبْتُ بُنَيَّات الطريق ، وتَتَبَّعْتُ ما لا عارَ فيه على المَلِك . ولا نُقْصانَ فى المملَكة ، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كى تعقب نَشَاطاً ، وعمّا دُفِعْنا إليه تَسْلِيَةً . فقد قالت الحُكماء : « تَرْكُ اللذّات يُعْقِب البَرَدَة ، ويؤثر فى الجلْد أدْوَاء مُنْكَرَةً . وقيل : إذا لم يكن للمرء على البقاء مَقْدُرَةٌ ، فَلْيتمتّع ؛ فإن تَرْكَ ذلك للنفوس .

فهيَّجْتَنا بِلَفْظك ، وأخرَجْتَها من حيِّز الهَزْل إلى الجدِّ ، وكُنْتَ كَجارِ

سُبَبَة : إن رأى حسنةً ، كتمها ؛ وإن رأى سيِّئةً ، أذاعها . فطفقْتَ وأرْبَيْتَ إنْ افْترَيْتَ ، وما أدَّعْتَ هذا ، وأنت تعلَمَ أنَّه لم أكُن مخلوعَ العذار ، ولا أخلدتُ إلى راحة توجب الغفلة ، كالذى صَنَعَ من كان قبلَنا من الملوك ، وتعفَّفْنا عن الدماء والأموال والحُرم !

ولم يَبْقَ لك ما تقول : « إنَّما كان صاحِبُ غَرْناطة حريصاً على جَمْع المال ، مُحِبًّا فى الحِسان ، يُنادِمِ الصبيان ! » [وإذاً] لم تُحْسِنِ الرويَّةَ ، ولا ظَنَنْتَهُ فكراً .

ألَسْتَ تعلَم ، أيُّها الجاهِل ، أنَّ الملِكَ لا ينتفِع من المال إلَّا بما كان أوقاراً ؟ وهَل استوجب الملِكُ إلَّا بذلك ؟ وكَيْفَ لا يحرص على صيانةِ عِزِّه والعُدَّةِ على عدوِّه ؟ ما أنْساكَ لو عَلِمْتَ أنَّه مَنَعَ من حقٍّ أو أعْطَى فى غَيْرِ ما يجب ؟ فَقُلْ مَتَىٰ ضاع مَعْقِلٌ ، أو رفض* جُنْداً ، ودخلَتْ ٧٩(ب) داخِلةٌ من التقتير أو المنع ؟! أو مَتَى شكا رجلٌ من المسلمين أنه أخَذَ مالاً بغَيْرِ حقٍّ ؟ لم تَستَطِعْ على تزوير ذلك ! فالأَغْلَبُ يعلم صِحَّته . وأكْثِرْ من قَوْلك متى خرج من عنده شاعِرٌ بصِلَةٍ جَزْلَةٍ ، أو متى خرج [مادِحٌ] بكسوةٍ سَنِيَّةٍ : أمْرٌ لا يحتاجُ فيه إلى اعتذار ، إذ العَمَل به من الأَدْبَار .

وأمَّا مُنادَمة الصبيان ، فإذْ لم يكن بُدٌّ من استعمال شىء من الخَمْر ، التى قد تاب الله علينا منها ، فما لِلعُقار والزُّيَار ؟ ليس هذا مَجْلِسَ حُكْمٍ : فيُتَخَيَّرَ له ذَوو الأسنان ، ولا وُضِعَ لتدبيرِ رأيٍ ، فيُشاوَرَ فيه أهْلُ العِلْمِ ، ولا مَيْدانَ حَرْب ، فيُدْعَى إليه أنجادُ الفُرْسان ! ولكُلِّ وقتٍ حِكَمٌ : من استعمل فيه غَيْرَ شاكِلَتِهِ ، فقد جَهِلَ . ولم نكُنْ مع هذا نأخُذُ معهم فى جِدٍّ ، ولا نُمَكِّنُهم من أمْرٍ ، ولا نُنهضُهم إلى غَيْرِ طريقَتِهم ؟

والمُسْتَعْمَلُون لخِدْمة الدولة مَشْهُورُون ؛ مِمَّن له حنكة ودربة : والخديمُ لا يكون نَدِيماً : كَيْفَ تَصُول اليَوْم على من اطَّلَعَ على عَوْراتِك البارحة ، إذ السُّكر عورةٌ ؟ أم كَيْفَ تأْمُرُ بِخِدْمةِ الجُنْدِيّة والشّدّةِ عليه فى الخروج مَنْ تَعَاطَى معك الكأْسَ ، وكثُرَ معك المزاح والعَرْبَدة ؟ ثُمَّ تطلُبه لخِدْمَتِك ، فتجِدُه عَشُولاً عمَّا يصلحك مَشْغُولاً .

وبغَيْرِ هذا كلِّه ، فإن الدُّوَلَ الكبارَ لم يَزَلْ فيها الغِلْمانُ وأبناء الصنائع صِغاراً وكِباراً ، عَبِيداً وأحْراراً ، وهُمْ بين يدى الرئيس جَمَالٌ ، وعلى خِدْمَتِهِ أعْوانٌ ؛ ويتصرَّفَ الصغيرُ السنِّ فيما لا ينبغى للمُسِنِّ أن يتولَّاهُ . ولِكُلٍّ دَرَجَتُهُ ورُتْبَتُهُ . وهَل المُلْكُ والمالُ إلَّا للتزَيُّنِ والتجمُّل به ، وانتخابُ الحِسان منهم تليقُ بهم الكسوةُ السنيّة والمراكبُ الفارهة ؟ وأخُوكَ من وَاتَاكَ ، إذ يتعبَّد بمالِكَ من شئتَ يتعبَّد [خِدْمَتِك من] حُرٍّ أو مَمْلوكٍ . وإنَّ ابْنَ الإنسان ، إذا لم يَصْلُح له . . . . . إن يَقُلْ هذراً ، أىَّ عَمَلٍ وَلَّيْناهُ على بلدة ، أو صرَّفْنا إليه حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إلَّا ما وَصَفْناه ، لا أدرى غَيْره* وإلَّا . . . . . . فتكون مُجْرِحاً ، ولإشارَتِكَ ٨٠ (١) عاضداً ، أو تكون قاذفاً مُسْتَوْجِباً[١] !

جَعَلَنا اللهُ وإيَّاكَ عن الشرِّ مُعْرِضين ، وبطاعته عامِلين ! إنّه أكْرَمُ الأكْرَمِين ! لا رَبَّ غَيْرَه ، ولا إلهَ حَقٌّ حاشاهُ !

---

(١) وقع خرم ومحو كثير فى آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه .

كمل الـكتاب . والحمدُ لله . وصلّى الله على
سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّمَ تسليماً

الملحق الأول

مُنتخبات عن « كتاب البيان المُغْرِب »[1]

لابن عِذَارِى المرَّاكُشىّ

عن دولة الأمير عبد الله بن بُلقين بن زيرى

(١)

وفى سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حَبُّوس على قول المُرَادىّ . والأكثرون على أنّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطَّان فى « نَظْم الجُمَان » .

ذكر بيعة حفيد بَادِيس بن حَبُّوس

هو عبد الله بن بُلُقِّين الهالك بتدبير اليهودىّ المتقدم ذكره . وتسمَّى بالمُظفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتَّفق على مبايعته وَزَراء جدِّه ووجوه صِنْهاجة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف بسِمَاجة ؛ فاستقلَّ بحاله ورياسته . وكان لباديس وَلَدٌ خلف من البنين ، وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّان ؛ فكان ينهمك فى شرب من الخمر ، ويحدِّث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سمَّاها لُبُّونَة ؛ فمن أحدث له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِىَ إلى الكلابة ، فأكلته .

(١) عن مخطوط مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرَّق الناسُ عنه وكرهوه ، واتَّفقوا على تقديم عبد الله بن بُلُقِّين المذكور . فقام بأمره سِمَاجةُ خيرَ قيام .

وطمع ابن عبَّاد فى رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغْرَناطة ؛ فبرز عليها وبنى بقربها حِصْناً على ستَّة فراسخ منها ، وملأه بالرُّماة والرجَّالة ، وترك الخيل فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغْرَناطة وجهاتِها . فكان ذلك .

ثُمَّ لم يزل سِمَاجة يخدم الصبىَّ إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد بحاله ؛ فنفى عن نفسه سِمَاجة ؛ فلحق بالمَرِيَّة بمال كثير وحالة جسيمة ؛ ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلُقِّين بغرناطة . وسيأتى خبرُه فى دولة المُرَابِطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفى سنة ٤٨٢ ، طرد عبدُ الله بن بُلُقِّين من غرناطة مُقاتِلَ بن عَطِيَّة الزَّنَاتِىَّ ، وكان فارِسَ الإسلام ، وهو مع إخوته فى ثلاثمائة فارس . فكان ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلُقِّين .

وفيها ، قام مُؤَمَّل ، مَوْلى بَادِيس بن حَبُوس ، فى قَصَبة لَوْشة ، على حفيد مولاه بدعوة لَمْتُونة ؛ فأخذه عبدُ الله وسجنه .

. . . .

فأوَّل من شهر الخلاف على يوسف بن تاشُفِين صاحبُ إغْرَناطة عبدُ الله ابن بُلُقِّين ، كما ذَكَرْنا ؛ فنظر فى اختزان الأقوات ، وألْحَقَ الرُّماة والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصَّل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدَّبْدَبَانات ، ونصب الرَّعَّادات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ فى ضرب السِّهام ، وبذل فى ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تغن الْعُدَّة ؛ ونقل المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبة الْمُنَكَّب لكَوْنها فى غاية المنعة وعلى ضفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرته ؛ وهدم حصوناً ، توهَّم عليه القيام منها ، ومن مأمَنِه يؤتى الحذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتُحَف جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛ فوجَّه بها إلى الإذْفُونْش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه أنَّ البلد بلدُه ، وأنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إذْفُونشُ ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مِلَّته أن يشدَّ اليد عليه فى ملكه ، ولا يتركه لضَيْمٍ ولا هضيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه فى نصره ؛ وراجَعَه بمثل ذلك من قوله . فقويت نفسُ حفيد باديس بذلك .

وفى ذلك يقول السُّمَيْسَارِىُّ :

صاحِبُ غَرْناطة سَفِيهٌ وأعْلَمُ الناس بالأُمور
صانَع إذْ فُونْشُ والنصارىٰ فانْظُرْ إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خِلافاً لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاهاً كأنَّه دودة الحرير
دَعُوهُ يبنى فسَوْفَ يدرى إذا أتت قدرة القدير

واتَّصلت أنباؤُه بأمير المسلمين على حقيقتها ؛ فاشتدَّ غضبُه ؛ واستزاد جزعه .

وكان أبو جعفر القُلَيْعِىُّ من أهل إغْرَناطة فريد عصره فى الخير والعلم والتلاوة ، والمُشار إليه . . . .

الملحق الثانى

منتخبات عن «كتاب الإحاطة فى تأريخ غرناطة»
للسان الدين ابن الخطيب السَّلْمانىّ

(١)

ترجمة عبد الله بن بُلُقِّين(١)

عبد الله بن بُلُقِّين بن بَادِيس بن حَبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرِى بن مَنَاد الصِّنهاجىُّ أمير غرناطة .

أوَّلِيَّتُه : قد مرَّ ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية(٢) .

حاله : لَقَبُه المُظفَّر بالله ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدِّه الحاجب المظفَّر بالله فى شوَّال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمَاجة الصِّنهاجىُّ تسع سنين .

﴿ قال الغافِقِىُّ : ﴾ وكان قد حاز حظًّا وافرًا من البلاغة والمعرفة ، شاعِرًا جيِّدَ الشعر ، مطبوعَه ، حسنَ الخطِّ ؛ كانت بغرناطة ربعة مُصْحَف بخطِّه فى نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ ووصفَهُ ابنُ الصَّيْرفىّ ؛ فقال : ﴾ كان جبانًا ، مغمد السيف ،

---

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٢٨ : ترجمة الأمير باديس بن حبوس الصنهاجى .

قلقًا ، لا يثبت على الظهر ، عِزْهاةً ، لا أَرَبَ له فى النساء ، هيَّابةً ، مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحات ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفى عام ٤٨٣ ، تحرّك أمير المسلمين يوسف بن تاشُفِين لخلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويمّم قُرْطُبة . وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بمـا يغيظه ويحقده ، حسبما تقدّم[1] فى اسم مُؤَمَّل مَوْلَىٰ باديس . وقدّم إلى غرناطة أربع محلّات ؛ فنزلت بمقربة منها ، ولم تمتدّ يدٌ إلى شيء بوَجْه ؛ فسرّ الناسُ واستبشروا ، وأمنت البادية ، وتسايَلَ أهلُ الحاضرة إلى القُرَىٰ . وأسرع حفيدُ باديس فى المـال ، وألْحَقَ السوقة والحاكة ، واستكثر من اللفيف ، وألحّ بالكتب على إذفُونْشُ بما يطمعه .

وتحقّق يوسفُ بن تاشُفين استشراف الحضرة إلى مَقْدَمه ؛ فتحرّك . وفى ليلة الأحد لثلاثٍ عشرة خَلَتْ من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس صنَائعُه ؛ فخوّفوه من عاقبة التربُّص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ، وركبت أمُّه ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقى أمير المسلمين على فرسخَيْن من المدينة ، فترجّل وسأله العفو ؛ فعفَا عنه ووقف عليه ، وأمره بالركوب ؛ فركب وأقبـل حتى نزل بالمشيحة[2] من خارج الحضرة . واضطربت المحلّات ، وأمر مُؤَمَّلًا بثقاف القصر ، فتولّى ذلك .

وخرج الجمّ من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشُفين ؛

---

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعثر عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من « الإحاطة » . وفى النسخة الأولى : « بالمشانح » .

فقبلهم وأنّسهم وسكّن جانبَهم ؛ فاطمأنّوا . وسهّل مؤمّلٌ إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكَتْب الصكوك ورفع أنواع القَبَالات والخَرَاج ، إلّا زكاة العين وصَدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأعلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس الجوْهَر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرُّد ، وآنية الذهب والفضّة ، وأطباق البِلَّوْر المحكم ، والجُرْجانيّات ، والعِراقيّات ، والثياب الرفيعة ، والأنماط ، والكلَل ، والستائر ، وأوطئة الديباج ، ممّا كان فى ادّخار باديس واكتسابه . وأقبلَتْ دوابُّ الظهر من المُنَكّب بأحمال السبيك والمسبوك . واختلفت أمُّ عبد الله لاستخراج ما أُودِعَ ببطن الأرض ، حتى لم يَبْق إلّا الخرثى والثقل والسقط ، وزّع ذلك الأمير على قوّاده ، ولم يستأثر منه بشىء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤمّل فى دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثُر استحسانه إيّاه ، وأمر بحفظه وتفقُّد أوضاعه وأفْنِيَته .

ونُقِلَ عبدُ الله إلى مَرّاكش ، وسنُّه يومَ خُلِعَ خمسٍ وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقرّ بها هو وأخوه تميم ؛ وحُلَّ اعتقالُها ، ورُفِّهَ عنهما ؛ وأجروا المُرتّب والمُساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فقُضِيَتْ مآربُه ، وأُسْعِفَتْ رغباته ، وخفّ عَلَى الدولة ؛ فاستراح واستُريح معه . ورُزِق الوَلَدَ فى الخمول ؛ فعاشَ له ابنانِ وبِنْتٌ جمع لهم المال ، فلما توفّى ترك لهم مالا جمًّا .

مولده : وُلد عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مُقاتِل بن عطيَّة (١)

مُقاتِل بن عطيَّة البِرْزالىُّ ، يكنى أبا حَرْب . ﴿ قال فيه أبو القاسم الغافقِىُّ ﴾ : من أهل غرناطة ، ويُلَقَّب بذى الوزارتَين ؛ وتعرَّف بالرُّيَّه لحرةٍ كانت فى وجهه .

حالهُ : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلى نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بنى بِرْزَال . وولَّاهُ الأمير عبدالله بن بُلُقِّين ابن باديس مدينة اليُسَّانة ، والتقى به ابن عبَّاد وأخذ بمخنقها . وكان عبدالله يحرزه . وعندما تحقَّق حركة اللمتونيِّين إليه ، صرفه عن جِهته ؛ فقلَّ لذلك قاصرُه ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعتُه : ﴿ قال ﴾ : وحضر مُقاتل مع عبد الله بن بُلُقِّين أمير غرناطة وقيعة النيبَل فى صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيهـا بلاءً عظيماً ، وجرح وجهُه وخرق درعُه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعر ، وحملت الترس ولم أعلم به ، وحملنى الله إلى طريق منجاة ، فركبتُها مرّةً أقَعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدهم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعُه مهتكةٌ بالطعن ، وبه جرحٌ فى وجهه يثعب دماً تحت مِغْفَره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسى ؛ فوجدتُ ثقلاً ؛ فتذكَّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ حمالته عن عاتقى

---

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٨٨ .

وألقيتُه عنّى ؛ فوجدتُ خفّةً وعُدْتُ إلى العدوّ ؛ فصاح ذلك الفارس : خُذِ الترس ! » قلتُ : « لا حاجة لى به ! » فقال : « خُذْهُ ! » فتركته ووليتُ مسرعاً ؛ فهمز فرسه ووضع سنانَ رمحه بين كتفىَّ وقال : « خُذِ الترس ، وإلاّ أخرجتُه بين كتفيْك فى صدرك ! » فرأيتُ الموت الذى فَرَرْتُ منه ، ورجعت إلى الترس ؛ فأخذتُه ، وأنا أدعو عليه ، وأسرعتُ عدواً . فقال لى : « على ما كنت فليكن عدوّك ! » فاستعذتُ وقلتُ : « ما بعثه الله إلاّ لهلاكى ! » وإذا قطعة من خيل الروم قد بصرت به ؛ فوقع فى نفسه أنّه يسرع الجَرْى فيسلم وأُقْتَل ، فلما ضاق الطلق ما بينه وبين أقربهم منه ، عطف عليه كالعقاب وطعنه ووطره ، وتخلّص الرمح منه ، ثمّ حمل على آخر : فطعنه ومال على الثالث ، فانهزم منه ، فرجع إلىّ ، وقد هبتُ من فعله ، ورشاش دم الجرح يتطاير من قِناع المِغْفر لشدّة نفسه ، وقال لى : « يا فاعل ! يا صانع ! أتلقى الرمح ، ومعك مُقاتِلٌ الرُّيه ؟ »

(٣)

ترجمة مُؤَمَّل(١)

مُؤَمَّل ، مولًى باديس بن حَبُوس .

حالُه ومِحْنَتُه : ﴿ قال ابن الصَّيْرَفىّ ﴾ وقد ذكر عبدَ الله بن بُلُقِّين حفيدَ باديس ، واستشارته فى أمره لما بلغه حركة يوسف بن تاشُفِين إلى خَلْعه : وكان فى الجملة من أحبابه رجلٌ من عبيد جدّه اسمُهُ مُؤَمَّل ، وله سنٌّ ، وعنده دهاء وفطنةٌ ورأىٌ ونظرٌ .

---

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

{ قال فى موضع آخر } : ولم يكن فى وزراء مملكته وأحبّاء دولته أصيلُ الرأى جَزْلُ الكلمة إلّا ابن أبى خَيْثَمة من كتبته ، ومؤمّل من عبيد جدّه ، وجعفر من فِتْيانه .

{ رجع . قال } : فألطف له مؤمّل فى القول ، وأعلمه برفقٍ وحُسْنِ أدبٍ أنّ ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرُبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنّه لا يمكنه مدافعته ولا يطاق حربه ، والاستخذاء له أحمد عاقبة وأيمنُ مغبّة . وتابعه على ذلك نُظَراؤُه من أهل السنّ والحنكة ، ودافع فى صدر رأيه الغلمة الأغمار ؛ فاستشاط غيظاً على مؤمّل ومن نحا نَحْوَه ، وهمّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقاً منه . فلما جنّهم الليلُ ، فرّوا إلى لَوْشة ، وبها من أبناءِ عبيد باديس قائدُها ؛ فملكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسُف بن تاشفين .

وبادر مؤمّل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلاً ؛ فاهتزّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلّب عليهم . وسيق مؤمّل ومن كان معه شرّ سوق فى الحديد ، قد أُركبوا على دوابّ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلّ رجل من يصفعه . وتقدّم الأمر فى نصب الجذوع وإحضار الرماة . وتلطّفَ جعفر فى أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلتَهم الآن ، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فثقّفهم . وأطمعوا فى أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين فى حلّ اعتقالهم ؛ فلم تَسَعْهُ مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفئية تلك الحال ، قدّم مؤمّلا على

مُسْتَخلَصه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فنال ما شاء من مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صامتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها السّقاية بباب الفخّارين ، والحوْز المعروفة بحَوْز مُؤمّل . أدركتُها ، وهي بحالها .

وفاتُه : ﴿قال ابن الصَّيْرَفيّ﴾ : وفي ربيع الأوّل من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ، توفّي بغرناطة مؤمّل ، مَوْلَىٰ باديس بن حَبُوس ، عبدُ أمير المسلمين وجابي مُسْتَخْلَصه . وكان له دهاء وصبرٌ ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتبٍ ؛ رزقَه الله عند أمير المسلمين أيّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعـةً . ولما أشرف على المنيّة ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثمّ أبرأ جميعَ عُمّاله وكُتّابه ، وأنفذ رجلاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملةٍ من مال نفسه ، يُريه أنّ ذلك جميع ما اكتسبه في دولته أيّام خدمته ، وأنّ بيت المال أولى به ؛ ورغب في ستر أهله ووَلَده . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى تقديم صنيعته .

ثمّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتجنه ، وشقاء مَنْ خَلّفه بسببه ، وعدّد مالاً وذخيرةً .

فهرس أسماء الرجال

— ن —

— هـ —

— و —

— ى —

فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

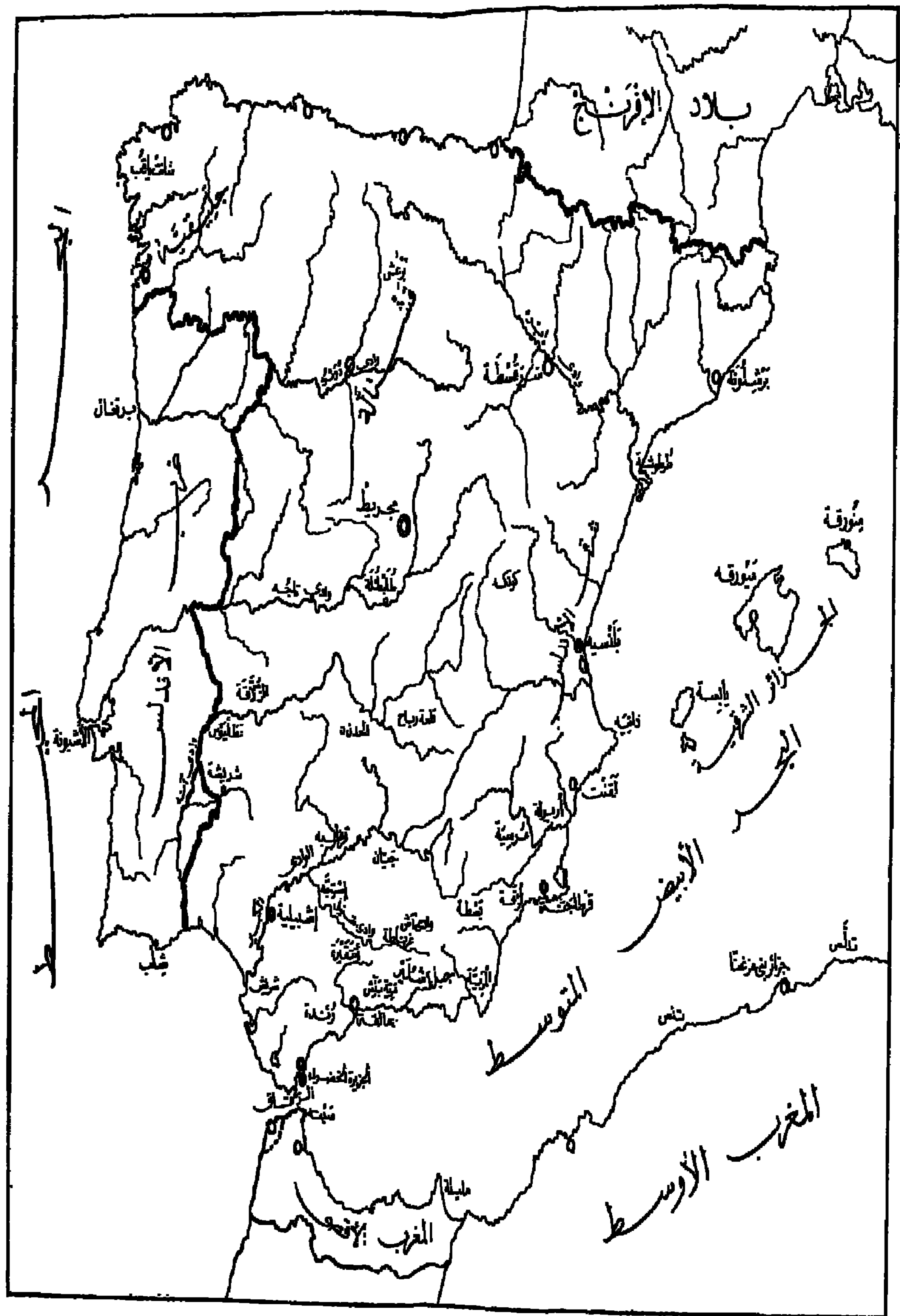
فهرس الأعلام الجغرافية

فهرس الفصول

صفحة

صفحة

صفحة



خريطة جزيرة الأندلس فى عهد ملوك الطوائف

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

***

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 × 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyin à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabsûṭ* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥâṭa* de Ibn al-Khaṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

E. L.-P.

ṣinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdîs ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par le champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérés, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Ḥulal al-mawshiya*, que l'émir 'Abd Allâh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* d'Ibn al-Khaṭîb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwân*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allâh ibn Buluggîn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmât; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmât me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une présision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭîb visita Aghmât et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbâd en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣaḥḥa; aṣl*[un].

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allâh: en effet, d'un passage du *Kitâb al-Marqaba al-'ulyâ*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubâhî, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyân 'an al-ḥâditha al-kâ'ina bi-dawlat Banî Zîrî fî Gharnâṭa.*

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

***

Qui était cet émir 'Abd Allâh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allâh ibn Buluggîn ibn Bâdîs ibn Ḥabûs ibn Zîrî fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulûk al-ṭawâ'if*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XIe siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭîb au VIIIe siècle [XIVè siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almohadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allâh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE ᶜABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Etudes Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955